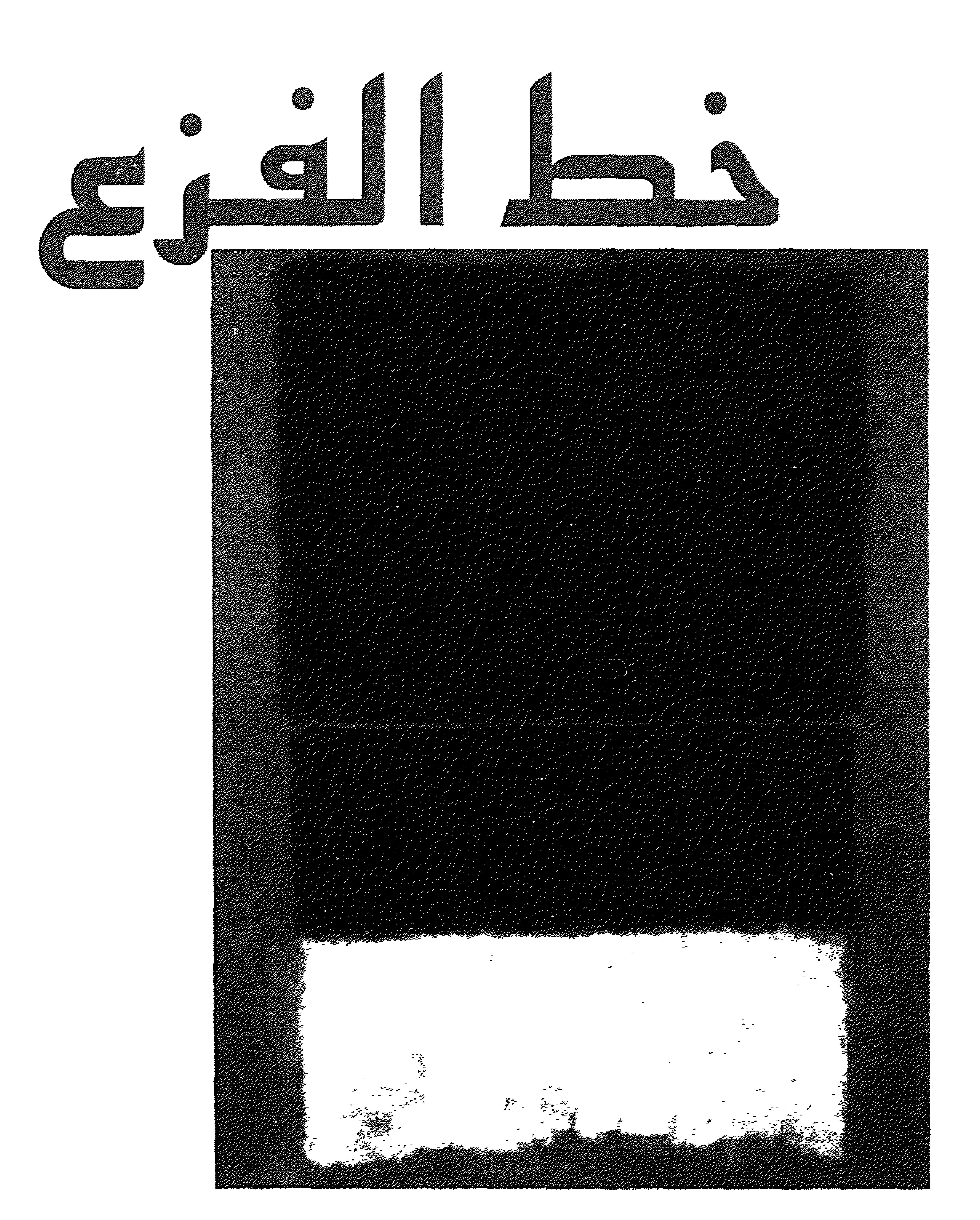
ادريس بلمليح

رواية

خط الفزع



أفريقيا الشرق

خط الفزع

المؤلف ـ ادريس بلمليح
عنوان الكتاب
خط الفزع ـ رواية

رقم الإيداع القانوني 98 / 65
ردمك ISBN. 9981-25-098-8

أفريقيا الشرق ـ المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف 259504 - 259813 ـ فاكس 440080

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب. 3176 - 11

ادريس بلمليح

رواية

خط الفزع

أفريقيا الشرق

بـاب الوفـاء

كانت فاس إلى العهد الذي أعرفها فيه مدينة ذات عدوتين. يفصل بين العدوتين نهر (بوخرارب). هو نهر يحمل فضلات المدينة بشقيها إلى قنطرة (بن طاطو)، ثم منها إلى نهر سبو.

(بن طاطو) هذا بنى قنطرته من مح البيض والحجر والرّمل! ولذلك كانت قنطرة صلبة لاتقوى عليها عاديات الزمن.

كيف يبني الإنسان قنطرة من مُحّ البيض؟ لابد أن (بن طاطو) رجل مجنون، أو إن حكمته فاقت كل حكمة. وقد يكون بنى قنطرته ببعض البيض فأفرط أهل فاس في خبره وزادوا فيه من مخيلتهم ليعبّروا عن استغرابهم لرجل يتولى وحده بناء قنطرة برمتها.

يحكون عنه أنّ أعيان فاس ممّن كانوا يملكون شجر الزيتون ودوالي العنب في ضاحية المدينة بالقرب من جبل (زلاغ)، أرادوا أن يأمنوا الطريق لغلالهم، فارتأوا أن يبنوا ممراً ثابتا نحو (المطا) الموجودة في سفوح (زلاغ)، ممراً لاتجرفه أمطار الشتاء، الوقت الذي يعصرون فيه زيتهم ويسقطون فيهم غلالهم الوفيرة. ارتأوا ذلك فأرادرا أن يشْركهم فيه. طرقوا بيته فسمعوا صراخا رهيبا وبكاء وصياحا عرفوا من سببه فيما بعد أنّه كان يضرب ابنته حين لم تشقّ الثقاب إلى نصفين، فتشعل النار بنصف وتترك النصف الآخر للنار التي بعدها.

كيف يبني معهم القنطرة وهو يضرب ابنته لأنها لم تقتصد في استعمال الثقاب. ربما كانت عيدان نارهم في زمن (بن طاطو) عيدانا جديرة بأن تشق إلى نصفين؟ وربما كان كل أعيان فاس يفعلون ذلك، ولكنهم عابوه من (بن طاطو)؟

وحين حدثه أحدهم بالقنطرة وعود الثقاب قال في سخرية منه ومن أصحابه: وإذا تزوجت رجلا فقيرا؟ ماذا ستفعل إذا لم تكن مقتصدة؟

ثم أقسم أن يتحمل بناء القنطرة وحده! وأقسم أن تبنى من محّ البيض! عرفتُ أن (بن طاطو) كان حكيما، لأنه ضمن الغنى لفاس، وضمن في الوقت نفسه الكرامة والحياة لفقرائها.

كان نهر (بن طاطو) بين عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين. وجامع القرويين أقدم بكثير من جامع الأندلس. ولذلك كانت (القرويين) بؤرة فاس لامحالة. إلاّ أنني أظن بأنّ بؤرة أخرى قد نشأت بعد هذا الجامع، حين لاحظ الأندلسيون بأنّ مسجدهم بعيد عن مركز المدينة، يطلّ على مشارفها من جهة باب (الفتوح) الواقعة في الناحية الشرقية.

بنى الأندلسيون جامع الرصيف، أو بُني لهم... والرصيف عند أهل فاس قنطرة صغيرة يمرّ منها الأندلسي الى القروي أو العكس. ثم نشأت حول الجامع سوق فيها دكاكين كثيرة تستقبل غلال البساتين وسمك سبو وزيتون (المْطا)، فيتكدّس كلّ ذلك في مواسم معلومة ليتخذ غداء يومياً، واحتياطا لانقطاع الطرق، ورغدا في العيش. وأظنّ أنّ الجامع والسوق كانتا تقليدا للقرويين وسوقها. ذلك أنّك تلاحظ سوق العطّارين والجوطية بالقرب من هذا المسجد الشهير في تاريخ مدينتنا، ثم تلاحظ أيضاً بأنّ جامع الأندلس خال من أيّ سوق حوله. أليس الأمر تنافسا بين شطري المدينة وتنازعا حول مركزها؟

وأنا الذي لم أكن في ذلك الوقت قد جاوزت الخامسة من عمري، كنت أسكن بجوار القنطرة التي تفصل بين العدوتين؛ ولذلك كنت أتنقل بين هذه الجهة وتلك من مدينتي دون أن أحسّ بأيّ نوع من أنواع التنافر بين أحجارها وحيطانها وطرقها. كلّ شيء فيها متشابه وبسيط ورائع. لم أكن أحسّ بشيء ممّا يجري فيها على وجه التحديد.

كنّا نجتمع فوق قنطرة الرصيف مرّات متعددة في السنة. أهمّها على الإطلاق يوم (شعبانة). نشتري مسدّسات سوداء صغيرة نضع في أفواهها خراطيش مصطنعة، ونضرب بها في أوجه أصدقائنا كأنّنا نلعب لعبة الموت أو الشرف؛ ثم نسمع أحد الرجال يصيح: هلال رمضان، راه، راه، انظروا. فيجيبه آخر: نعم، قد رأيته، ثمّ يجتمع الناس، وتهدأ حركة الصغار، لينظر الكلّ من فوق القنطرة إلى الأفق البعيد كي يذهب إلى منزله يعلن عن حلول شهر له في جامع الأندلس والقرويين والرصيف وضريح المولى إدريس مواسم وسهرات ومحبّة!

أضرب إلى السماء بالمسدّس الصغير، وأجري إلى أمّي لأخبرها بأنّ الناس قد رأوا هلال رمضان، فتقول في فرح وهي منشغلة بعمل بيتها:

- الله يجعلو مبارك مسعود.

ثم نجتمع فوق القنطرة أيضا يوم عيد المولد ليبيع بعضنا (العصيدة) ويشتريها بعضنا. ونجتمع كذلك يوم عاشوراء، ويوم عيد الفطر، وقبل عيد الأضحى وبعده. في عاشوراء نلعب ونتضاحك ونضع بعض الأقنعة كي نتبادل لعبة الخوف. وفي عيد الفطر نتباهى بثيابنا الجديدة، وقبل عيد الأضحى نشتري النّجم والتّبن لخرافنا التي تذبح فنبيع مصارينها فوق القنطرة أيضا.

ولكنّ القنطرة وسوق الرصيف يذكّراني بيومين اثنين لايمكن أن أنساهما: الأول يوم انفجرت قنبلة في السوق! كانت جدّتي تحملني فوق ظهرها وهي خائفة ممّا يروج في المدينة عن مقاومة المغاربة للفرنسيين. اقتربنا من السوق فانقطعت طريقنا إلى الجهة الثانية من فاس، وقد ازدحم الناس وكثر لغطهم، وبعضهم يهمس لبعض: قتل الربّاع، قتل الكلب.

كان أحمد الربّاع -فيما حكاه أبي- خائنا يخبر الفرنسيين عمّن دخل إلى المدينة أو خرج منها عن طريق باب (الكيسة). وهذه الباب مليئة بالبساتين، والخائن يقوم على ثلاثة منها، يأخذ ربع غلّتها، ويوصل الى الضابط الفرنسي كلّ خبر عن جهة باب (الكيسة).

واليوم الثاني أردت فيه أن أمرّ مع جدتي من جهة الأندلس الى القرويين. أوقفنا الجنود الفرنسيّون فوق القنطرة، سألونا بلهجتهم عن هويتنا، لم نفهم شيئا ممّا قالوه، أردنا الرجوع من حيث أتينا، ثمّ تذكرت جدّتي زوجها الضرير، استعطفت أحدهم بإشارة من يدها التي وضعتها على شفتيها، نظر إليها في صلابة، تأمل جلبابها ولثامها، ثمّ تركنا نمرّ.

ماتزال عينا الجنديّ مستقرتين في عينيّ. للطفولة ذاكرة مضاعفة، ولها أيضا مستقرّ في زوايا الذات البعيدة، هي بقعتك البيضاء بعد أن سافرت في الحياة، هي الملجأ المطمئن من ضياعك المؤكد، تحتمي بها كلّما ذبلت جذورك في رحلة اللامعنى، هي رحلة لعينة، الطفولة معبد تغتسل فيه من أدرانك، لماذا تتذكر جدّتك؟ لأنّ عملية الدفن رهيبة لاتحتمل، ولأنّ المسافة الفاصلة بينكما بعيدة إلى حدّ لايمكن أن تتصوّره، هل ذهبت أيّامها أدراج الرّياح؟ هل ذهب زمنها الى غير رجعة؟ مستحيل!

وأذكر إلى جانب قنبلة الربّاع والجنديّ الصلب يوما آخر كانت فيه القنطرة هادئة ساكنة مستسلمة لأرجل العابرين، لايكاد يقف فيها سوى ثلاثة أطفال أو أربعة؛ منهم صديقي عبد اللطيف، ينظرون في دهشة إلى شابّين فرنسيين أخذ أحدهما يعبر القنطرة جيئة وذهابا، ويقيسها من هذه الجهة وذلك الجانب، ثمّ يعيد حركاته ويكتب في دفتر صغير ألصق على لوح بين يديه. فيما أخذ الآخر الذي يعتلي كرسيا طويلا يشرف منه على النهر، أخذ ينظر في عدسة صغيرة موصولة بثلاث قوائم تكاد تنغرس

في الأرض، ثمّ يسجّل في دفتر شبيه بدفتر صاحبه مايستخلص من نظره، ويعود ليفعل ذلك مرّة ومرّتين. ونحن في كل ذلك مستغربون أمرهما، لانفهم شيئا ممّا يفعلانه، ظللنا في دهشتنا إلى أن استفقت على صوت أبي يناديني:

- ماذا تفعل هنا؟ هذا وقت الغذاء... فوقاش ارجعتي من عند للاّك؟

- قبل قليل.

كان الرجوع الى البيت أسهل بكثير من الذهاب الى جدّتي. كنت أترك رجليّ للطّريق المنحدرة فلا أكاد أشعر ببعد المسافة. ولكنّي كنت دائما أفضّل الطريق الى جدتي بالرّغم من مشقّتها. ثم إنّي لم أكن أترك منزلها إلاّ وقد سيطر عليّ ألم وكآبة لم أعرف مصدرهما إلا بعد أن شملتني رحلة الزمن. هي تصرّ على أن أرجع إلى أمّي، وأنا أتشبّث بالبقاء عندها. أحيانا كانت ترغمني على الرجوع، فتكلّف زوجها الضرير بأن يقودني في الطريق إلى أمّي. تخاف عليّ فيصحبني زوجها. يضرب الأرض بعصاه ضربا خفيفا لاتكاد تسمع صوته، ويأخذ بيدي فيقودني بدلا من أن أقوده. يدقّ الباب بعصاه فيفتح أمامه كيفما اتفق، تقبّل أمّي يده وتسأله إن كانت جدّتي في حاجة الى زيت أو سمن أو فاكهة. يحمد الله ويقول: إنّها اشتاقت الى ابنتها فهي في حاجة إلى رؤيتها. تجيبه أمّي:

- ألم أكن عندها أوّل البارحة؟

- تعرفين أنّك ابنتها الوحيدة... كيف تصبر عنك؟

- قل لها إنّني سأكون بعد العصر في (مولاي ادريس).

يدعو لها زوج أمّها بالرّضى، ويضرب العصا إلى داره وهو واثق من أن طريقه لن ينحرف به. كانت الطرق عندنا واضحة وليّنة، غير متشابكة هذا التشابك الذي نعرفه. ولذلك لم يكن زوج جدّتي ليضيع بينها في عماه.

وهذا الزوج الضرير هو رجلها بعد جدّي الذي توفي في فتوّته.

تقول جدّتي: إنّ (بريكة) هي التي قتلته!

وتقول أمي: إنّ محبّة جدّتي هي التي قتلته!

ويقول أبي: إنّهما قتلتاه!

يحكي أبي أن (بريكة) كانت مغنية سوداء من أصل إفريقي عريق؛ رائعة الصوت وجميلة أيضا.

وكان جدّي -فيما يظهر- يحبّ (بريكة) محبّة الموت، أو قل إنّه - بحسب رواية أمّي - يهرب من جدّتي الى (بريكة). ذلك أنّ (العزيزة)، وهذا هو اسمها الحقيقي، كانت جميلة، بيضاء، في مقتبل العمر وابنة الحاج محمّد، تعامل جدّي معاملة النّدّ للنّدّ: عليه أن يقوم بواجباته وأن يلزم داره ويشرّف وجهها بين بنات أسرتها. وكان

يشاع عن جدّي أنه يذهب إلى (بريكة) في منزلها، فتغني له وتسقيه من خمرتها ومحبّتها السمراء، ويقضي عندها بعض الليل، ثمّ يصيبه الخوف من ابنة الحاج محمّد، فيعود الى منزله قبل مطلع الفجر.

يقول أبي: إنّه كان يحبّهما معا، وتقول أمّي: إنّه كان يهوى (بريكة) ويحبّ جدتّي، وتقول جدّتي: إنها كانت ساحرة سوداء قتلته! هل مات جدي حبّا؟

كان يهواها فيذهب إليها كل ليلة بعد أن ينتهي من تجارته في حانوت فسيح ملأه بالأواني النحاسية العتيقة والزرابي المتقادمة وبنادق المخزن من عهد السيبة. كان الفرنسيون يعشقون سلعته فيشترونها بأي ثمن. تعلّم منهم لهجتهم فزار الجزائر وإسبانيا وباريز، ولم يحجّ! تتحسّر أمي على ذلك وتدعو له بالمغفرة. كان يدخل إلى (بريكة) فيجد لديها ما لا يجده عند (العزيزة).

أسأل أمي:

- وكيف تعرّف عليها؟

- غنت في عرس أخته فانفعل بجمالها العنبريّ وصوتها الحزين وهي تردّد:

مْثلي مْثَلْ الحَمَّامْ
مَن الفُوق مَا بانْ دَخَّانْ
وْمَن القلبْ طَابو حْجَاري
ايلاَ ما بْغَاني حْبيبي نْعيش معاهْ
نَقْصَدْ بهْوايَا الغْيَبْ والصْحَاري
نْعيش مْعَ الطْيور والزْهار والبْراري
حتَّى نجْبَرْ حْبيبْ نْهْديلُو ايَّامي ونْدْفَنْ فْقلبُو سْراري
كْوانِي الزْمانْ يَاهْلْ الْهْوىَ بْهَمُومي وجْمارِي.

منحها جدّي في إعجابه المجنون بسمرتها وصوتها خاتما وخلخالا ورثهما عن أمّه، ثم صاح وسط الجميع: "اشهدوا أيّها الناس أنّ هذه أجمل امرأة في الدنيا".

كانت (بريكة) تحبّه، وكانت ترضي جنونه بالغناء الحزين. لم يكن المذياع في ذلك الوقت قد شاع استعماله في فاس؟ وكان الناس يرضون نزوعهم الفطريّ إلى الغناء بالأندلسي والملحون ومواويل بعض المغنّيات اللائي يظهرن بين حين وآخر في مدينتنا.

- أحبّ (بريكة) وتزوّج جدّتي؟ لماذا لم يتزوّجها وقد أعطاها خاتما وخلخالا؟

- منعه أبوه من ذلك لأنها كانت تغني.

- وكيف تعلمت الغناء؟

يجيبني أبي :

- كانت ابنة رجل من مخزن الحسن الأوّل. شهد معه الغوغاء والحَرْكات والسيبة. أبلى بلاء حسنا فكسب مالا وتزوّج حرّة وسكن بالقرب من دار البريهي. عشقت (بريكة) الأندلسي من طفولتها المبكّرة. تصعد إلى سطح المنزل الذي تقطنه أسرتها، وتطلّ على رجال الآلة في دار البريهي يتدربون ويحفظون إلى أن أتقنت السّماع.

غنّت لأمّها وللجيران فاشتهرت روعة صوتها بين النساء والأطفال؟ ثم حفظت (العروبي) و(التزيري) و(عيطة جبالة).

مات أبوها فأتقنت الضرب على العود، وغنت للرجال والنساء ووجهاء المدينة.

كانت سوداء مشوبة بحمرة، وكانت قسماتها دقيقة مشعّة. ولذلك عشقها جدّي.

تزوّجت (بريكة) من أحد وجهاء فاس، تركها حاملا وذهب إلى الحجّ. ثم اشتغل بالتجارة في تونس حين رجوعه من مكّة. انتظرته سنتين، ثم طلّقها منه الباشا البغدادي الذي كان يحكم في دار قريبة من دار البريهي تسمّى دار بوعلي.

تبتسم أمّي وتقول:

- هل يترك جدّك البكر ويتزوج امرأة بابنتها.

تزوج جدّي (العزيزة) وظل على علاقته ب (بريكة). وحين عرفت جدتي خبر علاقته المتصلة بالمغنّية السمراء، قرّرت أن يكون لها وحدها، وأن يموت بينهما إن أراد ذلك.

كانت (بريكة) تسكن درب (مينة) بالقرب من سقاية النّجارين. وفي ساحة النجارين كانت حانوت جدي.

أمرّ عبر قنطرة الرّصيف مع (العزيزة)، تشتري العنب والرّمان -أحب فاكهة إليها-، ونمرّ بباب (السنسلة)، فَرَاس الشراطين، ثم بجانب ضريح المولى إدريس، لنطلّ على ساحة النّجارين، فتصرّ جدتي على أن نمر بسرعة، وأصر على أن أشرب من السقاية، فتتركني لأرتوي من ماء عذب مازلت أتنفس رائحته وأملأ عيني من زرقته الهادئة. تسبقني في حركة بريئة لتتجاوز درب (مينة) وتنتظرني بعده بخطوات. أنحني برأسي حين أمرّ بجانب الدرب الطويل الرطب، لأنني أحببت جدتي، فلا أريد أن أثير في قلبها ذكرى المحبة المنقسمة. أحيانا كانت تغيّر طريقها كي لا أشرب فأنظُرَ إلى الحانوت أو أنحني برأسي حين أمر بمدخل الدرب. حين نخرج من حرم المولى إدريس نعرّج على الجهة اليسرى بعده، فنمر عبر (سيدي

موسى)، ونصعد في (عَقْبة كرنيز)، لنخرج إلى (زقاق الحجر) من وسطه، ثم نزداد صعدا كي نصل إلى منزلها الواقع في درب الرّوم.

كان هذا المنزل موقوفا على بنات أسرتها...

- ألم ترث شيئا من زوجها؟

يجيبني أبي في تقاطع مع إجابة أمي:

- ماذا سترث يا ولدي، أكَلَ في سبيل (بريكة) كلّ ماله.

- وأبوها الحاج محمّد؟

- ترك سبعة ذكور وستّ بنات.

مات زوجها فقضت سنوات طويلة في منزل الوقف. ذهب أكثر شبابها في المعاناة، تعيش من عرق جبينها: تخيط لنساء فاس بعض ثيابهن الداخلية التي لم يكن خياطو الجلباب والقفطان يستطيعون رتقها، لأنها شرف النساء وسرّهن المكين. ثم تزوجت رجلها الضرير.

حين أسألها عن جدي: هل كانت تحبه؟

تقول في ابتسامة لا يمكن أن تبرح مخيلتي:

- ومن هذه التي لا تحبّ زوجها؟

- وهل كان يحبك؟

- كان يموت عشقا!

وأريد أن أحرجها بأسئلة الطفولة:

- و(بريكة)، ماذا كان يفعل بها؟

- كان زانيا ككل الرجال، يتركون الحلال ويعشقون الحرام.

وتضحك قليلا فيظهر لها ضرس ناصع كنت أحبّ أن أراها ضاحكة كي يبين، ثم تواصل كلامها:

- كانت تغني له، كان صوتها رائعا حزينا. الرجال يعشقون نغمة عودها وسمرتها، والنساء يكرهن جمالها ويتعلقن بأغانيها.

حين تيقّنت جدتي من أن محبتها محبة منقسمة، قصدت المولى إدريس عدة مرات، تصلي وتدعو لزوجها بأن يشفى من هذا العشق الذي لم تجد له حيلة أخرى غير التوجّه إلى الله.

وحين مات جدي كان يومُها مع (بريكة) يوما مشهودا. مات جدّي لِحُمّى أصابته ولم ينفع معها ماء الورد وورق السوسن، ولكن جدتي اعتقدت أن محبة (بريكة) هي التي قتلته.

ذهبت إليها، رمت في وجهها بخمار أحمر، وصاحت في وجهها:

- تركت لك الله، ذنوبي علْيك، قتلت راجلي، تركت لك مولاي إدريس!

اجتمع الجيران في درب (مينة)، حاولوا تهدئة عنفها، (بْريكة) صامتة تنظر إليها في دهشة، لا تستطيع مواجهتها، وتستغرب أن تقف ابنة الحاج محمد هذا الموقف المليء بالفضيحة.

تركتها تقول ما تريد، لأنها كانت على يقين من أن عشيقها مات كأي ميّت، ولأنها عرفت بأن كلام جدتي صادر عن حرقة المحبة التي غنت لها طول عمرها.

أراد الجيران صرفها عن البكاء والألم، رموا في وجهها بمناديل حمراء وخضراء، توسلوا لها بسبعة رجال، فما استطاعوا إخماد كيّة قلبها.

تقول أمي: إن امرأة من معارف جدتي، كانت تسكن في درب (مينة)، حضرت معركة الألم والمحبة المنقسمة، فقصدت دكان الأخ الأكبر لجدّتي في (العطارين)، وأخبرته خبر أخته، فنفض يديه وهرول نحو درب (مينة). لم تبال جدتي المكتوية بالمغنية السمراء، بأخيها ينهاها عن الصّراخ والبكاء. واصلت دعاءها وصياحها:

- لم تجدي غير زوجي لتقتليه، حاسبك الله بطعامه وماله، ستعيش ابنتي يتيمة بعده.

وقفت دموع أخيها في عينيه، استعطفها، قبل رأسها العاري، بدأت تنثني قليلا، أشارت بعض النساء على (بريكة) بأن تظل صامتة، أخذت تبكي هي أيضا وتلعثمت بكلام لم يفهم منه الحاضرون شيئا، أصابها اختناق وتوتر، خرجت من باب دارها، اتّجهت وسط الجماعة نحو جدّتي، قبّلت رأسها، ضمتها إلى صدرها وأخذتا في بكاء صامت.

تركتهما الجماعة التي تحلقت حولهما في ألمهما الدفين، كانت (بريكة) دون جلباب، وكان رأس جدتي عاريا، والجماعة تنظر إليهما في تأثر، كان قلبهما يتقطع من المحبة المنقسمة التي أصبحت معروفة في درب (مينة) وفي غيره من الأحياء المتفرقة في فاس، والتي انتهت بأن عانقت جدّتي مغنية زوجها السمراء، وانصرفت تردّد معاناتها وحرمانها.

غريب هذا الزمن البعيد!

مرة وأنا ألاعب عبد اللطيف فوق القنطرة، خطرت لي فكرة غريبة. هكذا وردت عليّ فجأة فحدثّته بها:

- هل تذهب معي إلى ساحة النّجارين؟

- ماذا ستفعل هناك؟

- أريد أن أتعرّف على امرأة في درب (مينة)!

- ومن هذه المرأة؟

- مغنيّة جدّي!

- مغنية جدّك؟ أنت أحمق.

استغرب عبد اللطيف كلامي، تداركت الأمر:

- امرأة كان قد تزوّجها جدي وطلقها لأنها مغنية، هل تذهب؟

تردد قليلا، ثم وضع ذراعه اليمنى فوق كتفي وانطلقنا في سرعة.

أثقل حركتنا ازدحام المولى إدريس، افترقنا، تسلّلنا بين الناس، اجتزنا سوق الصّواني، ثم وضعت يدي اليسرى فوق كتفه. شربنا من السقاية، انحرفنا بعدها إلى اليمين قليلا، توقفنا بمدخل الدّرب، بدا طويلا كأنه لا نهاية له، تغلب عليه الظلمة أكثر مما يسوده النور، لاحظ عبد اللطيف اضطرابي، همس إلي في حذر:

- عمّن تبحث؟

- عن امرأة يقال لها (بريكة).

ضحك عبد اللطيف ضحكة ساكتة، استغرب الاسمَ الذي تردّد بين شفتيّ، تراجع قليلا، كأنه يدعوني إلى أن ننصرف، لم أستجب لما يريده، قال لي في تسارع:

- هيا، دعنا من هذه المرأة التي لا تعرفها، سنلعب في ضريح المولى إدريس قليلا، ثم نرجع إلى منزلنا.

كدنا ننصرف، لولا أني رأيت امرأة سوداء عرفت فيها مغنّية جدي الذي مات حبا. عرفتها هكذا دون أن أحتاج إلى من يعرّفني بها. كان خاتم جدي في يدها، فلابدّ أن يكون خلخاله المرصّع بالزبرجد في أسفل ساقها. كانت امرأة ممشوقة القامة، ترتدي جلبابا أخضر مطرّزا بالوردي من صدره وجانبيه. نظرت إلينا نظرة عابرة فلاحظت في عينيها سحرا حالما. كان لثامها ورديا ينسدل إلى صدرها قليلا كحَبّ الرّمّان.

ماكادت تُجاوزُنا حتّى أشَرتُ على عبد اللطيف بأن يتبعني. سرنا وراءها دون أن تحسّ بخطواتنا تتلمّس طريقها. وقفَتْ بباب منزل عتيق كأغلب منازل فاس، أخذَت بيدها خرصة الحديد الغليظة المعلّقة في وسطه، وطرقت الباب طرقا خفيفا كأنّها واثقة من أنه سينفتح أمامها، زادت طرقة أو طرقتين. تحرّك رتاجه في ثقل تشعر معه بأنّه قد صنع من خشب مضاعف سميك. حاولتُ أن أتلصّصَ النظر إلى ماوراء الباب بعد أن وضعَتْ (بريكة) رجلها اليمنى في درج الدّهليز الطويل الذي لابدّ أن يؤدّي إلى وسط الدّار، رأيت خلخال جدّي... كان حقّا مرصّعا بالزبرجد! ثم تراءى لي بين الظلمة والنور خيال امرأة في مقتبل العمر تقبل يد (بريكة). قلت لعبد اللطيف:

- هذه ابنتها ...

لم يهتمّ بما قلته. سدّ الباب في وجهنا، وانصرفنا إلى الضريح.

للمولى إدريس -فيما أعرف- أربعة أبواب كبيرة متّسعة. تبدو لك الأولى حين تقفل راجعا من ساحة النّجارين. وهذه هي الباب الرئيسية، إذ تطلّ منها على قبره، لايفصل بينك وبينه سوى قبّة صغيرة تفضي بك إلى القبّة الكبيرة، فترى كسوته الخضراء المطرّزة بالخطّ القرآني في تناسق عتيق كأنه اللوح المحفوظ. هي كسوة تستر إطار القبر، يضع الناس رؤوسهم تحتها فيملؤون صدورهم من رائحة أظنّ أنّها تأتيهم من السماء. وهذه باب محرّمة على الصغار إلا إذا صحبوا أمّهاتهم فجلسوا معهنّ في القبّة الأولى؛ أو رافقوا آباءهم فتجاوزوا هذه القبّة إلى القبّة الأصلية. ثمّ له باب ثانية تسمّى باب (الوفَى). توجد بمحاذاتها بئر صغيرة لا أعرف من أين يأتيها الماء. يشرب منها كلّ من مرّ بالقرب من هذه الباب، فلا هو منقطع عن شربه ولا هي منقطعة عن مائها العذب. كنّا نكون ظمئين وغير ظمئين ونشرب. كان شربنا للتبرّك والرهبة الجميلة. كنّا مقتنعين برهبتنا الحالمة ونحن ننظر إلى هذه البئر التي انبنى فوقها جدار مقوّس انفحم باطنه من دخان الشّمع الذي يشعله الزائرون عند حافَة الماء لينير صفاءه وعذوبته. كنّا نشرب لنستوعب رهبتنا البسيطة. كان يتولّى إشعالَ الشّمع شخص موقوف على هذه البئر، يقدّم الماء في طسوت نحاسية صغيرة لكلّ من يريد الشرب، يبعد الأطفال عن أن يمدّوا أيديهم إلى الماء، أو يعبثوا بالشمع المشتعل، ثم يجمع ما يقدّم لعَيْن الوفاء من صدقة، ذلك أنّه قلّما يشرب أحد من الكبار دون أن يقدّم البركة لهذا الرجل المؤمن بالماء والشمع والدّخان.

ثمّ للمولى إدريس باب ثالثة تدعى باب (المجادليّين)، لأنّه كانت تُصنَع في الممرّ المفضي إليها مجادلُ يتّخذها النساء أحزمة لهنّ، فهي من حرير ملوّن بألوان دافئة كخيوط الشّمس. ثم كانت تجدل فيها مجادل أخرى تتّخذ للخيل ومراكب الوجهاء. من هذه الباب ترى الساحة الكبيرة وسط الضريح، ومنها ترى خَصّتها الواسعة تنفث الماء في حركة متواترة نحو فضاء طلق لا نهاية له أو بداية. ثم تتراءى لك بعد الساحة والخصّة باب القبّة.

وللضريح باب رابعة خاصّة بالصّغار. نصعد منها إلى الجانب الأيسر منه، فنلعب ماشاء لنا اللعب إلى أن يحين وقت الصلاة حيث يحتاج الضريح إلى السكينة والصمت. كان وقت الأذان بالنسبة إلينا قمّة ما نحقّقه من صراخ وتسابق واختلاط؛ إذ بمجرّد أن يسمع (بوسويطة) صوت المؤذن حتّى يأتي نحونا بعود الزيتون يهشّ به بين أرجلنا وحول ظهورنا ونحن نصيح ونهرب منه:

آبو سْويطة لَعْور، فينْ مَّا مْشا يَتْكَعْوَرْ.

فلا هو فالح في أن يضربنا، ولا نحن متفرّقون أو موقفون لعبنا. كانت حركاته تثير ضحكنا أكثر ممّا تثير الخوف في نفوسنا؛ ذلك أنّه لا يهَشّ في وجوهنا بعوده بنيّة الضرب أو الرّهبة، بقدر ما يلوّح به بقصد تفرقتنا حتّى يمرّ وقت الصلاة في المولى إدريس، خاشعا مُرْتاحا من لغَط الصّغار وصخبهم. لم نكن نبالي بعود (بوسويطة)، ولكنّنا نراقب وقت انصرافه عنّا في حذر واحتراس دقيقين. فبمجرّد أن نسمع صوت مقيم الصّلاة، ونرى (بوسويطة) قد بدأ يولّينا الأدبار حتّى تهدأ حركتنا هدوءا مفاجئا، كأننا لم نكن نصخب كلّ هذا الصخب أو نتصايح في فوضانا العارمة.

كانت أحبّ لعبة إلينا هي التسلق في عمود خشبيّ أملس، قد نصل إلى رأسه ثمّ نترك أجسادنا الصغيرة تنزلق في ارتخاء نحو أسفله، وقد لا نبلغ منه إلاّ طرفا معيّنا وننزلق. ما كان أطول ذلك العمود في أعيننا، وما كان أروع لعبة الانزلاق التي لا تنتهي إلاّ بمجيء (بوسويطة).

كان عبد اللطيف يتسلّق العمود في خفّة نادرة، وكان يتجاوز قمّته، إلى عمود آخر موصول به هو الذي يشدّه إلى الحائط. يجلس عبد اللطيف فوق العمود الثاني ويظلّ يشجّعنا على أن نلتحق به فلا نستطيع، ويبقى وحده في معزل عنّا، يراقب حركتنا كأنه رئيس فرقة أو مدرّب متمكن.

كانت ساحات الضريح معرّاة منطلقة. أحيانا تصعد بعض البنات إلى العمود، ولكنهن لا يجرؤن على أن يبلغن قمّته، إمّا لضعف فيهنّ، أو لأنّهن يخفن أن تظهر أجسادهن المستترة الناعمة. مرّة، لم تبال بنا إحداهنّ، جاوزَتْ نصف العمود وظلت تصعد وتنظر إلى فوق. اندهشنا لتحدّيها، ظهر فخذاها، اكتشفنا لون ثيابها، تضاحكنا في براءة وذكاء عابث، صحنا بها أن تعود، استغربت ضجّتنا، أرادت أن تنزل، تعثّرت حركاتها، عرف عبد اللطيف أنّها ستسقط إلى الأرض، حاول اعتراضها بذراعيه، لم يستطع احتمال جسدها الطريّ، تهاوت المسكينة، وانكسر فيها شيء معيّن!

وفي هذه الجهة اليسرى من المولى إدريس ركن خاصّ بالنساء يجتمعن فيه فتتحدّث الواحدة منهنّ إلى الأخرى عن معاناتها من الزواج والغربة والفاقة. يكون مبعث الحديث أن تأتي امرأة إلى ذلك الركن الخاصّ، فتعلّق في شبّاك يفصل بينه وبين القبّة قفلا أو خمارا أو أيّ شيء من الممكن أن ينعقد في حلَق الشباك، ثم تجلس إلى صاحبتها كي تبدأ حكاية ألمها.

سألت جدّتي عن ذلك فأجابتني بأنّ ألم النساء ينتهي بانحلال القفل أو المناديل والخيوط المعقودة.

فسألتها :
- وهل انحلّ قفلك أنت؟
- انحلّ حين مات زوجي!
عرفت وقتها أنّ الألم صار جزءا من جدّتي، وأنه لا فكاك لقفلها من الشبّاك.
في يوم من أيّام العمود والشبّاك و(بوسويطة)، كان عبد اللطيف جالسا فوق الخشبة العريضة الموصولة إلى الحائط، يدعونا إلى أن نلتحق به، يضحك من خوفنا المتردّد، ويصفّق على من يحاول منا ذلك، انتبهت نحو جهة الشباك فرأيت (بريكة).
ناديت عبد اللطيف أن ينزل، لم يتوان في أن ينزلق نحوي، قلت له :
- رأيت (بريكة)...
- من؟
- (بريكة)، ألا تعرفها، انظر، المرأة التي بحثنا عنها في درب (مينة)، المرأة المغنية، معشوقة جدي...
نظر إليّ في دهشة، كان مبهورا بكلامي المجنون، لم يفهم مما قلته أي كلمة.
صعد إلى العمود. تركته وانصرفت الى الشباك أتأمّل المرأة التي أحبّت جدّي.
اقتربت نحوها، كنت مأخوذا بسحر حكايتها، جلست بالقرب منها، سألتها سؤالا ساذجا وواضحا :
- هل أنت (بريكة)؟
- نعم.
نظرت إلى عينيها في رهبة وصمت، تملّكني لونهما العسليّ، وسألتها سؤالا بسيطا كسؤالي الأوّل :
- هل تحبّين الغناء؟
لم تجبني هذه المرّة، تأمّلتني في دهشة ونزعت لثامها الحريري الأسود عن خدّيها.
كانت قسماتها ماتزال ملساء ككفّ مخضّبة. حين لاحظت دهشتها، واصلت كلامي :
- كنت مغنية فيما مضى، وكان صوتك رائعا وحزينا، وكنت تحبّين رجلا مات وترك قلبه بيَن يديك.
تحفّزت نحوي قليلا، رأيت في عينيها استغرابا وتشككا، تجرأت أكثر :
- كنت تغنين الأندلسي والملحون ومواويل المحبّة العميقة، تسكنين بالقرب من النّجارين، في درب مينة.
ازدادت دهشتها، رفعت رأسها نحو الشباك، أظنّ أنها نظرت الى قفل لم ينحلّ بعد... ثمّ انحنت اليّ، تقبل رأسي وجبيني.

قلت في نفسي. . . لقد عَرفتْ أنني حفيد الرجل الذي قتلته محبّتها. سألتها سؤالا آخر:

- هل تعرف ابنتك الغناء؟ طبعا ليست هي ابنة محبوبك الميّت، لابد أنها من رجل آخر، لابدّ أنّك قد تزوجت فيما مضى؟

- نعم. . . نعم. . . وقبّلت رأسي مرة أخرى؛ اتّجهتْ بعينيها إلى الشبّاك، تلعثمتْ بكلام عرفتُ أنّه دعاء إلى الله، سكتتْ قليلا ثم قلت في صدق كبير:

- هل تعرفين أنّك ماتزالين جميلة عذبة الصوت؟

- ابنتي خرساء يابنيّ!

أحسست أنّني اكتويت بنارها، أصابني فزع في حلقي، احمّر وجهي، كدت أصيح من الألم، نظرت اليها، وجدتها حزينة منكسرة. قبّلت يدها وانصرفت. كان جرحها أكبر منّي!

ظلّت مخيلتي معلقة بها: كيف ألتقي بها مرّة ثانية؟ هل ابنتها جميلة سمراء كأمّها؟ وهل هي خرساء بالمعنى الصحيح للخرس؟ ولماذا لم تتعلّم الغناء من أمّها؟

أسئلة شتى، تنهال عليّ في إصرار، تحاصرني، أعجز عن أن أواجهها، تنفلت من ذهني في تتابع، تبدو غامضة متشابكة وحلزونية، أسئلة لاأطراف لها، تنغرز في صدري كمسامير صدئة، ثمّ لقيت (بريكة). لقيتها في رحلة البحث البريء عن أغوار المدينة. أليست (بريكة) دربا من دروبها الغائرة في وجداني؟ أليست جزءا من حيطانها التي ماتكاد تلمسها حتّى ينساب داخلك ماض يسيطر عليك؟ ماض يحيا بين الأحجار وثنايا التربة، هل تستطيع أن تتخلّص من ذاتك؟ أليست لديك الآن رغبة أكيدة في أن تكتشف (بريكة) من جديد؟ وابنتها، ألم يصبك الآن الخرس الذي كان قد أصابها في ذلك الزمن البعيد؟

ذهبت إلى درب (مينة)، رفعت خرصة الحديد، طرقت الباب في حركة خفيفة لاتكاد تسمع.

انفتح الباب، أطلّت منه امرأة في مقتبل العمر. امرأة سمراء كلون القمح، عيناها بين العسل والخُضرة، شفتاها عنَاقيدُ من عنب الخمر، شعرها ضفيرتان منسدلتان فوق نهديها المكوّرين.

سألتني بحركة من يديها:

- من أنت؟

أجبتها:

- أريد أمّك. . . (بريكة). . . .

ماكدت أنطق بالاسم الذي عشقته في طفولتي، حتّى أشارت عليّ بأن أدخل إلى

الدّهليز الممتدّ في ظلمة قليلة. أخذتني من يدي اليمنى ودلفت بي إلى وسط الدّار. في وسط الدّار أحواض شجر وغرس، تحيط ببركة ماء صغيرة منقوشة بزلّيج أخضر وأبيض. امتدّت من الأحواض دالية عنب وسروة ياسمين، امتدّتا على طول الحائط الذي يقابلك حين تهمّ بالدّخول الى الدار، فكادتا تصلان الى السطح. كانت تفوح من المنزل رائحة المسك والقرنفل. استنشقت من هواء الأحواض الناعمة، تراءت لي (بريكة) في قفطان أصفر كغروب الشمس، كانت منشغلة ببعض الحمام تنثر له ذُرَة بيضاء كقطرات اللبن.

صفقّت ابنتها تصفيقتين، طار بعض الحمام عن حبّه المتناثر، انتبهت (بريكة)، رأتني بمدخل الدّار، ابتسمت ابتسامة وردية، وأشارت الى الغرفة اليمنى من ثلاث غرف تحيط بالحديقة المخضرّة في سكون وصمت. كان صوت الماء المنهمر من الصهريج الفسيفسائي يقطع صمت الشجر في استسلام هادئ، وتسمع بين حين وآخر زقّة عصفور أو نَزْوَ حمَام يمرّ بالدالية وشجرة الياسمين، فيصطدم بغصن أو ورقة عابثة. دعتني ابنتها إلى الجلوس، وجاءت (بريكة) بطبق صغير من التين الجَاف والتمر.

أخذت تمرة أو تمرتين وسألت (بريكة):

- ماسم ابنتك؟

- اسمها حسناء!

ضحكت حسناء فنصعت أسنانها ببياض متلألئ.

كنت في ذلك الوقت الذاهب أطرح أسئلتي في وضوح وجرأة، لم أكن أبالي بالعالم من حولي، أقبل على الحياة وأذهب معها كلّ مذهب، المهم أن أحيا وأنطلق، أن أستمر في خطوي المتلهّف للأيّام المقبلة. كانت عيناي طافحتين بملامح الأمل، مبتسمتين لغد ينتظرني أو أنتظره، ولكنّه لابد من أن يتحقق، لابد من أن يكون!

خاطبت حسناء:

- هل لديكم ماء أشربه؟

أخذَت إناء من الفخّار واتّجهت نحو البركة الصغيرة.

عرفت أن خرسها خرس طارئ، فهي تسمع ولاتنطق، لابدّ أنها كانت تغنّي كأمّها، ولابدّ أن صوتها رخيم عذب كصوت الخريف.

مدّت إلي إناء الفخّار، شربت الماء الذي كنّا نشربه في بعض دور فاس قبل أن تصلها مياه الأنابيب. كان ماء طيّبا يسمّى عندنا (المَا الحْلُو). ينتهي الى دُورنا من وادي فاس، فدار المخزن، ثمّ (جنان السّبيل)، في قَواديسَ يصفو فيها من تلقاء نفسه، ويكون باردا في الصيف، دافئا في الشتاء.

دعتني (بريكة) إلى أن أتناول من طبقها تمرة أخرى، وسألتني عن اسمي.
- اسمي عمر!
ابتسمت حسناء، وأشارت بيدها الى الطبق.
نظرت إليها، تيقّنت من أنّها لم تكن خرساء، ثم التفتّ إلى أمّها أقول:
- أريد أن أسمع صوتك، يقولون إنّك تتقنين الضّرب على العود.
رفعت عيناها الى مشجب خشبيّ منقوش بالصدف وخيوط الفضّة، أثبت في الحائط الأيسر للغرفة، ووضع فوقه عود ملفوف في ثوب أخضر ورباب أو كمان ملفوف في ثوب أحمر داكن. تألّمت (بريكة) قليلا وخاطبتني:
- قد مضى وقت الغناء الجميل يابنيّ.
- ولكني جئت لأنتشي من محبّتك وشعرك.
- قد أصابني التعب، وتركت الغناء لغيَري.
- نحن لاننتهي إلا عند النهاية.
- انبعث فيها أمل طفيف، وترنّمت بصوت أو صوتين.
سألتها:
- وهل كانت ابنتك تغنّي؟
- نعم... نعم... ونظرت إلى الرّباب الملفوف في الثوب الأحمر.
- ولماذا هي الآن خرساء؟
- اكتوى لسانها بالمأساة ياولدي...
- المأساة؟
- قتلوا زوجها، قتلوه غدرا، في الدار البيضاء يابنيّ.
- ولماذا يقتلونه؟
- حسدوه فيها، هل رأيتَ امرأة أجمل منها؟...
ضحكت حسناء، كانت ملامحها السمراء، موزّعة بين الأمل والانكسار، في عينيها الممتزجتين ابتسامة راقصة وحزن دفين.
ماإن سمعت القتل والغدر والدار البيضاء حتّى طويت صفحة المحبّة والغناء، وانصرفت أقول:
ليست الحياة كما يظنّها أبي، وإنّما جدّتي التي على صواب لأنّها تعتقد اعتقادا راسخا بأنّها حياة موزّعة وأقساط ظالمة، وإلاّ فلماذا يموت جدّي منقسما بين (بريكة) وزوجته. كان عليه أن يحبّ واحدة منهما ويقضي معها كلّ أيّامه.

منفـذ الرعـب

في سكون الليل تهدأ فاس، تستسلم إلى أهلها فتبدو بدروبها المظلمة وصمتها المطبق مدينة تملكها أكثر ممّا تملكك، تضمّك إليها كامرأة تحبّك. كانت مصابيحها خافتة لاتكاد تضيء أكثر من ظلّك، ولكنّك كنت تحسّ أنّ الظلمة جزء منك، لاتشعر داخلها بأيّ تنافر أو غربة.

حين ينزل المساء في مدينتي يتحوّل كلّ ما فيها الى مئذنة ملوّنة بقلوب سكّانها الطيّبين. لم تكن مدينتي تعاني الغربة حين ينزل الليل. كان كلّ ما فيها يدعوك الى الطمأنينة. يصلّي الناس المغرب ويدخلون الى بيوتهم. ثمّ منهم من لايدخل الى بيته إلاّ إذا صلّى العشاء. ولم يكن من بين هؤلاء وأولئك من يبيت الليل جائعا أو متألما من الفاقة والبرد.

ما إن تمرّ ساعة أو ساعتان حتّى تسمع صوت مؤنس الغرباء. والغرباء عندنا هم هؤلاء الذين خانهم الزمن. ذلك أنّه لم يكن في مدينتنا غريب يقصدها من بلدة بعيدة إلاّ أصبح واحدا منّا. كانت المحبّة تستوعب قلوبنا إلى الحدّ الذي لانفرّق فيه بين الأخ وابن العمّ والرّجل أو المرأة يأتيان إلينا من زمن غابر أو ذكرى طيّبة كدنا ننساها. كان مؤنس الغرباء يصعد إلى مئذنته ويصيح في صوت مبحوح ياتيك صداه من بعيد فتحسّ به داخل قلبك:

- امْراتي شْهاتْ عْليَّ الدّوارة، وَانَا ماعندي فلوس فالشكّارة، طَيّرها ياكريم.

ويظلّ يعيد هذا المَقطع زمنا متصلاً. فنسمعه بالليل، ونردّد صوته في الصّباح دون أن يصيبنا أيّ قنوط. كانت غربتنا مؤتنسة بجملة بسيطة هي هي في كلّ لحظة ومدى الدّهر. كانت هذه الجملة وحدها تؤنسنا في الشتاء والصّيف. لم يكن مؤنس الغرباء يقصد إلى أنّه لايملك ثمن (الدّوارة). لم يكن ثمنها شيئا، كانت بدرهم أو

أقلّ من ذلك قليلا. كان يقصد الى أنّ زوجته امرأة طيّبة، لاتشتهي من الغذاء إلاّ أقلّه، ولذلك كان يسخر منها في أذانه وفي ائتناسنَا به. ثمّ بعد مؤنس الغرباء يصعد الى الصومعة مؤذّن آخر نسميّه (الموسِّع)، فتتّسع لَه نبَضات قلوبنا. يقول (الموسّع):

- امْراتوا شهات عليه الدّوارة، وهو ماعندو فلوس فالشكّارة، زوّجها ياكريم!

فهل كان (الموسّع) يهزأ من مؤنس الغرباء؟ لا، كانت الدنيا بينهما وبيننا بسيطة طيّبة ملؤها المحبّة الساخرة والبراءة.

كأنّ مؤنس الغرباء كان يحسّ ألم الناس الذين لم يستقم لهم الزمن، فيحاول إدخال الفرح إلى قلوبهم. ولذلك ترى صوته حزينا وكلامه طيّبا وضاحكا. كأنّه لم يستطع أن يتغلّب على ألم الدنيا فحوّل نغمته المبحوحة إلى سخرية من الفاقة والليل والغربة. ثمّ يؤكد ذلك صاحبه بعده فيدعو لزوجة مؤنس الغرباء بأن تجد رجلا آخر غيره يستطيع أن يشتري لها سقط اللحم. ومَن من الرّجال لايستطيع في زمننا الرائع أن يشتري سقط الكبش أو العجل؟ كان كلّ منّا يملك في قناعته وفقره أن يشتري عجلا برأسه وقوائمه. ثمّ كان كلّ منّا يتصدّق في فقره صدقات لايمكن أن يوجد معها غريب في مدينتنا..

كان الجار جارا، والأخ أخا، وابن العمّ ابنَ عمّ... ولم يكن للّيل والبرد والفقر أي طريق إلينا.

كيف يمكن لمؤنس الغرباء أن يصيح الليل كلّه دون أن يمتلك ثمن السقط؟ ألم يكن المثل يقول: إذا شبع البطن قال للرأس: غنّ! فيغنّي مؤذّننا ونغنّي معه وتسير أيّامنا الى فرح نتوقّعه بعد فرحنا في كلّ يوم.

وبعد الموسّع يصعد الى المئذنة المهلّل. فيهلّل ماشاء له الله من تهليل. هو يهيّئنا لأذان الفجر، ونحن متيقّنون من أنّ الفجر آت وأنّ نور الشمس سيشرق علينا في دفء جديد. لقد تأكدّنا من أنّ الليل قد ذهب، وأنّ شعورنا بالغربة قد ذهب مع ظُلمته، ولذلك تركنا المهلّل ونمنا في طمأنينة.

في ليل فاس تشعر أنّك مرتبط بالناس وأنّهم مرتبطون بك، تحسّ أنّك جزء ممّا حولك وأنّ هذا الذي حولك جزء منك. كأنك في نومك وظلمتك مستبدّ بالدّنيا، مسيطر عليها، تضمّها إليك فتمنحك ماتريده وما لا تريده.

في الشتاء لا تسمع للرياح صوتا. يوقَد مجمر صغير وتغلق الأبواب الكبيرة وتسدل ستائر في طول الأبواب فيحتويك دفء رائع بين إخوتك وذويك. وفي الصيف نصعد إلى السطوح، نقضي فيها الليل بعد أن تكنس وترشّ وتفرش بلحاف خفيفة ملوّنة بالأحمر والأبيض والأسود. ثم نتناول فطورنا بعد أذان الفجر كي لا تلفحنا شمس الصباح بأشعتّها المتّقدة.

في الصيف نغنّي أغاني الفرح والمواسم الطيبة، ومع قسوة البرد ودفئه نحكي خرافات الجنّ وخاتم سليمان ورأس الغول. المهمّ أن نغنّي ونحكي، أن نعبر أيّامنا في طمأنينة وسكينة. كانت قلوبنا تميل مع الرياح فلا تنكسر، وكانت عيوننا ترقص مع الشمس وإطلالة الخريف فلا تلتفح أو تذبل. كانت قطرات المطر المنهمر جزءا من أجسادنا المنطلقة، تتساقط فوق رؤوسنا فنسابقها ونضحك؛ وكانت حرارة الصيف عندنا قفزا على الجدران العالية وتكسيرا للأبواب الموصدة والستائر المنسدلة.

والربيع في فاس موسم خرافي لاحدود له. في الربيع تغرق المدينة في فرح وانتشاء بما حولها من سنابل وأقحوان وشجر متمايل، تكاد تجد في كل دار من دورها نباتا أخضر ورائحة زهر يعبق بها صدرك، تسمع في كلّ عرصة من عرصاتها المضاعفة أصوات طيور مختلطة يبدّدها الفضاء الفسيح الهادئ. تمر بين دروبها فلابدّ أن تجد طفلا يأكل تفاحة أو برتقالة، فتتأكد أن الزمن بعض منك، لايمكن أن يتحايل ضدّك أو يراوغك. كانت شفاه الأطفال حمراء ووردية مبتسمة. وكانت ضحكات الكبار مجلجلة آخذة. كانت وجوه فتيات مدينتي مليئة بالمحبّة والخجل المتفائل. كنتَ بمجردّ أن تنظر إليهنّ تعرف أنّ الحياة أمل بين عينيك أو يكاد. كلّ منهنّ قد ارتدت فستانها البسيط وسترتها البيضاء وأخذت محفظتها في أناقة وتباه بأنّها تشقّ الطريق الى مستقبلها المؤكد. كنّ يذهبن جماعات ويرحن جماعات فتجدّ فيهن انسجاما وتناسقا لاتفكّر معه في شيء غير ماهنّ عليه من ابتسامة بريئة وبشرة وردية تطفحان بالأمل والسكينة.

وفي الخريف يكثر زيتون فاس! تراه بين الخضرة والسواد والحمرة أملسَ لامعا، يتكاثر فوق بسط الدكاكين كأنّه ينبت من تلقاء نفسه.

وللرمّان والتين موسم في بساتين مدينتنا وقلوب أهلها. نحتفل بالرمان فيراهن كلّ منّا صاحبه على أن يأكل رمّانة فلا تسقط منها حبّة، أو ينزع قشرتها بيد واحدة ويقف على رجل واحدة، فلا نستطيع ولاينجح الرّهان.

ثم يكون لنا موعد مع التين فنخرج الى باب (الجديد) ونتسلق شجره فنقطف الفاكهة بأفواهنا ونأكل ماشاء لنا الأكل.

يتساقط ورق الخريف فتنمو في تساقطه أجسادنا الحيّة والمتناثرة هنا وهناك مع كلّ موسم وفصل متغيّرين. كانت الحياة التي نحياها عالما من الفرح والشّبع والمحبّة. وكانت أجسادنا طريّة عذبة راقصة.

في يوم من أيّام الربيع دخلت مع عبد اللطيف الى بستان في باب (الجديد) نقطف إجّاصا كنّا نسميّه (المسكي) نسبة الى المسك فيما أظنّ. لم يكن الدّخول الى البساتين

من تُرَعِها سرقة، كان مغامرة يركبها الصغار في غفلة من الحارس الذي يسمّى عندنا (ربّاعا) إذ يأخذ ربع الريع في مقابل سهره على البستان وتعهده الأرض والشجر.
صعد عبد اللطيف الى شجرة إجاص سامقة، حرك غصنا من أغصانها المثقلة فتساقطت الفاكهة بين يديّ ومن كلّ جهة، حاولت أن أجمع منها بعض مايكفينا لذلك اليوم، وجدت أنّها فاكهة متشابهة قد امتلأت كلّها من خضرة خافتة وطعم طيّب، نزعت عنّي قميصي وجعلت أضع فيه مااتفق منها، نزل عبد اللطيف، أخذ يجمع الفاكهة في قميصه، هممنا بمغادرة البستان، صاح بنا الربّاع:

- آولاد الشيطان، وقفوا...

لم نجد بدّاً من الوقوف، كان يحمل عصا ومنجلا.

- ماذا تفعلان هنا، جنان بّاكوم؟

لم ننطق.

- من أين دخلتما؟

سكتنا. القميصان ممتلئان بإجاص لايمكن أن نتخلّى عنه، والربّاع يهددنا بالضرب، وبأن يسلّمنا إلى (المقدّم) في مركز الحرس بباب (الجديد)، ثم سألني:

- ولد من انتا؟

أجبته فلم يعرف أبي، ولكنّه عرف بأنّني لايمكن أن أكون لصّ بساتين في مدينة عَرَّام الإجاص فيها بعشر فرنكات.

سألَ عبد اللطيف عن أبيه، أجابه في صَلابة ويقين ممّا يقول:

- الحاج علال العيساوي.

صاح به الربّاع: أعوذ بالله، انت ولد العيساوي، سرْ الله يلعنك آولدْ الذين آمنوا.

تركنا البستان في سرعة الشيطان، قصدنا الترعة التي دخلنا منها، أشار علينا الربّاع بالخروج من الباب: ماتعاودوش هاد المرّة!

ضحكنا من فرح بالمغامرة وحكينا ذلك لأمّ عبد اللطيف. ضحكت معنا وأكلت من فاكهة (السي علي). كانت تعرفه معرفة جيّدة، فهو من (عيساوة)، يحضر مواسمهم في مكناس، ويجذب جذبتهم دون أن يغمى عليه. رجل من أهل الله كما تقول، اشترت منه الزهر الذي يقطّره أهل فاس أكثر من مرّة.

- هل ضربكما؟

- لا... لم يزد على أن هدّدنا بالمقدم والعسّة...

- لم يعرفكما، لماذا لم تطلبا منه النعناع؟

ضحك عبد اللطيف وهو منهمك في أكل إجاصة مازلت اليوم أجد لها مشهدا بين عيني.

□ □ □

بالقرب من دار بريكة مركز للشرطة، مصلحة للأمن، كوميسارية. كانت في القديم مدرسة للطلبة، يدرسون في جامع القرويين، ويسكنونها. كانت تسمّى مدرسة النجارين، وأصبحت في زمن مّا تعرف بكوميسارية النجارين. لم أعرف فيما مضى أنّها كانت مأوى للطلبة، عرفتها وقد تحوّلت إلى كوميسارية، عرفتها أنا وعبد اللطيف. كان ذلك في موسم المولى إدريس! كنّا فرحين بهذا الموسم، نتسابق في الساحة الكبيرة، نتراشّ بماء الخصّة، نجري فوق الحصير، نتحلّق حول فتيان الدبّاغين يلعبون لعبة المصارعة، وننتظر مجيء كسوة المولى ادريس.

جريت أنا وصديقي، رشّني من ماء الخصّة، ملأت يديّ أريد رشّه، خرج الى (المجادليّين) فتبعته، دلف نحو العطارين، أردت اللحاق به، أخذني رجل من كتفي اليمنى في عنف متصلب، نظرت الى عبد اللطيف وقد ابتعد عنّي، كأني أستغيث به، وجدته بين يدي رجل آخر يشبه هذا الذي شدّ على كتفي في قوة متمكنة. سارَ بنا الرجلان الى كوميسارية النجارين. أدخلانا من الباب الخشبي الكبير، أصابني خوف رهيب من المدرسة التي تحولت الى مركز للأمن!

رأينا رجالا آخرين متحلقين حول طاولة حديدية مربعة، كانت كراسيهم جديدة، لم يكن منهم سوى شخص واحد يرتدي بذلة الشرطة. أدخلني الرجل الذي أحكم قبضته على رقبتي الى غرفة مظلمة. كان في الغرفة أطفال كثيرون. دخل صديقي عبد اللطيف، تكوّمنا معا في ركن من أركان الغرفة الرّطبة، جاءوا بأطفال آخرين. كان في الغرفة بول وبصل، بصل فاسد، هكذا شممت: رائحة بول وبصل! امتلأت الغرفة، لم أعد أستطيع الحراك، ألتصق بصديقي ويلتصق بي، تدفعنا الى الالتصاق بالحائط ذي الرائحة الكريهة جثث أخرى.

لم يكن في الغرفة سوى فتحة واحدة بالقرب من سقفها. كان اليوم الذي عرفناها فيه مايزال في بدايته. مرّ أكثره في لغط وقلّة اكتراث.

قال أحد الأطفال:

- جمعوكم لأنّ الموسم سيكون صامتا هذا العام.

أجابه آخر من ركنه الضّاغط:

- يقولون إنّ الوزير سيزور السيّد.

همس عبد اللطيف في أذني:

- حذفوا الأطفال من الموسم لأنّ بعض النصارى سياتون مع الوزير.
سألته:
- هل سيدخلون الى القبّة؟
- لا، سيصوّرونها من باب الوفاء.
صاح طفلان أو ثلاثة:
- اسمعوا... الكسوة آتية...
قال أحدنا:
- آسكتْ، دابا يْجيوا يْورّيوك الكَسْوة...
شملنا بعض الصَمت، تناهت الينا أصوات مزدحمة، عرفنا من صداها البعيد أنّها كسوة المولى إدريس، كانت رائحة الغرفة الكريهة تملأ أنفي، لم أكن أسمع إلاّ بصعوبة كبيرة، ثمّ انفتح الباب عن الرجل الذي أخذني من رقبتي. شتمنا، ضرب بعضنا بحزام جلديّ أزاله من سرواله، دعانا الى أن نصمت أو يخرّب دين أمّنا، هكذا كان يقول، لاأعرف كيف يخرّب دين الأمّ. عمّنا رعب مقيت. بدأ الجوع يسيطر على أمعائنا، أخذ النور ينحسر عن الفتحة الصغيرة في سقف الغرفة، بدأ الليل ينزل، لم أعد أرى عبد اللطيف أو يراني، تجرّأ بعض الأطفال، طرقوا الباب من الداخل، صاحوا في اختلاط:
-آشعلوا الضّو...
جاء الرجل بالحزام الجلدي، لاأدري، جاء هو أو غيره، ضربنا كيفما اتّفق، سبّنا من جديد، لم يسبّ هذه المرّة أمّنا، سبّ أبانا وديننا، ثمّ ذهب.
أحسست بالظلمة تضغط على صدورنا، ازددت التصاقا بعبد اللطيف، همست في أذنه:
- هل سنقضي الليل هنا؟
ضغط على يدي، فهمت أنّه يدعوني الى الصمت.
كنا نتنفس في صعوبة كبيرة، تيقنّا أنّنا سنقضي كلّ الليل في مدرسة النّجارين، كان بعضنا يزيح غيره عن جزء من مكانه الضيّق كي يمدّ ساقه أو ذراعه، وكان البعض يتوسّد من بجواره لمدّة ثم يُتّخَذ وسادة له بعد حين. ذهب أكثر الليل، أخذ الفجر ينبثق، سمعنا الأذان من صومعة المولى إدريس، كانت المدينة هادئة هدوءا مرعبا، سمعنا أقداما صلبة تأتي إلينا، فتحوا الباب، صاحوا بنا:
- اخرجوا، قفوا هناك، واحدا واحدا، تعال أنت.
وصفعه على أذنه، صاح الطفل المراهق، أحسست أنه سيفقد سمعه.
- قف هنا، من أبوك؟

بكى من شدة خوفه، خفنا معه، أعاد عليه السؤال:
- ابن من أنت؟
- العَلَمي، أبي في (الجوطية)، يبيع الملح والسمك والزيتون. هزّ رئيسهم الذي جلس إلى الطاولة رأسه إلى أسفل. قال الذي سأل (العلَمي) عن أبيه:
- اخرج.
أطلق الطفل ساقيه نحو ساحة النّجارين.
أخذوا يسألوننا واحدا واحدا.
- أين تسكن؟ من أبوك؟ هل تقرأ؟ مدرستك؟
كنّا نجيب عن كلّ ذلك في تلعثم آليّ مضطرب وكلّنا خوف مقموع يرتدّ إلى داخلنا.

جاء دور عبد اللطيف، أجاب عن أسئلتهم في شجاعة كنت أعرفها فيه من زمن بعيد. تعجّبوا لعينيه المتّقدتين وإصراره، قام أحدهم من كرسيه، مازلت أذكر أنه هو الذي كان يسجّل أسماءنا في دفتر طويل أسود لم أكن قد رأيته من قبل. سأل عبد اللطيف عن اسم أمّه، أجابه في سذاجة واضحة:
- الحاجّة فاطمة.
- الحاجّة، يَا عيني.
ثم صفع عبد اللَطيف، رفسه في جنبه الأيسر. لم يبد عبد اللطيف أيّ حركة تبين عن ألمه، تعجّب صاحب الدّفتر من عناده، سبّه في غضب، توالت صفعاته من هذه الجهة وهذه، لكَمه بجماع يده إلى فمه، سال بعض الدّم من شفته السفلى، ركله في عنف، سقط عبد اللطيف إلى الأرض. قام رئيسهم من مكانه، نظرت إليه، اصطكّت أسناني، رفس جثّة عبد اللطيف، يهزّ رجله وينزلها ويسبّ. سالت دماء من أنف صديقي، جعل يتضورّ ويلتوي في صمت، انفجرَتْ دموعي، استعطفت المارد الذي ضربه قبل الرئيس، قبّلت يده وأنا أبكي، ثم ذهبت نحو الرئيس، أخذت يده كي أقبّلها، صفعني، تحوّل عن عبد اللطيف إليّ:
- مال دين امّك انتا، وانهال عليّ باللكم.
سألوني عن اسمي، أجبت، سألوني عن أبي، أجبتهم.
- وأمّك، ما اسمها؟
- فاطمة ...
- أبوها؟
عرفت أنّهم يسألون عن جدّي، لم أدر كيف أجبت في سرعة ودون وعي منّي:
- صاحب (بريكة)!

نظر كلّ واحد منهم إلى الآخر، احمرّت وجنتاي من الخوف، تلعثم رئيسهم بكلام لم أسمع منه شيئا، فهمت في ذكاء غريزي أنّهم ظنّوا بأني قد فقدت وعيي، تركوني إلى الباب المفضي لساحة النجارين، خرجت أبكي، تركوا عبد اللطيف، يخرج في أثري، غسلنا وجهنا في السّقاية، تنفّسنا هواء فاس، ثمّ مضينا صامتين في تثاقل ودهشة. سألتني أمّي: أين قضيتُ الليل، أجبتها: في موسم المولى إدريس، رأت آثار الضرب في جِسدي، قلت: إنّ ازدحام الناس حين مجيء الكسوة أخذني معه، اضطربت مع منَ اضطرب في الباب الكبير، وسقطت عند العتبة.

استساغت أمي كذبي في الموسم، عرفَتْ جوعي، أكلتُ في ذلك اليوم عسلا وزيتا، ونمت في ألمي.

□ □ □

اجتمعنا حول مائدة الغذاء، سألني أبي عن آثار الضرب في وجهي، أصابني فزع من ساحة النّجارين ومن درب (مينة)، تلعثمت في الإجابة، عرف كذبي، سألني عن عبد اللطيف، هل كان معي في الموسم؟ ازداد فزعي، ظننت أنّه رآه أو لقي أباه، اختنقت عيناي بالبكاء، قلت لأختي الصغرى:

- قد قضينا الليل في مدرسة النّجارين!

ضحكت أختي، لم تكن تعرف من أمر المدرسة شيئا، أمرتها أمّي أن تسكت، قلت في سرعة:

- أقصد كوميسارية النّجارين، بالقرب من السّقاية.

اندهشت أختي، ازداد بكائي، سمعت أبي يقول:

- هل كان معك عبد اللطيف؟

كنت منحنيا برأسي، لا آكل ولا أجيب.

سألني:

- ولماذا قضيتما الليل هناك؟ ماذا فعلتما؟ من الذي ذهب بكما إلى الكوميسارية؟

- كنّا نلعب في المجادليّين، أخذونا من العطّارين.

لم يصدّق أبي كلامي الذي بدا مختلطا.

- من الذي أخذكما؟ المقدم؟ العسّة؟ من؟

أجبته:

- رجال لا أعرفهم.

كان العسس في ذلك الزمن البعيد أناسا معروفين لدى أهل الحيّ وأهل المدينة؛ كنّا نحفظ أكثر أسمائهم: عْلي، الصغير، الميلود... وكان المقدم واحدا منّا، فكيف لا نعرفه!

- لواحد منهم أذن حمراء منتفخة.

ضحكت أختي ضحكة عالية، نظر إليها أبي بمؤخرة عينه، وابتسم لمشهد البكاء والضحك، سألته:

- هل تعرفه؟
- من؟
- صاحب الأذن؟
- لا ...

عرفتُ أنّ شيئا مّا بدأ يقع في مدينتنا.

- وواحد قصير أسود يقولون له (حاجّي)، هل تعرفه؟

صمت قليلا، كان يبحث في ذاكرته عن هذا الاسم الغريب الذي التقطته صدفة في ليلتنا الخائفة.

- لا، لا أعرفه، كيف عرفته أنت؟
- هو الذي كان يسجّل أسماءنا!
- أسماءكم؟
- نعم.

تذكّرت أني فُهْت عندهم باسم (بريكة)، هل سجّلوها في دفترهم، وضحكت، ثم انتبهت إلى أن أختي منشغلة بالأكل، بدأت آكل أنا أيضا، كأنّي أريد أن أنسى جوع البارحة، كانت أوّل مرة أجوع فيها. ثم قلت لأمّي:

- كانوا يسبّون الدّين؟
- يسبّون الدّين؟ ما عندهم دين آوْليدي... ما عندهم دين...

أخذت أختي ما بقي في الصّحن، التَهَمَتْه في لذّة، قمت من مكاني، غسلت يديّ في طست نحاسي كنّا نضعه عند عتبة الغرفة التي نتخذها للأكل، ثمّ دلفت نحو الباب أقصد القنطرة.

سألت عن عبد اللطيف، لم أجد له أثرا، راودتني فكرة زيارة جدّتي، رأيت أنّ الطّريق إليها بعيد. رجعت أسأل عن عبد اللطيف في منزله. دخلت دون أن أطرق الباب، صعَدت سُكْنَاهُم في الدّور الفوقي. كانت دارهم منقسمة إلى دورين: فوقي وسفلي. يسكن في الفوقي عبد اللطيف، ويسكن في السفلي (السي التهامي)، صاحب الحانوت في الصفارين، يصنع أواني النحاس ويبيعها في حانوته.

وجدت أمّ عبد اللطيف منهمكة في غسل أواني الغذاء، سألتها عن صديقي، قالت: إنّه نائم.

قصدت غرفته، استفاق من نومه، رأيت شفته السفلى دامية متورّمة، عينه اليسرى تكاد تخرج من مكانها، أصابني رعب آخر.

دخلت أمّه إلى الغرفة، دعته إلى الأكل، لم يجبها، سمعَتْ جارتها تناديها من أسفل، نزلت نحوها.

سألت عبد اللطيف عن الكذب الذي أخرجه من ورطة الأسئلة المحيّرة، أجابني بأنّ والديه صدّقا سقوطه من عمود المولى إدريس، ولكنّ أخاه الذي كان يعمل عند (السّي التهامي) في الصفّارين علم بخبر مدرسة النّجارين.

ضحكنا معا، ونادت أمّه من أسفل:

- عبد اللطيف، عبد اللطيف، انزل، للاّ خديجة تريد سطل ماء.

لم يكن في دار عبد اللطيف ماء يجري. كنّا ننقله إليها من (معْدة) في رأس الدّرب؛ أعِينه على ذلك، ويعينني في نقل الخبز من الفرَّان أو في أيّ شيء آخر أطلبه منه.

أخذنا سطلين اثنين ومضينا. كان يعرج بإحدى رجليه، ويخفي شفته أو عينه كلّما لقينا واحداً من أهل الحيّ. في هذه (المعْدة) رأينا سلحفاة ميّتة. لا أدري كيف وصلت إلى منبع الماء في حيّنا. كنت أعرف المعدة طيّبة كلَبَن أمّي، شربنا منها كلّما أصابنا العطش، لا يختلف ماؤها عن سقاية النّجارين، لم يكن بينها وبين خصةَ المولى إدريس أيّ فرق. كانت السلحفاة غريبة لم أشهد مثلها أبدا. رأسها منتفخ، عيناها جاحظتان، كانت تنظر إليّ في موتها، شعرت أنّها حاقدة عليّ، لو استطاعت أن تحيا فتقتلني لفعلت ذلك، اختنقَت فأطبقت فكّيها في حدّة ظهرت معها أسنانها الصدئة. أراد عبد اللطيف إخراجها من (المعدة)، ابتعدتُ عنه، تردّد قليلا ثمّ استدار نحوي:

- هل تخاف الحيوانات الميّتة؟

أجبته توّا:

- إنها لم تمت بعد، هل رأيتَ عينيها، هل أنت متيقّن من أنّها سلحفاة؟

لم يبال بشيء ممّا أقول، أخذ السلحفاة الميّتة من ذيلها، رمى بها إلى الأرض، دعاني إلى أن نلعب الكرة، لم أتجرأ على ذلك، ضرب السلحفاة بقدمه إلى الحائط، وملأ السطلين ثمّ قصدنا المنزل.

كانت (للاّ خديجة) التي حملنا لها السطلين امرأة في بداية شبابها، زوجها (السّي التهامي) يكبرها بأربعين سنة أو يزيد، هي زوجته الثانية بعد امرأة ماتت دون

أن تخلّف منه ابنا. وحين تزوّج خديجة اشترط أن لا تلد هي أيضا! ذهب إلى امرأة تدعى (الجّامْعية)، امرأة سحّارة كما يقول عبد اللطيف، حدثّته أمّه بأنّها هي التي قطعت ولادة خديجة. أشارت على (السّي التهامي) بأعشاب وأبخرة، تأكل منها خديجة فينقطع عنها الإنجاب. فعل ما أمَرتْ به (الجّامعية) فلم تلد زوجته.

كنت أنظر إلى خديجة، فأجد أنّ الفرق بينها وبين زوجها جزء من ظلمنا الكبير، كانت معافاةً على قدر من الجمال، جاءت مع أمّها من البادية، وسكنتا في حيّ قريب من الصّفارين. وحين تزوّجها (السّي التهامي) منعها من أن تغادر البيت إلاّ بصحبته. كنّا نسمّيه في حيّنا (مُولْ الحَمّام) لأنّه حين تريد خديجة الذهاب إلى الحمّام، يصحبها إليه، وينتظرها بالباب إلى أن تخرج فيعيدها إلى منزله.

كان (مول الحمّام) يدخّن الكيف. تجلس خديجة بين يديه، تناوله اللوح والشفرة، وتساعده في تنقية حزمة الكيف وترتيبها، ثم تنتظر أوامرهُ الغريبة. لم تكن ترفض له طلبا. مرّة أمرها أن تتوسّد ركبته، وضع اللوح فوق صدرها وأخذ يقصُّ كيفه. دعاها مرّة أخرى أن تدخن معه، رفضت، فضربها. سمعت أمّ عبد اللطيف صياحها، نزلت تستعطف (مول الحمّام)، قال لها إنّه لابدّ من أن يربّي زوجته، فهي لا تطيعه ولا تسمع كلامه، أجابته: إنّها ما تزال صغيرة. استشاط (السّي التهامي) غضبا، فهم أن أمّ عبد اللطيف تعرّض به، دعاها إلى أن تتركه وشأنه، وعاد لضرب زوجته، ازداد صياحهما، هي تبكي وتهرب منه إلى هذه الجهة وهذه، وهو يضربها كيفما اتفق، ويختنق بسعاله ونفسه المتقطّع.

خبر (السّي التهامي) شائع في حيّنا، كلّ منّا يعرف أنّه لا يلد، وأنه يزور (الجّامعية) كي لا تلد زوجتُه. لم يكن يزاول عمله إلاّ لماما، ربّما قنع من الدنيا بحانوته وداره فاختار أن يكلّف متعلّميه بالصناعة، وأن يتولّى هو مراقبتهم. وكان أخو عبد اللطيف أحد متعلّميه المتميّزين. دخل إلى الحانوت صبيّا، وتعلّم النقش على النحاس والفضّة والمعدن. ثمّ إنه ابن جيرانه، ولذلك فإن (السّي التهامي) يثق فيه أكثر ممّا يثق في غيره، فيترك له أحيانا عملية البيع والشراء والتعامل مع الزبائن، بل يكلّفه بين حين وآخر بقضاء بعض حاجيات البيت. يعطيه قدرا من المال ويطلب منه أن يشتري اللحم والخضر والفاكهة من سوق (الرّصيف) ويرجع إلى الحانوت فيحمل ذلك إلى البيت متعلّم آخر. كان أحمد وسيما، تعلوه شقرة شبيهة ببياض النّصارى، ولم يكن فقره فقر معاناة وبؤس. فكان يتأنّق شيئا ما في ملبسه، إذ لم يكن والدا عبد اللطيف في حاجة إلى الأجرة التي يتقاضاها من صناعته. أمّا المتعلّم الذي يحمل النفقة إلى البيت فمراهق دميم رثّ الثياب لا يراود (السّي التهامي) أيّ شكّ في

الفروق المتعدّدة بينه وبين خديجة. هو أصغر منها سنّا، مبتئس وقميء، يتلعثم في كلامه، كأنّه لا يتكلّم، فلا مجال إذن للشّك في إخلاصه من هذه الجهة.

وكان أحمد يسمع من أمّه أخبار (خديجة) و(مول الحمّام) فيؤوّل في يسر سبب منعه من حمل مؤنة دار المعلّم. (السّي التهامي) يثق فيه من جهة التّجارة والمصاريف لأنه لا يمكن أن يسرق، ولكنه يغار على زوجته لأنّ النساء أخوات الشيطان كما يقول.

كان بإمكان (مول الحمّام) أن يستغني عن أحمد وعن المتعلّم الدّميم في قضاء مآرب بيته. ولكنه امتلأ بالكيف إلى حدّ كبير فَثقلت حركته. كنّا نراه في جلبابه الداكن الخشن، يرتدي طاقية تغطّي نصف رأسه الحليق، يسير في استدارة، عيبته تتدلّى من تحت الجلباب، يقدّم رجله اليمنى في بعض العبء ويحرّك معها سائر جسمه، فتدور رأسه وعيناه المحمرّتان من الخدر نصف دائرة، ثمّ يحرّك جانبه الأيسر ليكمل الدّائرة. كان أبو عبد اللطيف يسمّيه التهامي (الحايل)، أي الذي يظهر بحركته أكثر ممّا لديه من قوّة. كان مشهده حين يصحب خديجة إلى الحمّام مشهدا مضحكا ومثيرا للشفقة. يتقدّمها بخطوات في حركته الدّائرية المرتخية فتحسّ أنّ السنوات قد أثقلت رأسه وكتفيه، وأنّه قد جرّب من الدنيا أكثر أيّامها، ثم تنظر إلى خديجة تتبعه منحنية برأسها، في جلبابها البسيط، مغلوبة على أمرها، لا تعرف من الدنيا شيئا، وتخجل من عيون الناس واستغرابهم لهذا الرّجل الذي يكبر أباها.

جاءني عبد اللطيف مرّة يقول إنّه رأى أخاه أحمد يضمّ إليه خديجة في أدراج الفوقي الذي يسكنونه. قلت في نفسي: لابدّ من أن يكون ذلك. تذكّرت كلامه بمجرّد أن وضعنا السطلين اللذين ملأناهما من (المعْدة) في مدخل السفلي الذي يَسكنه (السّي التهامي)، ودعت لنا خديجة بالنجاح؛ هي تستغرب آثار الضّرب في ملامحنا ونحن نستغرب حالها وخيانتها لـ (مول الحمّام).

□ □ □

لم أر عبد اللطيف في اليوم الموالي، غاب عن المدرسة، وكان التغيّب في قسم الشّهادة الابتدائية حدثا غير عاديّ بالنسبة إلينا. كنّا حين ننجح في هذه الشهادة نضع لها إطارا ونعلّقها في صدر البيت.

زرته في منزله فوجدته مريضا يعاني الحمّى والبرد. كان أبوه بجانبه يقرأ بعض الهمهمات في صمت مختلّ. شفتاه تعلوهما زرقة سوداء، ورأسه معصوب بمنديل مبتلّ بماء الورد، يظهر من جانبيه ورق السوسن. لمست يده المرتجفة وأنا أقول:

- لقد قرأنا درس الحساب ودرس القرآن، سنراجعهما معا حين تذهب عنك الحمّى.

نظر إليّ بعينين مبتسمتين، أحسّ أنني معه في مرضه، كيف أخذُله وقد بتنا معا في مدرسة النّجارين؟

جاءت أمّه بكأسين من اللبن، أعطتني الكأس الأولى:

- لم يأكل شيئا من البارحة، حاول معه يا ولدي.

كان أبوه يقرأ بشفتيه بعض الأدعية، رفع سبحته قليلا وأشار بها نحو عبد اللطيف، كان يدعوني إلى أن أسقيه كأس اللبن. فعلت، فلم يتردّد عبد اللطيف في أن يشرب الكأس دفعة واحدة. شربت كأسي بعده، وطلبت من أمّه أن تناولني محفظته كي أكتب درس الحساب والقرآن في دفتره. ابتسم أبوه ودعا لنا بالنجاح وعبد اللطيف يضع يده المرتجفة في يدي اليمنى، كأنّه يعاهدني على الشهادة التي تعلّق في صدر البيت.

دام مرض عبد اللطيف شهرا ويومين. ذهبوا به إلى طبيب نصراني قرب (سيدي علي بوغالب)، فلم يشف من مرضه، حاولوا مداواته ببعض الأعشاب فازدادت الحمّى وأخذ شعره يتساقط، ذهبت أمّه إلى الفقيه فلم ينفعه ذلك.

وحين سألتها عن هذا المرض الأسود الذي أصابه أجابتني:

- تشيّر آ ولدي ...

كان لكلمة (التشيار) رعب خاصّ في أنفسنا. فهي تعني الجنّ والأمكنة الخالية والظلمة. وكان كلّ من أصيب بمرض لم ينفع معه الطبيب والفقيه نقول عنه: إنّه تشيّر. أي سكنته قوى شرّيرة لا تكاد تبرح جسمه. سألتها:

- وما الحلّ، إنّ امتحان الشهادة يقترب؟

أجابتني بأن (الجّامعية) لم تر له من حلّ إلاّ أن يقيموا له ليلة (كناوة) ويطعموا الناس (الكسكس). وهي فكرة يعارضها أبوه لأنّه مقدّم (عيساوة).

استقرّ في ذاكرتي منذ ذلك اليوم بأنّ عبد اللطيف لابدّ من أن ينهار، لأنّه اجتمعت عليه مدرسة النّجارين، والسلحفاة التي ضرب بها عرض الحائط، ثمّ الصرّاع بين (كناوة) و(عيساوة).

بكت أمّه وكاد أبوه يطلّقها؛ ولكنه حين رأى اصفرار ابنه وتساقط شعره وامتحان الشهادة نزل عند رغبة (الجّامعية).

جلستُ في ليلة (كناوة) بجانب عبد اللطيف، سمعت معه أوتار الحزن المقموع، تدقّ آذانَنا قرقباتٌ حادّة عنيفة، وتهتزّ أمامنا أجساد متصلّبة ترقص رقصة الفاقة والخرافة، تصفعُ رؤوسَنا دقّاتُ الطّبل العريض فتردّ صداها أرواحنا المظلمة. تحلّق

الناس في وسط الدّار، الأطفال جالسون في العتبات وبين جوانب الحيطان، والرجال أمامهم وقد استداروا حول (كناوة)، ثم تستّرت النساء في غرفتَي (مول الحمّام) وفي الفوقي الذي يسكنه عبد اللطيف.

لم يحضر أبوه في تلك الليلة، بل كلّف (السّي التهامي) بالمصاريف وبمقابلة الناس. كانت (الجّامعية) جالسة قرب شيخ (كناوة)، لأنّ الليلة في الأصل إنّما هي ليلتها.

استمرّ (الجذب) والرقص العنيف المتوتّر من الظّهر إلى اقتراب أذان العشاء. تخلّلت ذلك استراحات مختلفة وزّع فيها الشّاي، صلّى بعض الناس صلاة العصر والمغرب، ودخّن بعضهم الكيف مع (السّي التهامي). وعند اقتراب سقوط الظلمة ذُبح وسط الدّار تيس أسود نهشه (كناوة) وهو ما يزال في دمائه. اختلط الدّم بأصواتهم وبزغاريد النساء، ثمّ وُضعت قصع الكسكس في هذه الجهة وهذه. لم آكل شيئا في تلك الليلة. كان الناس يأكلون في فوضى وصمت غريبين، احتميتُ إلى عبد اللطيف واحتمى إليّ من رعب مسيطر، علقَت بأنفي رائحة البخور، وسكنتني عيونهم المحمرّة وملامحهم الجائعة، كانت أسنان أحدهم سوداء منخورة، كيف لا أفزع وقد علقت بشفتيه دماء التيس المذبوح! مازلت أذكر أنّ واحدا منهم رفس الذبيحة بقدمه، وأخرج كبدها، ثم أخذ يعضّ فيها وينظر إلينا وهو يدور بخطوات صلبة قاسية، كان صاحبه يبكي ويتبعه كي يمنحه جزءا من كبد التيس. يوم (كناوة) حجر صلب فوق صدري، لو لم يكن عبد اللطيف مريضا ما حضرته. كرهت من ذلك اليوم المعْدة التي كنّا نشرب منها وسقاية النجارين ومدرستها. أصبحت أحوّل الطريق مع جدّتي لنمرّ عبر (سيدي موسى). هي تكره (بريكة) وأنا أكره الساحة التي ارتبطت في ذهني بمرض عبد اللطيف.

جـزء مـن التفـاهـة

في عطلة الربيع من سنة الشّهادة ومرض عبد اللطيف زرت (بريكة). كنت قد شغلت عنها بالدّراسة وبمرض صديقي. ولكنني تذكّرتها فجأة حين جاء إليّ عبد اللطيف يطلب منّي أن أعينه على نقل دروسه. حين رأيته يتماثل إلى الشّفاء تذكّرت (بريكة). دعوته إلى أن نذهب إليها معا فاعتذر، كانت لديّ رغبة أكيدة في أن يصحبني إلى دارها، ولكنني عرفت أنّ حاجته إلى دروسه أولى من زيارة (بريكة). ذهبت إليها وحدي، لم أمرّ من ساحة النّجارين، مررت من (سيدي موسى) و(كرنيز) لأنزل إليها من جهة (زقاق الحجر). وحين ودّعتها رجعت من طريقي هاته أيضا.

وجدتها وحدها في الدار، هي التي فتحت أمامي باب الطمأنينة، وجدتني حزينا مفزوعا، سألتني عن حالي فأخبرتها عن مرض عبد اللطيف، وعن (الجّامعية) وكناوة، وعن مبيتي في مدرسة النّجارين. ثم قلت لها:

- إنّي غيّرت الطريق إليك؛ أمرّ الآن من (سيدي موسى) وأنزل من (زقاق الحجر).

ضحكت، وقامت نحو عودها، أزالت عنه ستاره الأخضر، سوّت أوتاره قليلا، ثم أخذت تحرّك أصابعها في استرخاء حالم. بَدَأت نغماتها تتناهى إلى أذني فأحسست بالفرح والحزن والألم والسكينة. كان صدى الأوتار يضيع وسط الغرفة الكبيرة فتشعر أن الحيطان تردّده في عذوبة مضاعفة. سحرني الصدى والنغم دفعة واحدة، كأنّ (بريكة) تضرب على أوتار قلبي. لم أجد بيني وبين أوتارها أيّ مسافة قد تفصلني عنها، استولت عليّ نغماتها من كلّ جانب، ملأت كياني بأعشاب وردية مفروشة بأعشاب البحر، شملت أطرافي وصدري، كأني كنت أتنفس نغماتها مع أشعّة الغروب ومطلع الفجر، كان كل ما في الدار يمتزج بالصوت الخافت الذي يضيع

بين أشجار حديقتها. امتزجت داخلي أحاسيس الدنيا وأنا أسمع (بريكة) تضرب العود وتغنّي. نسيت الآن أغنيتها الأولى، ولكني ما زلت أقول الآن: إنّها أجمل أغنية سمعتها في حياتي.

غنّت (بريكة) وسالت من عينها دمعتان. مَسَحتْهما بمنديل أبيض وسألتني:

- أين تسكن يا بنيّ؟

- في (المخفية).

- هل أعجبك صوتي؟

نظرت إليها كأني أعاتبها بعينيّ المطمئنّتين إليها، ولم أجبها عن السؤال الذي بدا لي غريبا إلى حدّ كبير. لم تبال بنظرتي، وأعادت عليّ السؤال في شكل آخر.

عرفت أن جدّي لم يكن مخطئا حين أحبّها، فقلت:

- غناؤك أروع من كلّ غناء!

أجابتني:

- في المخفية أناس كثيرون أعرفهم معرفة حقّة. المخفية أجمل حومة في فاس.

قلت لها: إن جدّتي حكت لي حكاية (المخفية)، فهل تريدين أن أقصّها عليك؟

شملها فرح كبير، فأخذت عودها وبدأت تعزف.

قلت:

يحكى أنّ (المخفية) سمّيت بهذا الاسم لأن امرأة اختفت فيها سنوات عديدة ثم ظهرت. كان سبب اختفائها أنّ وباء أصاب المدينة فاضطر السكان إلى أن يلزموا بيوتهم. نادى فيهم منادي السلطان، يأمرهم بأن يحتاطوا للوباء بالمؤن وألاّ يغادروا منازلهم إلاّ بأمره...

كانت المرأة التي اختفت في سنوات الوباء طفلة صغيرة. ملأ أبوها أكثر غرفه بالقمح والزيت والقطاني واللحم المقدّد المملوح. ثم لزمت أسرته داره الكبيرة تنتظر أمر الحاكم بالخروج.

اجتاح الوباء الدار فمات الأب ودفن داخل داره، ثم ماتت الأمّ ودفنت إلى جانبه في عرصة الدار. بقيت الطفلة تصارع الوباء مع خادمة كانت الأسرة تملكها. ثمّ ماتت الخادمة فدفنتها الطفلة وبقيت وحدها. فلاهي سمعت أمر الحاكم ولا هي غادرت الدّار. ولذلك قضت عمرها لا تعرف من العالم إلا الاختفاء والصمت. ذهب الوباء وتغيّرت الدّنيا وباب الحياة موصدة من شدّة الخوف والخرس. مرّ على الطفلة زمن ظنّت معه أن العمر لابدّ أن ينقضي هكذا بين الوباء والموت والصمت. اقتاتت من مؤن أبيها وكفت نفسها مما ترك أهلها من ملابس وعادات في النوم والطبخ والغسيل. لم يعرف الناس بعد الوباء من يسكن الدار. كانوا يرون بين حين وآخر

من سطوح منازلهم، امرأة طويلة الشعر متنافرة الثياب، تهرب منهم بمجرّد أن تحسّ بوجودهم، فيستغربون الأمر ويتحدّثون عن جنّية تسكن المخفية. لم يتجرّأوا على أن ينزلوا إلى دارها من سطوحهم أو يدخلوا إليها من الباب الموصدة في وجوههم. ظلّت الحياة بينهم وبينها خليطا من الهواجس والخوف والهروب المتبادل.

بلغت المرأة المخفية حدّ الشيخوخة والعجز. وهي لا تعرف من أمرها وأمر الناس شيئا.

سمعت في يوم ما بابها يُطرق فلم تقْوَ على فتحه. توالى دقّه لثلاثة أيّام أخرى فخافت المخفية على نفسها وانزوت في غرفة بعيدة عن الباب وعن السطح.

كانت قواديسُنا الطينية تتداعى أحيانا فنضطر إلى إصلاحها أو إعادة بناء ما تداعى منها. فهي قواديس عتيقة لابد من تعهدها والحفاظ عليها، هي مصدر مائنا الحلو الذي لا يشبهه ماء الدّنيا خارج مدينتنا. ولذلك طرق الناس باب المخفية، كانوا يريدون إصلاح شبكة الماء التي انخنقت من دارها.

لم تفتح المخفية بابها فكسّره أهل الحومة بحضور المقدّم ودخلوا. وجدوا امرأة فزعة قد استقرّت في أقصى ركن من زوايا الدار الواسعة، أخرجوها من عزلتها وأطلقوا عليها اسم المخفية فسمّيت الحومة باسمها.

اندهشت (بريكة) لحكايتي وسألتني:

- هل لديك حكاية أخرى.

شعرت أن بعض ألمها قد ذهب فقلت لها:

- تعزفين على ربابك وأحكي لك حكاية هذا الدرب الذي تسكنينه، هي حكاية يرويها أبي!

لم تتردّد (بريكة)، قبلت الاتفاق، ونزعت عن ربابها ستاره الأحمر، فبدأت الحكاية.

درب مينة هذا الذي تسكنينه شبيه بحومة المخفية. ولكنّ صاحبته مختلفة عن المرأة المخفية اختلافا كبيرا. يحكي أبي أن وباء آخر أصاب المدينة فقلب الناس رأسا على عقب، ولذلك سمّوا عامه عام (بوكليب) أي الوباء الذي يقلب الإنسان قلبا فيقتله جماعات جماعات دون أيّ أمل في إعادة الحياة لمن أصابته جرعة منه.

مرّ عام الموت ولم تمت (مينة)، خرجت من دارها سليمة لم يقلبها (بوكليب) فيمن قلب من الناس. اشترت ديكا وأخذت تحتال بأنه يهرب منها، فتدخل إلى المساكن كأنّها تبحث عنه، فإن وجدتها عامرة بأهلها انصرفت بديكها، وإن وجدتها خالية ملكتها وارتشت لها عدلين كي تصبح في حوزتها شرعا وإسلاما. فسيطرت على أكثر منازل الدّرب وسمّي باسمها. ابتسمت (بريكة) قائلة:

- هكذا هي الدنيا يا بني: حيلة وسطو، فمالك ومملوك ومصاب بالوباء لا يعرف رأسه من رجليه.

سكتّ أتأمّل قولها، كانت ما تزال تعزف على ربابها الأحمر، وجدتها على حقّ، ثم قمت من مكاني كي أودّعها، أعطتني جوزا ورمّانتين، فشكرتها وقصدت دار صديقي عبد اللطيف كي أقتسم معه فاكهة (بريكة).

حين هممت بالصعود إلى غرفته وجدت أخاه وقد التصق بخديجة، يلحس خدّيها ويأخذها إليه في عنف، هي تحاول الانفلات من بين يديه وهو يقول: لا تخافي، لا يوجد أحد.

رآني أنبعث بين الأدراج فخاطبني في غضب وتوتّر:

- صاحبك غير موجود، تركته في قنطرة الرصيف.

نظرت إليه نظرة ساخرة وجريت نحو القنطرة. حين وجدت فيها عبد اللطيف تيقّنت من أنه قد شفي من مرضه. حدّثته عن (بريكة) فأكل معي الجوز والرّمان، ثم أخبرتُه عن أخيه وخديجة، فقطّب جبينه ولم ينطق بشيء.

حين أنهى رمّانته، قال لي: سنذهب إلى المنزل كي نراجع بعض الدروس.

كانت فكرته صائبة، ولذلك استجبت لرغبته وقصدنا الدار في سرعة. صعدنا الأدراج نحو غرفته فوجدنا أخاه مع خديجة في فزع، يرتديان لباسهما. لم تستطع خديجة النظر إلينا، انحنت برأسها ونزلت الأدراج كأنّها ستسقط منها. نظر إلينا أحمد في تحدّ وكبرياء، كأنه احتقرنا لأنّنا لم نزل بعد طفلين، ارتدى حذاءه وخرج يقول:

- إيّاك أن تخبر أمّي.

أخذ عبد اللطيف حقيبته وشرعنا نراجع دروس الحساب والتاريخ.

مرّ بعض الوقت، وسمعت سعالا حادّا يصعد صداه إلى أذني في قسوة غريبة، سألت عبد اللطيف عن ذلك فأجابني بأنّ (السّي التهامي) قد أصيب بالسلّ، أو إنّ السلّ كان يسكن صدره وهو لا يعرف ذلك. الآن يقترب من أن يموت، وهو لا يذهب إلى الطبيب، بل يكتفي بدواء (الجّامعية). قال ذلك وهو بين أن يكون ساخرا وغير ساخر. كان موزّعا بين الطّبيب النصراني الذي عالجه، وبين (الجّامعية) التي أقامت ليلة (كناوة) في منزل أبيه.

سألته:

- وكيف عرفت أنّه مصدور؟

- رأيته يسعل ويبصق سائلا أصفر.

- إذن سيموت؟

- نعم، سيموت!

عرفت أنّه لم يصدّق (الجّامعية) إلا اضطرارا، كان مرغما على أن يسير وفق إرادة أمّه.

- وأنت لماذا شفيت ب (الجّامعية)؟

- هل تعرف أنّني شربت دواء الطبيب النصراني في ليلة (كناوة) وبعد ليلتهم، كان مرضي مختلطا، ماذا أفعل، قالوا (الجّامعية) فتركتهم لما يريدون.

- وكيف تنام خديجة في فراشه؟

- سيضربها إن لم تنم بجانبه؛ وحين يضيق بها تنام وحدها في الغرفة الأخرى.

- هل هي على حقّ فيما تفعل؟

كأن السؤال كان أكبر منه، ولكنه أجابني:

- ربّما تكون هي على حقّ، وأخي، هل هو على حق أيضا؟

طرح السؤال في امتعاض وسكت. لم أجبه بشيء، دعوته إلى أن نحفظ درس القواعد، ونسينا حديث أخيه.

□ □ □

انشغلت بعد عطلة الربيع عن جدّتي وزوجها الضرير. لم أزرها لأسبوعين أو أكثر. وكان العياء قد بدأ طريقه إليها، فتباعدت زياراتها لنا؛ كانت تقول: من أحبّني منكم جاء إليّ في منزلي، فلا نذهب إلاّ لمَاماً وتأتي جدّتي.

زارتنا في ليلة القدر، وانتظرت معنا أن تفتَح باب السّماء. وحين اقتربت من أن تنفتح أخذتني إلى حضنها ونمنا في غفلة عن نور الفجر. لم أرَ في حلمي وجه الملائكة. سكنت إلى صدر جدّتي وغبت عن الدّنيا، وحين استفقت تذكّرت أنّني حكيت لها عن ياسمين.

- ومن ياسمين هاته؟

- حفيدة (بريكة).

كأني قد كويت قلبها بجمرة حين ذكرت لها (بريكة). ولكنها تظاهرت بعدم الاهتمام وسألتني:

- حفيدتها؟ ومتى تزوّجت ابنَتها حتى تكون لها حفيدة؟

- تزوجت من رجل قتل في الدّار البيضاء،

- قتل؟ أنت أحمق، رجلها ذهب إلى الحجّ وطلقها منه (البغدادي)، ورجل ابنتها مات في الدار البيضاء؟ خرافات (بريكة) لا تنتهي.

تذكّرت أنها ما تزال حاقدة على المحبة المنقسمة فقلت لها :
- ابنتها خرساء، وكانت تغنّي مثلها.
ظنّت جدّتي أنّ حمار الليل قد أصابني، ضمّتني إلى حضنها وهي تقول:
- نم، نم، وستحكي قصّة ياسمين حين يصبح الصباح.
- أصابها الخرس حين قتل زوجها.
- وياسمين؟ هل تركها في بطن أمّها؟
- نعم، وما الغريب في ذلك ... ؟
- الغريب فيه أنّ حكايتها وحكاية أمّها واحدة. خرافة تحكي خرافة. هل صدّقت هذا الكلام؟
- نعم صدّقته:
كنت يا جدّتي في دار (بريكة)، ولم تكن ابنتها حسناء موجودة. انتبهت إلى الحديقة فرأيت ياسمين بالقرب من صهريج الماء، كأنها فاكهة من الجنة. أشارت إليّ بأن أجلس معها تحت ورق الدّالية، لم أتردّد، سحرتني كأميرة في جزائر البحر، ذهبت نحوها وقبّلت خدّها الورديّ، ثمّ جلسنا نتحدّث عن العشب والسنابل وشقائق النعمان. غابت الشمس وشملني مع ياسمين ليل يملأه هدوء لا نهاية له. أسدلت خصلات شعرها الأسمر، فاحت منها رائحة أقحوان وبرتقال، أخذت يدها بين يديّ، واستندت إلى صدرها. كان نهداها دافئين كوردة لم تتفتح بعد، وضعت رأسي الحالم بينهما وقلت إنّني سأرزق من ياسمين طفلة سمراء كلون القمر. قَبَّلتُ قدَمَيْ ياسمين ولفّتنا الدنيا بستار من المحبّة. كانت الدّالية تغطينا بورقها الناعم الأخضر، سألتها في فرحي وشوقي:
- هل تحبّينني؟
ضمّتني إليها، عصرتها داخل قلبي، أخذت شفتيها بين شفتيّ أو أخذَتْ شفتي بين شفتيها، لاأدري من منّا أحبّ الآخر أكثر، كنت أذوب فيها وكانت دافئة مستسلمة، نظرت إلى عينيها وقد أطلّ عليهما القمر، فلم أر في الدنيا أجمل من نورهما المتلألئ.
رأيت فيهما يا جدّتي حزنا وأملا ينبعثان داخلي، رأيت فيهما موجا هادئا يرقص وسط البحر. كانت عيناها بين اليقظة والنوم كعيني حمامة تسكر من المحبة. رأيت في عينيها حلما ويقظة مزجت بهما كياني ودمي.
قبّلتني ياسمين، وإذا نحن أمام شبح لا شكل له. كان ذعرنا أكبر من حجمنا الصغير. هل كتبت علينا الرّهبة والمحبّة؟ كنّا نسمع عن الأشباح ولكننا لم نتصورّ أنها هكذا: ظلمة داخل ظلمة من الفزع. ذُعِرنا في محبّتنا. لم نكدْ نرى الشّبح الذي

انشقّت عنه الحديقة بين الدّالية والسّروة حتّى أفقنا من حلمنا العذب. احتمت بي ياسمين واحتميت بها، أضمّها إليّ وقد شملنا صمت أخرس، هربَتْ من فزعها إليّ، تحجّر الدمع في عينيّ وأنا أقول في صمت:

- ياسمين، لا تخافي.

كان خوفي رهيبا، أحسست أنّنا سنموت أو نحيا وسط الرعب.

بكت ياسمين، كانت دموعها دافئة متدفقة تمزّق خيوط قلبي الصغير. بدأ قلبي يتّسع ليشمل آلام الدنيا. سيطر عليّ الشّبح الذي انشقّت عنه الدالية أو السروة أو ما بينهما، شملني رعب متمكّن، أخاف المجهول يا جدتي. أبحث عن الشبح داخلي، أعتقد أنه موجود في كلّ مكان من العالم حولي! ماهذا الذي أصابنا؟ هل تموت محبّتنا في بدايتها بفعل شبح رأيناه أو لم نره؟ ربّما نكون قد صنعناه من أنفسنا؟ وكيف تصنع النفس البريئة شبحا للخوف والفاقة والرعب؟ لعلّه وهم لعين يطاردنا؟ الرّاجح أنّ بعض أهل الأرض هم الذين أفزعونا به؟ أرادوا طردنا من حديقة (بريكة) لأنّهم أحسّوا بأننا سنستمر بغنائها الشجيّ وصوتها العذب إلى ما لا نهاية له من أيّام الفرح والصدق والمحبّة؟ أرادوا لعنتنا فأوهمونا بوجود مخيف داخل الحديقة؟ بعثوا في أنفسنا شبحا يأكلنا من الدّاخل، يحوّل صورة الحديقة اليانعة إلى خراب أبديّ فارغ؟ كنّا جالسين قرب الساقية المتدفقة في سكون من الصهريج إلى الشجر والزهر والقرنفل، أضمّ يدها بين يدي وتضمّ بيدها الثانية قفاي ونحكي عن أننا سنكبر ونتزوج وتكون لنا فتاة كضوء القمر وبيت كبيوت الجنة المتناثرة بين الظلّ والشّمس ونور الله، ثم انشقت الأرض عن الشبح المتوالد في صدري.

ظننت بعد حكاية ياسمين أن جدتي ستقول: إنّ (بريكة) قد سحرته، وستقتله كما قتلَتْ زوجي بالمحبة المنقسمة.

ولكنّني حين أنهيت حكاية المحبّة والرعب، انتبهت لجدّتي فوجدتها قد نامت كطفل صغير ينتظر انفتاح باب السماء. فنمت أنا أيضا وقلت: إن الصباح قريب.

□ □ □

كانت ياسمين هاته أوّل امرأة أحببتها في حياتي. لم يكن الشبح الذي أفزعنا في بداية الطريق ليبعدني عنها. ازددت ارتباطا بدار (بريكة)، وأخذ تساؤلي عن خرس ابنتها يكبر، ثمّ انغرست ياسمين في قلبي.

رسبت في تلك السنة ونجح صديقي عبد اللطيف. فرحت له لأن الحسد لم يكن يعرف طريقه إلينا في زمن المحبّة. علّق له أبوه الشهادة في صدر البيت، وعلّقتُ صورةَ ياسمين في عنقي.

أخذ وعيي يتجاوز جسدي؛ سألت أبي عن (بريكة)، هل حضر ليلة من لياليها فسمع صوتها وأغانيها.

حدّثني بأنه حضر آخر مرّة غنّت فيها. كان ذلك في دارها، بعد أنْ ظن الناس أن زمنها قد مضى، وأنه قد محاها من قلوب الذين أحبّوها. شاع في المدينة أنّ جدّي قد مات، وأنها لا تستطيع الغناء بعده. كانت تصلها أخبار هزيمتها فتتألّم وتستسيغ ألمها. وحين أعلنت بين الأصدقاء والخلاّن أنّها ستغنّي كذّب الناس الخبر، لم يصدقوا أنها ستعود إلى ما كانت عليه من مجد غابر، قالوا: إن ذلك منها مجرّد نزوة وحماس سريعين. لن تغنّي شيئا بعد محبّتها المقتولة، لن تستطيع الغناء بعد شبابها الحافل بالمأساة. سيصيبها الخرس كما أصاب ابنتها. الزمن أكبر منها، فكيف تقوى على إعادة ماضيها البعيد. قد انقرض فيها كل شيء.

ولكنّها -كما يقول أبي- غنّت.

اجتمع الناس في بيتها، تفرّقوا في عرصتها الوارفة، جلسوا بين الدّالية والصّهريج، يحثّهم التساؤل أكثر مما يأخذهم الشوق إليها.

وغنّت (بريكة)، غنت أغنية الخيانة والخذلان:

1 - يا زْمان المحبّة، الكْبيرة اللّي مايْوازيهْ زمَانْ
جْراتْ بيكْ الرّيح فْبحَر عاتي وْمَالُو شْطآنْ
خلّيتْني هايْم وحْدي وْقلْبي حَيرانْ
قَلْبي رْجَفْ ليكْ رَجْفَة عميقَة وتجَازَى بالنّكْران
صْبَحتْ غريب كأنُّه ما كان لي حْبيب يعانقْ ايَّامي بالحضَانْ
نَركَبْ معاه مُوجَةْ المحبَّة الهاديَة ونَسْبَح فْنْسيم الغُدرانْ
يازْماني كيفْ نَقْدَرْ نسكُتْ قلبي مَلآنْ
بْهمُومْ كْثيرَه غْزاتْ جْوارحي والوَجْدانْ
زْماني يازمان الغْدَرْ الكْبيرْ جْرحْتي قلبي بحْزَان
كانْ ليك اللّه فالصبّر يا قَلْبي نعم العوّانْ
نَبْدا قصّتي يامَنْ احْضَر من صْديق وعديان:

2 - كّنتْ وكانت ايَّامي صَافْيَة بلاّرْ
نْعِيشْها بالفَرْحَة وخَاطْري هانِي
ما نَعْرَفْ غيارْ
فقَلبِي نْكْتَم اسْراري واحْزانِي
ونكْمي الاسْرارْ
وْجَا زْمانْ فالضّلوع كوانِي
بجمرْ النَّارْ
زمانْ ضيّعني وْجْلانِي
سْقَانَي المْرَارْ
ذوّبني دّانَي وفْنانِي
وخْبَيبي مَا جَابْ خْبَارْ
لاَ حَدْ من صْحَابي عَزَّانِي
بْعِيدْهُم وقْريبْهُمْ والجَارْ

3 - كانْ لي وَاحد فيّامي
هو مَحبّتي ومْرامَي
وَخْلُو نَبْغيه
بعْيُوني، جْوَارْحيَ وكْلامي
نسَبّحْ فخْلاَمُو وخْلامَي
بْرُوحي نَفْديه
نْشَرْ معَاهْ بالسرورْ غْلامي
ونذوب فَغْرامُو وغْرَامي
وكاسي نْسْقيهْ
هُوَا شْفَايَا وسْقَامي
هُوَا وْجُودي وغْدامَي
بْلَخْني نسبَيه
كيفْ نَقْدَرْ فنَاري وضْرامي
نْصْبَرْ عْلَى فْرَاقُو وهْيامَي
آونْسَلِّمْ فيه

4 - ايَّامي يا نَاسْ منْ بعد الصْفَا

غَامتْ وسْماهَا تُكدْرَات

من بعد شْربتْ كيسانْ الوْفَا

فْصباحْ وليل وكلْ وْقَات

عْطَاني الزّمانْ الظّالَمْ بالقْفَا

بْحُورُو ومواجُو غْتَاتْ

سْفُوني مابْغَاتْ ترْقَى

ومْشاتْ بيَ لْغواصْفْ وجاتْ

حْبيبي هجْرني وجْفَا

وخَلاّني وحْدي فالشّدّاتْ

نقَاسي فْرِيدْ سَاعْة التلْفَى

فبحَرْ المحبة عْظامي رْشاتْ

اندهش الناس لصوتها، غنّت غناء القلب للقلب، أنصت الحاضرون لذبذبات نغمتها، هاموا في ثنايا كلّ كلمة تنطق بها، وجدوا في كلامها عالما فسيحا من الأمل والإشراق.

تداركت ماضيها الحافل بالأغاني الجميلة، رأت الناس يتساقطون كذباب القمامات، فأرادت أن تبعث فيهم أملا ينغرس في أعماقهم.

قام شخص وسط القوم يصيح:

- غناء مغشوش.

أجابه آخر من جنبات الدّار:

تكذبين علينا.

صاحت جماعة:

- يلعنك الله من امرأة.

- صوتك مبحوح!

- نغمتك صدئة.

- مغنيّة تافهة، قد تبدّل الغناء من زمن بعيد، فاذهبي إلى الجحيم.

- أنت أردأ امرأة عرفتها.

علا صفير في هذه الجهة وهذه. اضطربت دار (بريكة) بمن فيها، أخذت أوراق شجرها تتساقط، انطفأت أضواء المصابيح الغازية التي كانت تضيء الحديقة في شحوب وحلم، تزاحم الناس حول الباب يهرب بعضهم من بعض، وساد الدار صمت المقابر.

اندهشتُ لكلام أبي، ظننت أنه يكذب، عرفت أنه كان هاربا فيمن هرب، وحين لم يجد مبرّرا لاضطرابه وعجزه تحدّث عن ليلة مشوّهة.

سألت (بريكة) عن ليلتها الأليمة، أجابتني:

- بكيت في تلك الليلة يا ولدي، بكيتُ تفاهةَ الناس، لم أبك حظّي، قد اكتفيت بمحبّتي القديمة، فيها سعادتي وشقائي، أردت سعادة الناس، ولكنهم فيما يبدو قد ارتاحوا إلى تفاهتهم، تعودوا عليها فلم يعودوا يقوون على العيش خارجها.

فكّرت في كلامها فوجدت أنّنا قد مزجنا في مدينتنا الطّيبة بالرّعب والتفاهة.

فهل سأملك القدرة على انتشال ياسمين من ضياعها المؤكّد؟ تهيأت للهزيمة، شددت الرِّحال نحوها، وعرفت أنّها ستطول لا محالة، ستسبقني وألاحقها، ستستولي عليّ في بداية الطريق. ستموت (بريكة)، وتموت ابنتها الخرساء، وسأضيع مع ياسمين بين الطّرقات والمحطّات. سأكون عاجزا في اختياري، ستصير حالي مقلوبة ترجع على عقبيها.

رحلة إلى الدار البيضاء

في صيف تلك السنة ذهبت إلى الدّار البيضاء. لم أكن قد رأيتها من قبل. كنت أسمع أنّها مدينة شاسعة كالبحر، وأنّها تداوي من قصدها إذ تحوّل حياته من الفقر إلى الغنى. ولذلك سمعنا أهلها يغنّون عن (سيدي بليوط):

أيا سيدي بليوط
داوي هاذ المزلوط
راه غريب وبرّاني.

أي أنّهم قد ارتاحوا في عيشهم، ودعوا لكلّ من قصد بلدتهم من قريب أو بعيد بالفرح والرّفاه.

كنت كلّما سمعت حديث الدّار البيضاء تفاءلت. كم تمنّيت في ذلك الزمن البعيد أن أكون مرفّهاً مثل أهلها، أغنّي معهم أغنية (سيدي بليوط). فرحت فرحا كبيرا حين قرّر أبي أن يصحبني معه إلى هذه المدينة الساحرة التي ملأت عليّ الدّينا بالغنى والتجارة ومراكب البحر. كان لنا جار نحبّه محبّة كبيرة ذهب بعدها إلى الدّار البيضاء. ترك الخرازة وأصبح موظّفا في شركة للحافلات. لابدّ أنه قد ترفّه. كان له ستّة أبناء ذهب بهم إلى المدينة الشاسعة، واشتغل جابيا في الحافلة فلابدّ أن يضمن مستقبل أبنائه. الموظّف أحسن من الخرّاز! للموظّف الحوالة وللخرّاز الدّلالة. سيتمكّن جارنا من عيشه الكريم، وياكل ويشرب في الدّار البيضاء. هكذا كنت أتصوّر.

ركبنا القطار، ونزلنا في محطّة (سيدي بليوط). كانت رائحة البحر تفوح في عنف متمكّن. تنشقت هواءه البنفسجيّ، لفحني في مسامّ جلدي، ملأت منه رئتي وقصدنا (سيدي بليوط). قال أبي: إنّه يريد أن يتوضّأ ويصلّي الفجر. جلست إلى

الحصير أداعب أعشابه، وتركت أبي لصلاته. حين أنهى الصلاة والدّعاء قام إلى خابية موجودة في السّاحة الصغيرة، شرب منها ورجع إليّ قائلا:

- هل تعرف قصّة هذا الرجل الصالح، إنّه كان يعشق البحر فجلس بالقرب منه يتعبّد، وهنا كانت وفاته. كان فيما مضى يسكن الجبل والوعور وكانت له سباع يصحبها في حلّه وترحاله، والسبع -فيما تعرف أيّها الراسب في الشهادة- يسمّى الليث. كان السلطان يخافه لتديّنه ومصاحبته السّباع. دعاه إلى أن ينزل من الجبل ففعل. ظنّ السلطان أن السّباع لن تخرج من الغاب فتتبعه، وتأكّد الرّجل الصالح من أنّها ذاهبة معه أينما ذهب، فنزل إلى البحر ونزلت معه سباعه، فسمّاه الناس: أبو الليوث... بُولِيوثْ- بْلِيُوثْ- بْليوط الذي يداوي المزلوط! أي أنّه صاحبُ الفقراء في البحر والجبل.

عرفت أنّني لم أستفد شيئا من درس التاريخ الذي لُقِّنتُه في المدرسة، وردّدت في نفسي أغنية (البليوطيين) لأنني لم أقو على أن أصيح بها وسط الضريح الذي نشأتْ فيه.

خرجنا من الضريح، وقصدنا صديقا لوالدي يسمّى (السّي المعطي). وهو صاحب دكّان في باب مراكش، يبيع فيه الزّرابي القديمة.

لم يكد يسلّم عليه أبي حتّى نادى أحدَ صبيانه وأمره بإحضار الشاي. سأل أبي عن الأهل والأبناء ودعانا إلى الجلوس فوق كرسيين متقابلين بجانبي الدّكان. دار بينهما حديث متشابك لم أهتمّ به بقدر ما اهتممت بحركات (السّي المعطي). كان يتحدث بسرعة كأنّه يريد أن يقول كل شيء دفعة واحدة. تحس أنّ صدره مليء بالكلام، وأنه لا يكاد يخفي عنك أيّ حاجة في نفسه، يضحك مع كل جملة ينطق بها، ويميل إليك برأسه وملامحه كأنك جزء منه، يعلّق على أكثر كلامه في ابتسامة عريضة:

- افهمتني، انعما سيدي ...

ويواصل الكلام الذي بدأه.

كان أبي منسجما معه كلّ الانسجام، لايكاد ينظر إلى ما حوله في السوق، وهي تضجّ بأصوات الدّلالين وصيحاتهم:

آلف... آلف وميا... آلف وميا وخمسين...

يجيبهم (السّي المعطي) بحركة من رأسه وهو لا يكاد ينقطع عن حديثه، ثمّ يقول:

- افهمتني آسيدي...

وينظر إليّ بين فينة وأخرى ليقول:

- الله يسخّر، الله يصلح.

لم يشرب كأس الشاي الذي وضعه فوق مصطبة الدّكان، ويدعونا إلى أن نشرب كأسينا.

كان (السّي المعطي) معافىً، يميل إلى البدانة قليلا، أسمر البشرة، يهتزّ لحم صدره كلّما ضحك. يرتسم منه في نفسك أوّل ما تراه أنه طيّب وكريم، وأنه -كما يقول أبي- من بيضاوة الحْرارْ.

استدعانا لتناول طعام الغذاء عنده، فلم يتردّد أبي في الاستجابة لدعوته. نزل من دكانه وأشار على متعلّمه أن يحلّ مكانه ثمّ قصَدْنا بيته. كان حديثه في الطريق إلى البيت خافتا لا أكاد أسمع منه شيئا، كما أنّ حركاته قد استكانت، إذ وضع يديه وراء ظهره وانحنى برأسه ينظر إلى الأرض ويتكلّم. يسمع من أحد معارفه (مْساَ لْخير آسّي الْمعطي) فيرفع رأسه قليلا ويبتسم ثم يواصل طريقه وحديثه. حين سلّم على حانوت للتغذية واشترى زجاجتين من كوكاكولا، عرفت أنّنا قد اقتربنا من منزله. سألت أبي في صوت منخفض: ماذا تسمّى هذه الحومة؟ أجابني: درب گناوة! تذكّرت عبد اللطيف ومشهد التيس الأسود الذي تناثرت كبده في ليلة (الجّامعية)، وقارنت بين (السّي التهامي) و(السّي المعطي)، وجدت أن الفرق بينهما كبير، فأحببت الدّار البيضاء في أوّل زيارة لها.

سمعنا أذان الظهر، كنت متأكّدا من أنهما سيصليان في المسجد الذي مَرَرْنا به. وقفا قليلا ببابه كأنّهما أرادا أن يكملا حديثهما الذي بدآه في (باب مرّاكش)، نَاولَني (السّي المعطي) زجاجتَيْ الكوكاكولا، ضممتهما إلى صدري وجلست في جانب من باب الجامع أنتظرهما.

أغرب ما لاحظته في الدّار البيضاء وأنا جالس في باب المسجد بدرب گناوة، أنّ بعض الناس يجرّون فيها عربات صغيرة ويصيحون: آلْحلُو، آلْحلْو... لم أفهم من ذلك شيئا، ولكنّني حين لاحظت بأنّ العربات الصغيرة قد حُمِّلت أدوار الماء، عرفت أنّهم في الدّار البيضاء قد افتقروا إلى مياه العيون والآبار حين أدخلوا العدّاد إلى ديارهم. فربّما سقانا (السّي المعطي) كأس الشاي في حانوته، واشترى كوكاكولا لهذا السبب؟ ربما يكون الماء الحلو غير متوفّر في منزله؟

لابدّ أن يكون شاي (السي المعطي) من ماء البئر أو العيون. كان أبي يستَفّ منه الجرعة ويرسل معها صوتا تشعر معه بأن شفتيه ستظلاّن بقعر الكأس لكثرة ما تنغمسان فيه. لم أذق في الدّنيا أحلى من شاي باب مرّاكش، لست أدري، شيء ما ينقصنا في شاي اليوم، شيء لا نكاد نجده في ما نتناوله من سكّر وماء مسلوق.

خرجا من المسجد وذهبنا إلى دار (السّي المعطي). لم تكن بعيدة بأكثر من خطوات.

تغذّينا عنده (الرّفيسة)، أكلة غريبة لم أكن قد عرفتها من قبل. يضعون الرّغيف في الصحن ويصبّون فوقه المرق، ثم يضعون فوقه ديكا أو ديكين، وكُلْ ماشاء لك الأكل.

جلستْ معنا في طاولة الغذاء زوجة (السي المعطي)، وابنة له يافعة مبتسمة وطيّبة كأبيها. لم تكن بينه وبين أبي أيّ كلفة، ولذلك فإن زوجته كانت ترحّب بنا وتتحدّث لأبي دون أيّ خجل أو تستّر. ثم تقول لي بين حين وآخر:

- كُل... مرحبا بالفاسي.

فتبتسم ابنتها وتزيح الأكل عن جهتها في الصحن لتضعه بين يديّ. لم أشرب من الكوكاكولا سوى جرعة أو جرعتين، وإن كانت (للاّ حبيبة)، زوجة (السّي المعطي) قد أصرّت على أن أشرب كلّ الكأس الذي وضعته أمامي. كان طعامها يستغرقني، وجدت بينه وبين كوكاكولا بعض التنافر، كنت أفضّل لو مزجت بينه وبين كأس الشاي الذي التهمته في حانوت (السّي المعطي).

قامت ابنتها لتزيح صحن الدّجاج وتضع مكانه صحنا مشابها له قد امتلأ من التّفاح البلدي. ما كادت تنزله فوق المائدة حتّى شممت له رائحة كأنّها رائحة الإجّاص المسكيّ الذي سرقته مع عبد اللطيف من جنان علي الرّباع. رفعت المائدة الطيّبة، وخرجت (للاّ حبيبة) وابنتها مريم من الغرفة التي تناولنا فيها الطّعام إلى المطبخ لغسل الأواني وترتيبها، وبدأ حديث: (فهمتيني آ سيدي)، وابتسامة (السّي المعطي) من جديد.

فهمت من حديثهما أن أبي كان يوصيه كلّما زاره في الدّار البيضاء بأن يجد له دكانا في هذه المدينة التي لا حدّ لها، ينقل إليه تجارته من فاس. فيناقشه في أنّ مصاريفنا ستكثر وأنّ حياتنا ستضطرب.

- ومدرسة الأبناء بعيدة كما تعرف؟

- يركبون الحافلة إن شاء الله؟

- عناء الحافلات كبير؟ افهمتيني آسيدي...

ويبتسم أو يضحك، فيبتسم أبي ويَقول:

- نشتري لهم سيارة ونستخدم لهم سائقا...

يضحك (السّي المعطي) ضحكة عالية فتظهر له أسنان بيضاء ناصعة تزيده في ذهني مقاما وطيبوبة، وأملا في أن يجد لأبي الدّكان الذي يريده، ثم يقول:

- ماشي خسارَه فيك (فهمتيني آسيدي)، الله يلعن بو السّياره فوجوه الرّجال.

- الله يُبارك فيك آسيدي. نحن لا نريد سوى أن نجاورك في المحبّة وعبادة الله.

غريب! سمعنا أذان العصر، وضحك (السّي المعطي) قائلا:

- عليها قولة الله أكبر، يا الله آسيدي، الصلاة إن شاء الله، (للاّ حبيبة)، مريم، توضّيتو، العاصر آللاّ.

شعرت ببعض الخجل وقمت لأتوضأ وصلّينا العصر: (السّي المعطي) يؤمّنا وأنا وأبي خلفه، و(للاّ حبيبة) ومريم خلفنا.

لن أنسى ما حييت رحلتي الأولى إلى الدّار البيضاء!

بتنا تلك الليلة في درب كناوة، وتوجّهنا في الصباح إلى (الهادي). الهادي هذا أعرفه معرفة جيّدة. كان يساعد أبي في تجارته البسيطة. ينقل إليه الجلد من (دار الدّبغ) إلى (السّبيطريين)، ويزاحم أبي داخل الدّكان الصغير كي يرتّبه، ثم قد يترك له أبي الدّكان ليحلّ محلّه في بيع الجلد للخرّازين.

لم يكن الهادي متزوّجا، ولكنّه كان يريد أن يتزوّج كي تستقرّ حياته مع أمّه. مات أبوه وتركها ليتحمّل ابنه الوحيد مسؤوليتها. تعلّم خياطة الجلد فلم يفلح، ذلك أنّ الخياطة العصرية لم تكن قد شاعت في مدينتنا بعد. كنّا نكتفي بخَرْز الجلد على الطريقة التقليدية: الإشفى والخيط المشمّع والإبرة، ولم أرَ في أيامي تلك بَلغَة أبي قد مزّقت، تظلّ في رجليه مدّة، ويشتري غيرها وهي ما تزال صلبة قويّة كالأيدي التي خرزتها. ربّما لم يفلح الهادي لأنه لاحظ الفرق الكبير بين الخياطة التي يريدها هو، والخياطة المغشوشة التي تريدها الماكنة. تحوّل إذن إلى خياطة اليد فتعرّف على أبي. كان معلمّه الخرّاز يشتري الجلود من حانوتنا، ويرسل (الهادي) كي يحمله إلى فندق الشّماعين حيث محلّ الخرازة. مكث عنده سنتين أو ثلاثا، ثمّ انتقل ليتعلّم التجارة.

كان الهادي جافّا منكّس الرأس عَبُوساً باستمرار. ولكنّه كان جدّيا مستقيما. فكان أبي يكره فيه عبوسه ويحب فيه استقامته ويقول: يصلح للتجارة ولا يصلح لها. التّجارة تريد انبساط الوجه والأخذ والرّد مع الناس. والهادي قلّما يتكلّم، والابتسامة لا تعلو وجهه أو شفتيه.

سألت أبي:

- وأين يوجد الهادي؟

- في درب عمر.

- ودرب عمر قريب؟

- شيئا ما، كن رجلا، هادي راها الدّار البيضاء.

- وماذا يوجد في درب عمر؟

- دُور السّلع.

- دور السّلع، وماذا يباع فيها؟
- جميع ما تريد: الثوب، الملابس، الحلوى...
- والجلد؟
- الرّومي، الرّومي. البلدي في فاس ومرّاكش والرباط.
- ولماذا لا تشتري داراً للسِّلع في درب عمر؟
ضحك أبي لكلامي وقال:
- إن شاء الله، ثم استدرك: درب عمر آوليدي خاصّ بالتجار الكبار، التجار الذين يتعاملون مع (لُوزينات)، وتأتيهم السّلع من الخارج.
أدركت سذاجتي وسألته.
- وهل الهادي تاجر كبير؟
- لا، الهادي يشتغل في معمل قرب درب عمر.
عرفت أنّ الهادي لايصلح للتّجارة، فسألت:
- وماذا يشتغل؟
- خيّاطا، يخيط الكرات.
- وهل الكرات تخاط باليد.
- نعم، يخيطونها باليد وتصدّر إلى الخارج.
وصلنا إلى المعمل. كان بابه مقفلا. باب حَديديّ عال عريض. ظننت أنْ لا أحد يوجد داخله؛ ولكنّ أبي رفع يده إلى جرس صغير مدفون في الحائط الأيمن للباب الكبير، وضغط. انتظرنا بعض الوقت ثمّ فتح الباب رجل يرتدي سترة زرقاء.
خاطبه أبي:
- نريد واحدا اسمه الهادي؟
- الهادي آش، ابن من؟
- الهادي بنجلّون.
- انتظروا.
دخل الرّجل، أغلق الباب، ثم رجع.
- تفضّلوا...
أشار علينا بأن نجلس في قاعة صغيرة فيها ثلاثة كراس طويلة من خشب، قد تقاربت رؤوسها على طول الحيطان الثلاثة التي وضعت فيها، ثمّ توسّطت الغرفة طاولة مربّعة من خشب أيضا.
كان أمام تلك الغرفة مكتب أوسع منها قليلا. فيه طاولة حديدية رمادية وكراس مغلّفة بالجلد الرّومي. يجلس وراء الطاولة نصرانيّ بنظّارات بيضاء لامعة، ويجلس

في أحد الكراسي رجل أنيق وجهه أحمر لامع. كانا يتحدّثان. سمعت من كلامهما:

Oui - Peut-être - on discutera ça - A condition - C'est l'avenir qui est en - question

ثمّ جاء الهادي. ما يزال وجهه عبوسا كما كان، إلاّ أن بعض الاصفرار قد أخذ يعلو خدّيه المتصلّبين. سلّم على أبي، وانحنى برأسه، ثمّ سلّم عليّ.

- إيوا آسّي الهادي، كيف دايرين الكُوْرْ؟

- الحمد لله.

- إيوا سكنتي آ ومازال؟ امّك راها غير عند خالتك؟ راجل خالتك راكْ عارفو.

- الله يصوّب!

- آمين، إيوا فوقاش غادي يصوّب ينشاء الله؟

- علاين، خصّ غير داك الولد اللّي معاي فالمصريّة يخرج.

كانت أجوبة الهادي صمّاء غير مقنعة أو مؤكدة.

تركته يجيب أبي أجوبته المختصرة العبوسة، وانتبهت لحديث النصرانيين علّني أسمع منهما شيئا جديدا أفهم به لغتهم.

سلّمنا على الهادي وأبي يقول:

- خصّاك شي حاجة، تبغي شي فلوس.

- لا المعلّم، لا المعلّم.

عرفت أن الهادي لم يفد شيئا من ذهابه إلى الدّار البيضاء، وعرفت أنه في أمسّ الحاجة، لماذا لم يأت بأمّه إلى الدّار البيضاء؟ لماذا تركها لخالته؟ إنّه يخجل من أن يشكو حاجته إلى أبي، لأنه هو الذي ترك الدّكان، لم يبعده أحد عن الحانوت.

- إيوا الله يهنّيك، ايْلا حتاجيتي شي حاجة سير عند (السّي المعطي)، راه هْضْرْتْلُو عليك، الله يعاون.

تركنا الهادي والنّصرانيين، وذهبنا إلى دار (السعداني).

- وأين توجد؟

- في درب السلطان.

- سنسير على أرجلنا؟

- لا سنسير على رؤوسنا.

لم يكن العياء قد أصابني، ولكنّني فهمت من جواب أبي أنّ المسافة بعيدة بين (درب عمر) و(درب السلطان). وسألت:

- هل يسكن فيه السلطان؟

- كان يسكن فيه ...

عرفت أنّ التاريخ الذي يحفظه أبي تاريخ لا يمكن أن ينسى. هو تاريخ محفور في الأسوار والقباب والطرقات، فكيف لا يكون محفورا في الذاكرة.

كانت الشوارع التي نقطعها متشابهة، لم تكن دروبا ضيّقة كما هو الأمر بالنسبة لدرب مينة أو درب كناوة. السيارات تمرّ في كل الطرقات، والمقاهي موجودة في كل مكان، والناس كثيرون ومتفرّقون، دروبهم أكبر منهم، فأنت لا تحسّ بهم، هم موجودن وغير موجودين، يزدحمون أحيانا، وتلتهمهم الشوارع أحيانا أخرى، يضيعون فيها فتعرف أنّك في الدار البيضاء. العجلات أكثر من الناس، لا أحد يعرف أحدا، كلّ منهم يسير إلى شيء بعيد ربّما لن يصل إليه، أنت نفسك لا تعرف هذا الشيء الذي تسير إليه مع أبيك، شارع يقذفك إلى شارع، شيء لا يهمّ، المهمّ أن تعرف درب السلطان، وأن تصل إلى دار السعداني، هذا الرجل الذي لم يسبق لك أن سمعت به، لابدّ أنّه كـ (السّي المعطي)، ولكن لماذا لم يقل أبوك (السّي السعداني)، وسألت:

- هل وصلنا إلى درب السلطان؟

- من مدّة بعيدة ...

- وأين نحن الآن؟

- في درب السلطان ...

- وأين هو الدّرب؟

- هو هذا ...

كنّا في شوارع متقاطعة ضخمة، تزدحم بالناس في كل جانب، أسواق، سينما، حوانيت يركب بعضها بعضا، الأوتوبيس، أوتوبيس آخر بعمودين موصولين من فوق بأسلاك الكهرباء، ما هذا؟ تراموای، وما الترامواي؟ أوتوبيس بالضوء... أناس يبيعون سلعهم في الأرض، آخرون في العربات، يقفون بالسلع في أيديهم، درّاجات، درّاجات نارية، سينما الكواكب، قيسارية الحفاري، حافلات السّفر: الغزاوي، آيت امزال، على جناح السلامة، (طايب وهاري)، امرأة تبيع الحنّاء في الأرض، أطفال يطلبون الصّدقة، بطاطس صغيرة مسلوقة، كلّ هذا في هذا الدّرب؟ أين حيطانه؟ ماهي حدوده؟ بابه؟ لا، هذا لا يمكن أن يكون دربا، هذه مدينة مثقوبة ملتوية، وأين دار السعداني؟

- قريبة ...

عرفت أنّها ما تزال بعيدة، ولكنّ أبي يريد أن يطمئنني. دار بعيدة جدا داخل درب بعيد؟ لابدّ أنّ السّعداني هذا رجل مهمّ، ربّما يكون هو صاحب الدّكان الذي

يريده أبي؟ لماذا يتجشّم هذا العبء إذن؟ أعجبني في درب السلطان صخبه وحركته المتراكبة، قلت إنّ درب السلطان هو الدار البيضاء، عليّ أن أسير إذن، بقيت دار السعداني، سنصل إليها، لابدّ أن نصل.

دخلنا إلى بعض الدّروب الملتوية، بدأت الأزقّة تضيق، عرّجنا إلى اليسار قليلا، كان رقم الدار 65، عتبتها كبيرة ضخمة مطلية بالجير أو بشيء يشبهه، الباب الخشبيّ لا لون له، فيه مسامير سوداء مستديرة، لا خرصة له. اتكأ أبي في عياء على الجرس الكهربائي، لاحظت تناقضا غريبا بين الباب وبين الجرس، وجلست في العتبة.

ماذا يريد أبي في هذه الدار الموحشة؟ هل كان يأتي إليها كلما ذهب إلى الدار البيضاء؟ كيف عرف طريقها التائهة؟ وماذا يفعل هذا السعداني داخل الدّار؟

فتحت لنا الباب فتاة نصف عارية، انحنى أبي برأسه إلى الأرض وهو يقول:

- أبوك موجود؟

- خرج، سيأتي بعد قليل.

فاحت من الدّار رائحة حرارة مفرطة؛ قمت من العتبة أتهيأ للانصراف، كأني كرهت السعداني قبل أن أراه، نظرت إلى الفتاة، وجدتها شقراء وقحة، كانت تناهز السابعة عشرة من عمرها، ترتدي فستانا أصفر شفّافا يعلو ركبتيها، ويظهر من تحته ثَدْيَةٌ يغلب عليها السواد، نظرت إليّ في احتقار، شعرت ببعض التّحدي، ولّيتها ظهَري أريد أن نترك هذه الدّار التي لا أعرفها. قال لها أبي:

- سنرجع.

أغلقت الباب، تمنيت أن نرجع عند (السي المعطي)، أو عند (الهادي)، أو إلى أيّ مكان آخر إلاّ دار السعداني.

وقف أبي يفكّر قليلا، خرجنا من الدرب الضيّق إلى الشارع الكبير، دخلنا إلى قيسارية الحفّاري، اشترى أبي لثامين من دكّان صغير، مدّهما إليّ وقد لفّهما البائع في صحيفة فرنسية، فهمت أنّه قد تذكّر أمّي فأراد أن يحمل إليها هديّة من الدّار البيضاء. مرّ بدكّان آخر، سلّم على شخص في حوالي الستّين من عمره، سأله عن أبنائه، وانصرفنا. عرفت أنّنا سنعود إلى دار السعداني لأننا ما نزال قريبين منها. ظهر عليّ عياء واضح، انتبه أبي قائلا:

- سنتغذّى ونرتاح قليلا.

سألته:

- وصاحبك؟

- بعد الغذاء، بعد الغذاء.

قصدنا مطعما صغيرا يسمّيه أبي: مطعم (السبليونية). حين أخذنا مقاعدنا لم

كنت متيقنا من أنّ السعداني لا يعرف الخير وأبناءه، وأبي حين يحدّثه بهذه الطريقة إنّما يريد أن يحلّ معه مشكلا معيّنا.

- آسيدي، قلت لك راني صلحت الدّار، خسرت عليها الفلوس، إيوا نطيّح يدّي فالتراب. السيدة الأخرى أدّات، عطيناها المحلّ، ديالكوم ما بغاتشاي؟
- آودّي، راه معندها ما تعطي، نعل الشيطان!
- آراجلها موظّف فالبوسطة؟
- راه كلس آسيدي، العين الثانية تّاهي عمات!
- الله ... الله ... لاحول ولا قوة إلاّ بالله، إيه، إيوا فين لاسورانس.
- مازال ما عْطاوه وَالُو.
- إيوا آسيدي حتّى يعطيوه، احنا ما مْزروبينشاي.
- ولكن هاد الشي طال أمْرو، السيدة راه ساكنة غير فبيت واحْد؟
- تبارْكْ الله ... راه فيهْ الخير والبركة هاداك البيت، وهي غير بوحدْها، ما عندها وْلاَدْ.
- لا هي والرّاجْل.
- آسيدي الرّاجل يخلّص، واش هي ماش تسكّنو فالسفلي كلُّه.
- كايتعاونو آسّي السّعداني، قبل ما تجوجّ راه سكّنتها معايا، أنا راها غير نسيبتي ... ما غاديشي نخدم عليها هي والرّاجل؟

- آسيدي، حتى أنا ما عندي شاي، والله غير يلا شفتي بعينيك، عَزيزة، عَزيزة! جاءت ابنته، هذه هي البنت التي ولدت له في قصبة (بوجلود). المرأة التي تزوّجها ليسيطر على (دار الكاز) لم تكن تلد. ولكنّه لم يفرّط في أي واحدة منهما، انتقل بهما معا إلى درب السلطان!.

جاءت عزيزة في لباسها الذي كانت فيه حين كنت جالسا في العتبة.

- ماذا تريد؟
- آرا داك الربيعة ديالي؟

عرفتُ السعداني، لعنه الله. جدّتي تسمّيه السعيدي. أبي يوافقها على ذلك ويقول: إنّه حوّل اسمه الى السعداني حين جاء من وجدة الى فاس، وهو ليس من أبناء وجدة. بل من مدينة أخرى لايعرفها أهل وجدة. سكن في قصبة (بوجلود)، وعاشر النصارى. تزوّج امرأة من أهل جدّتي. وحين عرف أنّ لهم دارا موقوفة في (زقاق الحجر)، أوحى الى زوجته بأن تضغط على أهلها، وتدّعي أنها لاتستطيع السكن في القصبة وأنّ

أجد أيّ امرأة إسبانية، قلت له:
- أين (السبليونية)؟
- مـاتت، وهذا الذي تراه أمـامك، في ذلك الركن، قـرب صندوق الدراهم زوجها. هو يشبه الإسبان ولكنه مغربي.
- ولماذا لم يسمّ المكان باسمه؟
لم يستطع أن يجيبني على سؤالي، سكتَ قليلا، ثم دعاني إلى الأكل. أكلنا بعض السمك، شربنا زجاجتين صغيرتين من (أطلس ليمون)، ارتحنا قليلا، وذهبنا إلى الدّار التي كرهتها.
كان السعداني رجلا نحيلا، يكاد الدّم ينبثق من وجنتيه، يرتدي نظّارتين سميكتين جدّا، لا تكاد ترى من زجاجهما الأبيض المتّسخ سوى بؤرة عينيه. يبدو أنه مريض وعصبيّ من أوّل وهلة، يضحك نصف ضحكة مصطنعة، كأن ضحكته من المطّاط أو البلاستيك، سريعة ومتقلّصة.
سلّم على أبي، لم يبال بوجودي. اجتزنا العتبة، شعرت بضيق كبير. الدّار واسعة بعض الشيء، ساحتها من الزّليج الرّومي المتقادم، وتحيط بها ثلاث غرف من كلّ جانب، أبواب الغرف مطلية باللون البني-الأحمر، بعض الغسيل في حبلين يقطعان الساحة إلى نصفين، وفي الجهة الملاصقة للباب من داخل الدّار ممرّ لابدّ أن يكون فيه المطبخ والمرحاض، لا أدري من بنى هذه الدار بهذا الشكل.
كان السعداني وحده في الدار، أين هي ابنته؟ ربّما تكون قد خرجت؟ أو إنها في إحدى الغرفتين اللتين لم أرهما؟
- كيف الحال آسّي السعداني؟
- الأيام كلّها واحدة... بحال البارح بحال اليوم...
- ما زالت الدّنيا واقفة؟ ماجابشاي اللّه فْكازا.
أوّل مرّة أسمع من أبي كلمة: كازا. لعلّ السعداني هو الذي يسمّيها هكذا.
- لا، لا مْنْ هَادْ النّاحية بخير، كيف حال فاس؟
- الحمد للّه، نحمده، نحَمده.
- إيوا ... كاينشي ما نْقضيوْ.
- إيوا غير القضية اللّي على بالك.
- إيه، إيوا مشكلة هاديك ...
- إيوا سهّل، تسهال.
- قلنا ليك، تعطينا شي بَركة، ونتهنّاوْ جْميع.
- اللّه يهديك آسّي السعداني، راك عارف كلّ شي، السّيدة راها مْرا كبيرة، وراجلها غير قاضي حاجة، وانت راك ولد الخير.

- الحديدية أو الخشبية؟

- ديال الحديد...

جاءت بصندوق مقفول. مدّ السعيدي يده إلى جيب سرواله، أخرج حزمة مفاتيح. كان يرتدي قميصا أخضر مخيطا خياطة عصرية، وسروالا تقليديا واسعا نسمّيه (قندريسة).

- آسّي السعداني الله يهديك، ما عندنا لاش هاد الشي.

- لا سيدي والله غير يلا شفتي.

- إيوا شمّاش تقولي، عاود ليطاري.

- لا شوف، ها انتا.

قام من مكانه وقد أخذ من الصندوق الصغير بعض الأوراق المتشابهة وهو يقول:

- اقرا، هانتا، شفتي، والله ها سيدي يلا الملاين!

لم يكن أبي يعرف الفرنسية، ولذلك أحسست ببعض الغشّ. نظرت إلى ابنة السعيدي، وجدتها منشغلة بقراءة أوراق أخرى أخذتها من الصندوق نفسه. كان فخذاها عاريين تماما. تحوّلتُ عنها إلى النظر في الأرض.

-شوف آسّي السعداني: احنا هادشّي دابا عرفناه، ولكن بغينا الحلّ.

- إيوا آسيدي من عندك، شقولتي لي.

طوى السعيدي أوراقه. مدّها في حركة سريعة إلى عزيزة وقال:

زوجها فقير معدم. فدخل السعداني الى الدار المحبّسة على البنات، وسكن في الفوقي. ثمّ أذاق المرأة التي تسكن في السفلي الأمرّين كي يسيطر على الدّار بعد ذلك، ويحولّها إلى (دار الكاز). يقطن في قصبة (بوجلود)، وتسكن زوجته في الفوقي الموقوف، ويخزن غاز الحريق ويبيعه في السفلي.

لم يكن جدّي قد مات بعد، ولذلك فإنّ جدّتي لم تكن في حاجة إلى دار أهلها. وكنّا في فاس قد بدأنا نطبخ الطعام على ماكينات غازية أخذنا نستعملها بدلا من الفحم. كما أنّ الفقراء منّا، ممّن لم يستطع أن يدخل العدّاد الكهربائي الى منزله، أخذوا في استعمال مصابيح غازية يضيئون بها بيوتهم. ولذلك فإنّ حاجتنا الى الغاز وإلى السعيدي قد اشتدت. حاول أهل جدتي إخراجه من حبسهم، ولكنّهم لم يفلحوا في ذلك. فهو صاحب النصارى، والغاز يأتي من جهتهم ولذلك فإنّه لاحيلة معه.

كلّما رأت جدّتي البيت المغلق في السفلي الذي تسكن الآن في بيت واحد منه قالت: لماذا لم تنفجر في السعيديْ قنبلة الرصيف؟ فأنظر اليها في عطف وأقول معها: كان بإمكان قنبلة أخرى أن تنفجر فيه؛ ولكنّ حظنا أخطأه.

باع السعيدي الغاز، وذهب إلى (كازا) ليبيع شيئا آخر، وسيطر على الدار التي ليست له فأغلقها.

- إيوا شنو، نديرو ميات آلف؟
ابتسم أبي:
- عْرفتي، نشوف (للآراضية) هي تفكّ هادْ الجرّة.
أجابته عزيزة:
- ليس هناك مايجمعنا بهذه المرأة، هي الآن تعيش مع أخيها.
فهم السعداني أن أبي يذكره بأن الدار من حقّ (راضية) زوجته، فأجابه وقد انتفخت أوداجه وصعد الدّم الى نظارتيه:
- هاديك ليَّام مشات، دابا احْنا ولاد اليوم.
قام أبي من مكانه، أخذني من يدي وهو يقول:
- ما بغيتي دير شاي آسّي السعداني، خلّيناك بْخير. وخرجنا.

أرادت (نَفْتاحة) التي تسكن مع جدّتي في الفوقي أن تقطن دار أهلها فلم تستطع. ترك لها زوجها بعض الميراث، وكان لها ابن يشتغل في (المشّاطين) فجمعت بعض المال، وذهبت الى الدّار البيضاء واشترت من السعيدي الحقّ في أن تسكن في منزل أسرتها.
وجدّتي نفسها اشترت منه غرفة واحدة وتحاول الآن أن تشتري منه الغرفة الثانية التي مايزال يحتفظ فيها ببعض سقطه من أدوات الغاز.

قضينا الليل في فندق (لينكُلن) الذي يسمّيه أبي (أوطيل سليكان) والذي قرأت اللوحة الصغيرة المعلقة في بابه: (فندق لنكُنْ)، ثمّ صحّحتها بالفرنسية: Lincoln.
كان هذا الفندق موجودا في مفترَق الطّرق بدرب عمر، وكان أكثر زبنائه من الأفارقة، فلا أدري لحد الساعة السبب الذي كان يذهب بأبي الى فندق اسمه غريب وزبناؤه أفارقة.
صلّى الظّهر والعصر والمغرب في أوطيل (لينكُلن)، ونزلنا لنشتري طعاما ونتفسح قليلا، ثمّ صلّى العشاء ونمنا.

في الصباح، رجعنا الى (سيدي بليوط) فصلّى أبي الفجر، وحدّثني عن أنّ هذا السيد كان يركب البحر فوق السجاد والموج ويصلي، فيهدأ الموج ويستسلم له.
وفي القطار تصورّت في مخيلتي الصغيرة أنّ (سيدي بليوط) رجل بلحية بيضاء وجبهة عريضة فيها أمارة السجود مستديرة سمراء كقبلة الملائكة. ثمّ تصوّرت أن

الدّار البيضاء ليست مدينة واحدة كما كنت أسمع، وإنّما هي مدينة منقسمة الى قسمين: واحد فيه (السّي المعطي)، والآخر فيه (السعيدي)؛ وحين تذكرّت الهادي، ودرب عمر، وطرق درب السلطان، وفندق لينكلن، تصورّتها مدنا متعدّدة متقاطعة ومتنافرة. وسألت أبي:

- هل سيرجع لجدّتي بيتها فأجابني:

- ربّما ...

الفوقي والسفلي والمحبّة

رجعت إلى فاس، فوجدت (السي التهامي) قدمات! رأينا نعشا وسط الدرب، وسمعنا قراءة القرآن في دار عبد اللطيف، فسألت أخاه الذي كان واقفا إلى جانب النعش:

- من الذي مات؟

- المعلّم!

- ومن قتله؟ ثمّ انتبهت إلى أنّه كان مريضا بالسلّ. كأني بعد عودتي من الدّار البيضاء، وبعد ما عرفت أنّ صهر (بريكة) قد قتل غدرا في هذه المدينة المتقاطعة، أحسست بأنّ بعضنا أخذ يقتل بعضنا، وأنّ (مول الحمّام) نفسه لم يسلم من هذه اللعبة الحاقدة.

أجابني أحمد:

- قتله المرض، ألا تعرف أن السلّ يقتل؟

خجلت من سؤالي الأبله، وتذكّرت بعض الملصقات التي كانت تعلّق في أماكن كثيرة من مدينتنا: [الكيف سمّ قاتل]، [حاربوا السّل. إنّه عدوّكم]. دخل أبي ليعزّي الناس. بحثت عن عبد اللطيف، لم أجده، فذهبت إلى المنزل أحمل الحقيبة الثقيلة التي سَافَرْنَا بها.

وجدت جدّتي جالسة إلى أمّي، قطعت حديثهما، سلّمت، ثم لم أتمالك نفسي قائلا لهما:

- في هذه الحقيبة هدية الدار البيضاء، وفتحت حزمة الصحيفة الفرنسية، لأعطي واحدا من المنديلين اللذين اشتريناهما من قيسارية الحفّاري إلى جدتي والثاني إلى أمّي.

دعت لي جدّتي بالرضى، وكان اسم الجريدة: Le petit marocain.

- هل ذهب أبوك عند السعيدي؟
- اسمه السعداني؟
- المهمّ هل رآه أبوك؟
- نعم، ولكنه لا يريد أن يسلّمك البيت.
- أعرف ذلك.
ونطق زوجها الضرير:
- كم يريد هذه المرّة؟
- ميات آلف!
- بيت واحد؟ هذا مسخوط، وماذا قال له أبوك؟
تذكّرت أمّي أنّي جئت وحدي فقالت:
- أين تركت والدك؟
- في دار عبد اللطيف، سيأتي بعد قليل، وسمعتُ خطواته في الأدراج. سلّم، وجلس يخاطب جدّتي:
- هاداك السعداني ما يدير مْعاك حتى طْريق.
أجابه زوجها:
- هل حدّدت معه الثمن؟
- ماذا سأحدّد، طلب ميات آلف ريال، عندك آسيدي هادْ الثمن؟
- يجيب الله، ولكن هادْ الشي بزّاف؟
- إيوا شحال غاد تعطيوه؟
فكّر زوج جدّتي مليا ثم نطق:
- أربعين، أو خمسين.
نظر إليه أبي:
- ماذا؟ خمسين؟ شنو؟ لاصورانس؟
أجابته أمّي:
- قد أرسلوا لهم قرار اللجنة.
ردّ عليها:
- انحلّ المشكل إذن، حين أذهب إليه في المرّة المقبلة سأطرح معه القضيّة.
سكت الجميع. فكّرت في أنّ الإنسان عندنا قد بدأ يشتري منزل أهله بنور عينيه.
قمت لأنام قليلا، ساعات القطار طويلة مرهقة.

□ □ □

مرّت جنازة (السّي التهامي) في سرعة خرجنا بها عن بعض عاداتنا القديمة. الجنازة عندنا تستمرّ سبعة أيّام بالنسبة للرجال، وأربعين يوما بالنسبة للنساء، وجنازة (السّي التهامي) لم تستمرّ أكثر من يوم واحد. دفنوه ورجعوا عند زوجته يسألونها عن الإرث.

يحكي عبد اللطيف أنّ ابن عمّ له جاء من مرّاكش وادّعى أن (السّي التهامي) يملك الفوقي والسفلي، كما يملك حانوتا آخر غير الحانوت الذي يصنع فيه الأواني ويبيعها. بحثوا في الأمر فوجدوه صادقا وكاذبا. وذلك لأن أبا عبد اللطيف حين سمع مسألة الفوقي، غضب غضبا شديدا وأحضر وثيقة العدول فقرأها الناس وأثبتوا ملكيته. أما الحانوت فقد كانت حقّا في ملك (السّي التهامي). ولكنّ المشكل - ويضحك عبد اللطيف- هو أنّ الرّجل الذي جاء من مراكش ليس ابن عمّ (السي التهامي) بالفعل، وإنّما هو ابن عمّه - بالمعنى الذي كان متداولا لدينا، أي ابن عمّه في القبيلة. (السّي التهامي الدّرقاوي)، و(السّي علاّل الدّرقاوي). فلاحقّ له في الميراث إذن. بقيت مشكلة أخرى بالنسبة لهذا الرجل المسكين، وهي أنّه كان صديقا لابن عمّه (السّي التهامي)، وكان يشتري منه السّلعة- كما شهد بذلك أحمد أخو عبد اللطيف - ويبيعها في مرّاكش، فيقول: إنه في آخر مرة رآه فيها، تسوّق منه عشر صينيات كبيرة من المعدن، وتسع عشرة صينية من النحاس الأصفر، وأربعين برّادا من نوع (الدبّانة)، ثم مائة من قوائم الصينيات، نحاسية مطلية بالمعدن.

كان كلامه من هذه الجهة مضبوطا لاغبار عليه. ولكنه يقول: إنّه قد ترك مايفوق نصف سلعته في الحانوت الثانية التي يملكها (السّي التهامي)، وقد وضعاها في أربعة أكياس من سكّر السبع، على أن يعود إليها صاحبها في المرّة المقبلة.

هنا نطق أحمد:

- وهل أدّيت ثمن السلعة كلّها؟

اضطرب الرجل وقال: نعم!

سأله الناس:

- وهل لديك حجّة؟

اضطرب الرّجل وقال: لا!

قالوا له:

هل تؤدّي اليمين في (مولاي ادريس)؟

اضطرب وقال: أؤدّيها!

ذهب معه بعض الشهود الى المولى إدريس فحضروا يمينه ورجعوا الى دار عبد اللطيف يبحثون عن مفتاح الحانوت.

سألوا أحمد، فأجابهم بأنّ (السّي التهامي) لم يكن يسلّمه هذا المفتاح. وحين سألوا خديجة أعطتهم ثلاثة مفاتيح. واحد منها للدّكان الأصلي، يحتفظ أبو عبد اللطيف بواحد يشبهه. والمفتاحان الآخران ربّما يكونان للدّكان الثاني.

ذهب (السي علاّل الدّرقاوي) وأحمد ورجلان آخران للدّكان، فتحوه، بحثوا عن أكياس السكّر، لم يجدوا سوى واحد منها فيه قوائم الصينيات. صاح الرّجل بأنّ (السّي التهامي) قد خانه وسرق سلعته. لم يصدّقه الناس فانصرف لحال سبيله يسبّ العمومة ومن جاء بها!

وكان ل (السّي) التهامي ابنة خالته، وهذه امرأة مسنّة تعرفها خديجة وتعرفها أمّ عبد اللطيف، بل تعرفها (الجّامعية) أيضا، وإن كانت امرأة تقطن في مكناس. يعرف الناس أنّها ابنة خالته حقّا لأنّه كان يذهب اليها في موسم (الهادي بن عيسى)، وتأتي اليه في موسم (مولاي ادريس).

سألت المرأة عن المال الذي تركه ابن خالتها، تلكأت خديجة قليلا ثم أخبرتها بأنّ (السّي التهامي) كان يضع عند رأسه صندوقا كبيرا من الخشب، لم تقو على النظر فيه قبل المرض ولابعده، ربما يكون مفتاح قفله هو هذا. وأخرجت من تحت ثديها المفتاح فنظروا في الصندوق ووجدوا فيه أوراقا نقدية كثيرة وسبعة أسورة ذهبية.

كان الكلّ يعلم أنّ الوارث غير موجود، ولذلك فإنّ ل (بوموارث) بعض الحقّ في ماتركه (السّي التهامي). ولكنّ هذه القضية لم تشغلهم كثيرا، فقسموا الإرث بين المرأتين: المال مناصفة، والدماليج والدّكان الصغير لابنة الخالة، أمّا الدكان الكبير فقد ورثته خديجة.

قلت لعبد اللطيف بعد أن حكى لي عن الموت وعن الجنازة والإرث:

- الآن أخوك هو المعلّم؟

- قال لأبي إنّه سيتزوجها.

- يتزوجها، مَنْ خديجة؟

- خديجة!

- وأبوك، هل وافقه؟

- لا، اعترض بشدّة.

- وماذا سيفعل أحمد؟

- سيتزوّجها. الحانوت، والمال، والدّار، والحبّ... لماذا لايتزوجها؟وضحك.

لم تكن بينه وبين أخيه أيّ عاطفة قويّة تجمعهما. فهو يكبره بستّ سنوات أو سبع، لم يحصل على الشهادة الابتدائية فانقطع عن الدّراسة، يغار منه لأنّه التحق بالثانوي، ثمّ إنّه يجد فيه ذكاء وصلابة لايجدهما في نفسه. أمّا عبد اللطيف فإنّه

لايهتم به، يراه في طريقه من الحانوت الى الدار فيستهين به ويقول: إنّه يتعلّم الصنعة. ولكنّه حين رآه يضم خديجة و(السّي التهامي) مايزال على قيد الحياة بدأ يحتقره ويعتبره خائنا. ومن هنا أخذت العداوة تنشأ بينهما الى الحدّ الذي قد لايشتركان فيه الحديث لأكثر من عشرين يوماً أو شهر!

□ □ □

أقبل عيد المولد، وأسرجت المصابيح في الأضرحة والمساجد. من المساجد ماينير في خفوت جميل فترى لونه يشعّ في هدوء يعكس ظلالا متناسقة ترقص داخل الجوامع... وهذه هي مصابيحنا التي ورثناها، نشعلها من الزيت الذي ناكله ونستعمله استعمالات شتّى... مرّة سبحت في مسبح نظيف فأصبت بألم حادّ في أذني لم أستطع معه أن أنام الليل. أخذت أمّي قشرة بصل ووضعت فيها قطرة زيت، ثمّ وضعت القشرة فوق المجمر لبعض الوقت. أخذَتْ بعد ذلك قطعة صوف من مخدتّي، غمستْها في الزيت وسقَتْ أذني فذهب الألم. وأصيبت أختي بسعال حادّ نسمّيه لفّة البرد، فحمت أمّي الزيت فوق الفحم ودون بصل هذه المرّة. ثمّ دهنت صدر أختي ولفّته بمنديل دافىء من القطن الذي كان ينسج عندنا، وذهب السّعال!

ومن المصابيح مايسرج بالكهرباء فيشعّ قويّا مزعجا وينطفىء بسرعة! وهذه لا علاقة لنا بها، وإنّما جاءتنا كما جاءنا غاز السعداني، ، فلعلّها سترثنا وترث الأرض ومن عليها.

المولد في جوامعنا طقوس وتقاليد وعبادة. يخرج فيه نصف الزكاة - إذا أردنا- ونصفها الآخر في عاشوراء؛ طعامنا في الصباح لابدّ أن يكون من عسل النّحل، أقصد نحل ذلك الزمن الذي كان يرقص بين الأقحوان والشّيح والخزامى؛ وغذاؤنا دجاج شبيه بديكة (السّي المعطي) في باب مرّاكش ودرب كناوة؛ وفي الليل نعبد الله في ضوء المصابيح التي بدأت تختلط.

كنت أفضّل في المولى إدريس الجهة التي تسرج مصابيحها بالزيت. وعلى كلّ حال كانت هذه الجهة هي التي نتسلّق فيها العمود، ونتسابق مع (بوسويطة).

بدأ الناس في ذكر الله وقراءة البردة حين انتهوا من صلاة المغرب. كنت أشعر في كلّ مولد بأنّ حيطان الضريح وأساطينه تردّد معهم أذكارهم، كنت أقول في نفسي: إنّ نافورة الماء تتلو معهم السّوَر التي يقرأونها آية آية. كانت دفقة الماء شبيهة بحركات أجسادهم، تصعد إلى السماء قليلا ثمّ تتكسّر في صفحة الخصّة، فيكون لها إيقاع شبيه بإيقاع قراءتهم وهم يتمايلون معها فتنبض قلوبهم بما تتلوه ألسنتهم. ولأمر ما

كانوا لايرفعون رؤوسهم، ربّما كسّرت المصابيح الكهربائية عيونهم فانحنوا الى الأرض. نحن في الكتّاب لم نكن ننحني حين نقرأ، ننظر الى الفقيه الذي لابدّ من أن يجلس جهة القبلة ونصيح ملء حناجرنا بما شاء لنا الحفظ والصياح!

كان ضريح المولى ادريس كعادته في كلّ مولد هادراً بالقرآن وبالأطفال. هي فرصة يرى فيها الناس المدينة مشتعلة، تنير مآذنها وقببُها كلَّ الطرق. ولذلك يرتدي الآباء أجمل حللهم البيضاء، ويصحبون معهم أبناءهم الى كلّ مسجد. أكاد أجزم أنّ مدينتنا مسجد كبير. فيها وفي مكان واحد: المولى إدريس، وجامع القرويين، ثم (سيدي فرج). لا تكاد تخرج من ضريح حتّى تجد ضريحا آخر قد بني إلى جانبه واستند إليه. أحمد التيجاني ومسجد رحبة القيس ومدرسة العطّارين في درب واحد من دروبنا، وحين تجاوز مدرسة العطّارين إلى اليسار تجد القرويين، أو قد تسير مستقيما ثم تعرّج إلى اليمين قليلا فتجد المولى إدريس الذي إذا خرجت من أيّ باب منه وجدت (سيدي فرج). ما أروع تقاطع مدينتنا، وما أروع ليلة مولدها. حتّى المصابيح الكهربائية انسجمت داخلها مع سراج الزيت. لقد انحنى آباؤنا برؤوسهم لأنّهم لم يبالوا بها، كان بإمكانهم أن يستغنوا عنها أو يكسّروها إن أرادوا ذلك، ولكنّهم فضلوا أن تنير جزءا من مساجدهم فغضّوا عنها الطّرف واستغرقتهم قراءاتهم في المولد وفي غير المولد.

وعند أذان العشاء أنهوا البردة وأقاموا الصلاة. تراهم مصطفّين، يركعون ويسجدون جماعة واحدة فتعرف أنّ عبادتهم تصعد نحو السماء؛ لم يكن بينها وبينهم حاجز، كأنّها كانت جزءا منهم. يصلّون ويجلسون، ثم يرفعون أكفّهم بالدعاء فتقول إنّ كلّ واحد منهم يدعو لغيره أكثر ممّا يدعو لنفسه.

وعند انتهاء الصّلاة، التفتّ نحو أبي بنصف عيني، وقمت أبحث عن عبد اللطيف. رأيته في الطريق إلى (باب الوفى)، ناديته، انتظرني، سلّمت عليه أقول:

- الآن انتهى زمن اللعب.
- سأذهب إلى منزل عمّي.
- ماذا ستفعل هناك؟
- سأتفرّج في (عيساوة).

كنت قد حضرت معه بعض لياليهم عند عمّه في (رحبة التّبن)، ولم أكن أجد بيني وبينهم أيّ خيط رابط. كانوا بالنسبة إلي أناسا مزعجين. خاطبته:

- لماذا لا تذهب معي عند (بريكة)؟
- ماذا سأفعل عندها؟
- ترى ياسمين؟

- دعني من خرافتك ...
- ستراها وترى خرافتي؟
تلكأ قليلا لأنه لم يكن يصدّق حكايتها. قلت له: إنّني أحبّها فسمّاني: قيسا. حدّثته عن الشيء الذي رأيته في حديقتها فأطلق عليّ: المجنون. كان ذلك منه مزاحا وسخرية بريئة، لأنّنا كنّا قد شاهدنا معا شريط: قيس وليلى.
رأى في عينيّ رغبة أكيدة في أن نذهب معا إلى دار (بريكة) فذهبنا. في هذه المرّة وجدنا حسناء. اندهش عبد اللطيف لعينيها الخضراوين وبشرتها العسلية. سألني عنها فأجبته بأنها أمّ ياسمين. وسألني عن خرسها فقلت له: هذه قصة أخرى.
خاطبتها في خرسها:
- أين (بريكة)؟ هل توجد ياسمين؟
أشارت برأسها تدعونا إلى الدّخول للغرفة اليمنى فاقشعرّ بدن عبد اللطيف حين رأى ياسمين.
كانت في لباس وردي كلون الخمر. لم يكن عبد اللطيف يصدّق أنها جميلة بالقدر الذي أصفُها به. أقول له: إنّها تسحر بعيونها النائمة وشعرها الأسمر، أحدّثه بأنّ ابتسامتها جزء من القمر، أصف نهديها وصفحة بطنها، فيسخر منّي ويدعوني إلى أن أنساها لأنّها خرافة لا تصدق!
وحين رآها عبد اللطيف صاح دون أن يشعر:
- الله ... أنت أجمل فتاة في الدّنيا. قد رأيتُ امرأة في حلمي هي أنت ... أنت الحلم ... والمرأة التي رأيت ليست امرأة ...
ابتسمت ياسمين، ضحكت أمّها الخرساء، وسألتني (بريكة) عن رحلة الدّار البيضاء فقلت لها: بخير، بخير، وكأنّي لا أريد أن تسمعني ياسمين. سألتها عن صحّتها المتدهورة، أجابتني في تألّم: بخير، الحمد لله، كما ترى من سيّء إلى أسوأ.
قامت ياسمين في لباسها الورديّ، تتبّعها عبد اللطيف بعينيه وهو يقول لي بصوت خافت:
- ليست كالنساء، فيها شيء ساحر: عيناها، شعرها، ابتسامتها، هل تحبّها فعلا؟
لم أجبه عن سؤاله، تيقّنت من أنها قد سيطرت على وهمه بأن المحبة لا توجد إلا في الأفلام وقصص العشق. عرفت أنّها ستحرّره من قيود متمكنة. جاءت ياسمين بكوبين من عصير الرّمان. أخذ عبد اللطيف واحدا منهما وهو ينظر إلى ياسمين، كأنه لم ير فتاة قبلها. تأكّدت من أنّه بدأ يعرف عالمها. تحوّل عنها للنظر في الحديقة، غابت

عيناه وسط بركتها الخزّية الرقراقة، سبح في حلمه، كانت ياسمين خدرا رائعا أصابه كما أصابني حين رأيتها أوّل مرة. نظر إلى الدّالية المرتفعة بين وسط الدّار وحلقتها. سأل (بريكة) عن زمن الدّالية، أجابته بأن والدها غرس النُقلة حين رحلوا من درب (عديّل) إلى درب (مينة)، فسقتْها بريكة من طفولتها وأغانيها. قلت لها: إذن عمرك هو عمر الدّالية!

تنهّدت قليلا وأجابتني:

- سأذهب وتبقى الدّالية.

شربتُ جرعة من كأس الرمّان، أحسستُ بها في قدميّ. تلاشيتُ بين عيني ياسمين، وفي ثنايا ثيابها الوردي قائلا:

- كيف تحضّرين عصير الرّمان؟

- أجابتني :

- أعصر الرّمان!

- لم أذق طعما للسكّر كهذا الطعم؟

- لا يوجد فيه سكّر!

- وماذا يوجد فيه ؟

- الرمان والرّمان!

اندهشت لإجابتها البسيطة.

شرب عبد اللطيف كأسه في جرعة واحدة ثم صاح:

- اللّه، يا طعام الجنّة!

ضحكت (بريكة) وسألته:

- أنت ابن من يا ولدي؟

- أنا؟ أنا ابنك أنت يا سيدتي!

- لا، أسألك عن أبيك؟

- العيساوي، ألا تعرفينه؟

- ومن لا يعرف الحاج، قد مات جاركم؟

- نعم، مات.

- وزوجته، يقولون عنها إنّها ما تزال في بداية شبابها؟

- نعم ما تزال في بداية شبابها.

- هل ستتزوّج؟

- ستتزوّج أخي؟

- أخاك؟ ومن أخوك؟

- متعلّم (السي التهامي).
- إيه، فهمت.

نظر إليّ عبد اللطيف، كأنه يسألني هل فهمتُ (بريكة) فعلا مراد أحمد، أم أنها تقول ذلك على سبيل جريان الحديث بينهما. تجاهلت تساؤله، لأني لم أكن أنا نفسي أعرف السبب الذي يدفع أحمد إلى أن يتزوج خديجة. هل يريدها هي؟ أم يريد الدّكان كما يقول عبد اللطيف؟

□ □ □

نزعت خديجة لباس العدّة، وتزوجت أحمد. منذ ذلك اليوم انفصمت العلاقة بين الفوقي والسفلي في دار عبد اللطيف. أقسم أبوه ألاّ يطأ السفلي أو يكلّم ابنه. وأقسم بالثلاث أن ترضخ زوجته لإرادته. ثم وجد في نفس عبد اللطيف استعدادا لذلك. كيف يعقل أن يتزوّج ولد العيساوي أرملة مول الحمّام؟ سيصبح الحاج العيساوي مضغة الأفواه، سيلوكه الناس بألسنتهم، سيضحكون منه ويلعنون تربيته لابنه... ولذلك فإنه لم يجد مخرجا غير مقاطعة الذي أصبح عبد اللطيف يسمّيه المسخوط.

لم يُقَم أي عرس لهذا الزّواج الملعون. ذهب أحمد مع خديجة وخالها إلى مكان العدول بجانب القرويين، وأعطاها صداقا من مالها - كما يقول عبد اللطيف-، ثم رجع بها إلى البيت في صمت.

في تلك السنة نجحتُ، وفيها وجدوا أمّ الهادي ميّتة داخل القطار. اتّصل الهادي بالشرقاوي الذي كان أوّل واحد أدخل التلفون إلى (السبطريين)، وطلب منه أن يكلّمه أبي في معمل الدار البيضاء. لم يكن أبي مقتنعا بفكرة الهاتف، وذلك لأن مصاريفه تتجاوز المدخول، كما أنه لا ارتباط لأبي بصناعة الدار البيضاء وتجارتها أيّما ارتباط. هو يبيع الجلد البلدي أو الزّيواني كما نقول، والشرقاوي يبيع الجلد الرّومي الذي يصلح للأحذية وللبلغة الرومية.

ذهب إلى مركز البريد في (رحبة القيس) لأنّه لم يكن ليستعمل هاتف الشرقاوي أو هاتف غيره من التجار الذين ارتبطت مصالحهم بالدار البيضاء. لايرضى بذلك، لأنّ عليه أن يتّخذ لنفسه تلفونه الخاصّ من جهة، ولأن هؤلاء لن يأخذوا منه مقابلا من جهة ثانية.

ذهب إلى رحبة القيس، فسأله الهادي عن أمّه التي لم تصل إلى محطّة الدار البيضاء- الميناء ليلة البارحة. أجابه أبي بأنّها ركبت من فاس في الساعة الثالثة، وأنّ القطار يصل إلى الدّار البيضاء في الحادية عشرة ليلا، فلابدّ أنّها وصلت.

في العصر كلّم الهادي الشرقاوي كي يخبره بأنّ أمّه وجدت ميّتة في محطّة الدّار البيضاء-المسافرين.

ذهب أبي إلى حانوت الشرقاوي وكلّم الهادي. أبي يقول إنّ أمّ الهادي ركبت في القطار، قد صحبها إلى العربة وأجلسها في مكانها ثمّ نزل؛ لم يكن يظهر عليها أيّ تعب، ولم تكن مريضة أو متخاذلة، بل كانت فرحة لأنها ستسكن مع ابنها وستنتقل من فاس إلى مدينة واسعة يشتغل فيها ابنها مع النّصارى، فكيف تموت؟ والهادي يقول: إنّه حين لم تصل أمّه في الحادية عشرة ذهب إلى منزله، وهو يظنّ أن خطأ ما قد وقع. ولكنه حين كلّم أبي في الصباح وأخبره بأنها قد ركبت فعلا من فاس، سأل في محطة الميناء، فقالوا له إن امرأة وجدت البارحة ميّتة في محطة المسافرين. ذهب إلى هناك، وجد أمّه بحقيبتها في مكتب الرئيس ملفوفة في إزار أبيض متّسخ، ووجد الشرطة.

سألوه عن اسمها، وسألهم عن سبب موتها. عن اسمه وسكناه ومهنته ومقرّ عمله وسنّه وإبيه وإخوته. وسلّموه الجثة! الهادي يبكي وأبي يواسيه وينصحه بالصّبر وبأن يذهب إلى (السّي المعطي) كي يساعده في دفن أمّه.

وفي الغد ذهب أبي إلى الدّار البيضاء فوجدهم قد دفنوها مع صلاة المغرب أو قبلها بقليل، ومكث مع الهادي أربعة أيّام ثمّ رجع يدعو لـ (السّي المعطي) برحمة الوالدين وبالرزق والصحّة.

تذكّرت مريم، وتذكّرت السعداني وعزيزة، وأصبت بخيبة كبيرة في حظّ الهادي وقدره.

لعبـة المحبّـة

عندما التحقت بالثانوي ازدادت صداقتي لعبد اللطيف تجذّرا، ثمّ ازدادت محبّتي لياسمين، وبدأت كراهة أحمد تنتقل إليّ.

رأيته مرّة في قنطرة الرصيف فلم أسلّم عليه، ولقيته مع خديجة فحدست أنّ هدفه منها بدأ يتحقّق. رأيته يحبّها حبّا مختلطا فعرفت أنّه لم يتزوّجها هي. مرّة كنت في الصفّارين فوجدته يتحدّث في باب حانوته إلى فتاة جميلة في سنّ ياسمين أو تزيد قليلا؛ وتلاقينا في مدخل الدّرب الذي نسكنه: خديجة في فستان يظهر أنه غالي الثمن، وفي حذاء عال تروّض قدميها عليه، وهو قد أخذ بيدها وعانقها كأنه يتحدّى أباه. ثمّ صادفته في الحافلة مع امرأة أنيقة تكبره سنّا، فقلت: إنّه ياكل مال (السي التهامي). حدّثت عبد اللطيف بذلك فأجابني بأنّ (مول الحمّام) ترك بستانا كبيرا في (باب الخوخة)، وأنّ أحمد يفكّر في تقسيمه وبيعه لأصحاب البناء. عرفت أنّ الإرث لم يوزّع، وأنّ أحمد تزوّج النّحاس والمتر المربّع.

ولكنّني بعد مدّة رأيت خديجة حاملا، فقلت: ربّما تتغيّر الأشياء بهذا الحمل. ومررت بدكّان الصفّارين فوجدت بعض معالمه قد تبدّلت. وضع فيه أحمد واجهة زجاجية رتّب داخلها صينيات وبراريد مختلفة، وبمحاذاة الواجهة طاولة مربّعة وكرسيّ من خشب، وفوق الطاولة تلفون وكتاب عرفت من حجمه أنّه ككتاب الشرقاوي الخاصّ بأرقام الهاتف. قلت: إنّ الصينيات بدأت ترتبط بالجلد الرّومي وبالدّار البيضاء. وضعتْ خديجة حملها، فكانت تخرج به في مَهْدَة تتحرّك عجلاتها الصغيرة بصعوبة واعوجاج في أزقّتنا. أحيانا تكون وحدها، وأحيانًا تكون مع أحمد فتعرف أنّهما يؤكدان بأنّ (السي التهامي) لم يكن منجبا. الحقيقة أنّ مشهدهما كان مضحكا أكثر من مشهد (مول الحمّام). خديجة تتعثر في قدميها وتدفع ابنها منحنية بصدرها نحوه، قد تقدم رأسها قليلا إلى الأمام وتأخّر دبرها؛ العجلات تتخلّع وتميل

إلى هذه الجهة وهذه، فتعرج معها خطوات خديجة وتتكسّر؛ وأحمد بربطة عنق صفراء أو ملوّنة، وبذْلة سوداء أو زرقاء داكنة في الصّباح وبعد الظهر، يساعد زوجته مرّة ويبتعد عنها مرّات كأنه يخجل من ارتباطه بزوجة (مول الحمّام). كنت أتأكد كلّما لقيتهما على هذه الحال بأن مصير ابنهما متناقض ومتفكك كعربته الصغيرة وقدمي أمّه.

في حفل ولادته ذبحوا كبشهم وسكتوا، لم يستدعوا أيّ واحد للتسمية. كيف يحضر الناس والعيساوي ساخط على ابنه لا يكلّمه أو يقترب منه؟ الكلّ يؤيّد العيساوي في أنّ زواج أحمد زواج خاطئ، بل ليس زواجا كما يصرّ عبد اللطيف على ذلك.

كانت أمّ عبد اللطيف منشطرة بين زوجها وابنها، تشعر بخيبتها وترجو الله أن يعوّضها في ابنها الثاني ماضاع منها في أحمد. تقول له في كلّ حين:

– سيفدي الله فيك، ستُذهب عنّي الغبن الذي أصابني في أحمد.

يجيبها عبد اللطيف: إن شَاء الله؛ ويجتهد ثم يشجّعني على الاجتهاد. نزور (بريكة) فيتناسل داخله إعجاب كبير بماضيها، ويتألّم كثيرا لابنتها الخرساء، ويتيقّن في كلّ زيارة من محبّتي لياسمين فيغبطني لذلك، ويتمنّى لو كان قد أحبّها هو، ثمّ يتمنّى أن نكبر وأتزوّجها. أضحك لكلامه وبراءته، وأستغرب لكونه لم يحبّ بعد أيّ فتاة في مدينتنا. كان زمننا ما يزال زمن محبّة، فلماذا أُحبُّ ياسمين ولا يحبّ صديقي فتاة تشبهها؟ ربّما يكون غبن أمّه هو السبب الذي جعلَه يبتعد عن المحبّة وهو في أمسّ الحاجة إليها. كنّا مراهقين وكانت قلوبنا جزءا منّا فكيف لا يحبّ عبد اللطيف؟ أسأله فيجيبني: أن الوقت لذلك مايزال متّسعا وأنه لابد من أن يحب. أقول له متى؟ فيضحك ويقول لي: في يوم مّا، في يوم مّا...

والشيء الذي لا يمكنني أن أنساه هو شعوره الرّهيب بالحاجة إلى أن يملأ قلبه كما ملأته في اليومِ الذي خرجت فيه مع ياسمين إلى هضبة تطلّ على فاس.

كانت الدّنيا ليلا، وفي عيني ياسمين سواد وبياض لانهاية لهما. هي في لباسها الوردي الذي يشبه لون الخمر والرمّان، وأنا تسيطر عليّ محبتها من كلّ جهة. لم أكن أنوي أنّنا سنبيت الليل في ضاحية المدينة. قضينا أمسيتنا في دروب المدينة نتأمّل الناس ونردّد أغنيات المحبّة؛ ثمّ خطرت لي فكرة غريبة. قلت لها:

- لماذا لانقضي الليل معا؟

- أين؟

- خارج المدينة؟

ضحكت عيناها وسألتني:

- ألا تخاف؟

تذكرت الشبح الذي رأيناه معا في حديقة (بريكة)، وقلت:

- معك لايمكن أن أخاف!

قبّلتها، وخرجنا إلى غابة صغيرة تشرف على المآذن وسطوح المنازل. الآن تحوّلت الغابة الجميلة إلى مقبرة! كان موسم الصيف في بدايته. جلسنا قرب صنوبرة عتيقة. وضعت ياسمين رأسها فوق ركبتي وتحدّثتْ عن مقتل أبيها. قلت لها: إنّ الموت جزء من الإنسان. أجابتني:

- والغدر؟ هل الغدر من الإنسان أيضا؟

لم أستطع الإجابة!

بكت ياسمين، مسحتُ دموعها بيديّ، لملمتُ شعرها عن خدّيها وعنقها، وانتبهت الى صفحة القمر، ثمّ انحنيت نحوها أبتسم:

- الآن عليك أن تنسي لعبة الغدر؟

- وأمي الخرساء ؟

- سيذهب خرسها؟

- كيف؟

- ستبعثين الأمل في نفسها؟

- قد حاولت ذلك؟

- سنحاول ذلك جميعا؟

- لن نعوّضها خسارتها القديمة؟

- سيهون كلّ شيء إذا تحقق فيك أملها؟

كنت أريدها أن تنسى صدمة أمّها قليلا، أن تسكن في محبّتي، وأن نترك الأمر للزّمن. ضممتها إليّ وأنا أقول:

- سأعينك على هذا الخرس الذي يشغلك، سأسير معك إلى رحلة بعيدة كالرحلات التي نسمع عنها في ألف ليلة، سأذوب فيك ونحيا كما تريدين.

كان الليل قد بدأ يطبق، وكان ضوء القمر يكفينا ليبعث الطمأنينة في أنفسنا.

سكرتُ من شفتي ياسمين، عانقتها، ونمنا تحت الصنوبرة. في الفجر دفنت رأسي في صدرها وسبحت في نشوتي بها. أحسست مع بداية الصباح أنّني أطير من فرحي. لم أكن أحلم بأنّني سأقضي ليلة بكاملها مع ياسمين، هكذا في العراء، تحت ظلّ شجرة عتيقة. تهت في فرحي، وجدت نفسي أطلّ على المدينة من بعيد، كأنّني أكاد ألامس وجه السماء. كانت ياسمين في حضني، وكنّا نرقص رقصة الأمل. احمرّت وجنتاها من محبّتي. كانت عيناها تذبلان ثمّ تشعّان مع كلّ قبلة أرسمها فوق

جسدها الأسمر. تضمّني إليها وتقول: إنّنا نقترب من باب السماء. أنتبه الى المدينة فأرى بيوتاتها بيضاء متناسقة كسحابة تتمايل. لففتُ رأسي من شعر ياسمين، طوّقتُ عنقي من ضفائرها وقلت: إنّني سأحبّها إلى الأبد. سأقضي معها أيّامي في الدّنيا والآخرة. ليس لي بديل عنها. سأغرسها في عينيّ، وأتنفّس من رائحتها.
كانت ياسمين في ذلك الفجر كساحرة مؤمنة؛ نسيت معها خوفي من السقوط. قبّلت ثديها الأيسر، رفعت رأسي، طلَبت الى الله أن أموت في حضنها. لمسَتْ قفاي بكفّيها، كان عنقها دافئا كقطعة قطن طريّة، ثغرها هادئ مستسلم كطفل يحلم، ثوبها الورديّ يشملنا، يتمايل كرقصة غجرية. لم أتمالك نفسي بين انبثاق الفجر وباب السماء فصحت من فرحي:

- قد أحببتك من قلبي، أنا لا أملك من ذاتي إلاّ أن أحبّك. . .

همسَتْ في أذني:

- وأنا أيضا أحبّك، فلماذا تصيح؟

- أصيح من فرحي، لاأكاد أصدّق أنّني أضمّك إليّ بين الظّلمة والنور، أنت أعذب من الطمأنينة، لماذا لانرقص؟

رقصنا مع خيوط الفجر، رأينا شمسا رطبة دافئة قد بدأت تشرق في استكانة، ازداد إيماني بأنّ باب السماء ستنفتح، وبأنّني سأرقص مع ياسمين في الجنّة. كنت أكتشف المرأة أوّل مرّة، ولكنّ ياسمين لم تكن مجردّ امرأة، كانت حلما ورديا أسبح فيه بين الجنون ورقصة الملائكة، كانت محبّة أبدية تغزوني من داخلي، كنت أحسّ بها في أناملي وبين عينيّ. سألتني:

- هل ستحبّني دائما بهذا الشكل؟

- ستسكنين قلبي ماحييت!

- وإذا افترقنا؟

- سأحبك!

- وإذا تزوجت غيرك؟

-سأكتوي بمحبّتك!

ضحكت ياسمين وقالت:

- لا لن أحبّ غيرك بعد اليوم، أنت أوّل رجل اكتشفني، وستكون آخر رجل يكتشفني، أنا لاأستطيع أن أحبّ مرّتين!

تأملّت كلامها، وجدتها على حق، من منّا يستطيع أن يحبّ مرّتين؟

همست في أذنها: سأكتب في هذه الصنوبرة يوم ولادتنا، أعني يوم محبّتنا. . .
كنّا قد ابتعدنا عنها قليلا، ضممت ياسمين، ورجعنا إلى مكاننا الذي كنّا فيه، أخذتُ

قلمَ عينيها من حقيبة صغيرة كانت معها وكتبت: هذا يوم محبّتي : . . . 1965. قبّلتني ياسمين، ونزلنا نحو المدينة. دخلنا اليها من (الباب الجديد)، تذكّرت التاريخ الذي يعرفه والدي، ودّعت ياسمين، وذهبت لأنام.

حين حكيت لعبد اللطيف قصّة الصنوبرة وتاريخ المحبّة وانفتاح باب السماء، قال لي في صدق كبير:

- هذه هي المحبّة التي أريدها.

أدركت أنّه مايزال يعاني من فراغه الرهيب فقلت له:

- سيأتي الوقت لكلّ ذلك، لن تظلّ هكذا بقلبك الطيّب ومحبّتك المنفلتة، سيأتي يوم تجد فيه ذاتك.

ظلّ صامتا يتأمّل كلامي ثمّ قال في سخرية:

- هل تعرف أنّه أدخل الماء الى منزله؟

- من؟ أخوك؟ إلى السفلي فقط؟

- إلى السفلي، وقد أقسم أبي ألاّ ناخذ منهم قطرة ولو كانت لغسله قبل الموت.

تأكدت أنّ الدّنيا بدأت تختلّ، وأنّنا في بداية الرحلة نحو المجهول. ستزداد كراهية عبد اللطيف لأخيه. وسيزداد التنافر بين الفوقي والسفلي في الدّار الواحدة.

كتمت حقدي على أحمد وأنا أقول:

- لايهمّ، لايهمّ، لابدّ أن تتغيّر الأشياء، لابدّ أن تتغيّر الأشياء.

□ □ □

في قنوطي من عدّاد الماء، وممّا آل اليه الفوقي والسفلي في منزل عبد اللطيف، ذهبت الى جدّتي أسألها عن السعداني، هل جاء إلى فاس؟ ذلك أنّ أبي حين ذهب إلى الدار البيضاء كي يحضر جنازة أمّ الهادي، أخبرنا بعد مجيئه بأنّ السعداني سيأتي إلى فاس كي يشهد على نفسه بأنّه لاحق له في الدّار التي اغتصبها لأزيد من عشرين سنة.

سألت جدّتي:

- ومتى كان له الحقّ في ذلك؟

- حين حوّل دار الورثة إلى دار الغاز!

- وهل اتفقتم معه؟

أجابني زوجها:

-تشاهدنا البارحة عند العدول!

صحت في وجه جدّتي :

- على أيّ شيء تشاهدتم؟

- على أنّه لايملك هذه الدّار، لامن قريب ولا من بعيد.

- وكم أخذ منكم؟

قال زوجها :

- حتّى شبع، لاصورانص مشات فيه.

- ونور عينيك، ذهب مع الرّيح؟

- الله يخلف، السكنى أهمّ...

- تسكنون في منازلكم بأعينكم؟ أقصد تشترون منازلكم، ترثونها ممّن اغتصبها منكم؟

لم تفهم جدّتي ما أقول، بدت في ملامح زوجها أمارة استغراب واضح، تداركت كلامي :

- أقصد أنّكم اشتريتم دارًا تملكونها من زمن بعيد؟

- وماذا نفعل ياولدي؟ المهم أن نسكن ونرتاح.

- ترتاحون؟ لايمكن، كيف؟

عرفت أنّ الغموض بدأ يلفّني فسكتّ.

تعشّينا في تلك الليلة جبنا مملوحا وزيتونا. وفي الصباح ذهبت مع جدّتي الى (باب السنسلة) كي نشتري الجير والجبس حتّى نطلي بيت السعداني.

طلبنا الى جارلها سلّما بقائمتين، وساعدت زوجها الضرير على طلاء الغرفة، يصعد الى السلّم وأناوله سطل الجير أوّلا، ثمّ مكنسة صغيرة يغمسها في السطل ويمرّها على الحائط وهو يقول مع كلّ حركة : بسم الله، الجير يقتل الحشرات يابنيّ، الجير يقتل الحشرات. ثمّ حين ننهي الحائط، نغيّر سطل الجير بسطل الجبس، فيغمس فيه منديلا ملفوفا ويطلي الحائط بكلتا يديه دون أن يمسك بالسلّم.

سألته :

- أين تعلّمت هذه المهنة؟

- مع الفرنسيين تعلّمنا كلّ شيء، كانوا يقولون :

.faire tout savoir faut Il

عرفت أنّ في كلامهمْ بعض الحقّ وكثيرا من الباطل : أليسوا هم الذين حوّلوا دار الوقف الى دار الغاز؟ ألم يؤدّ هذا الرجل نور عينيه ثمنا لهذه الغرفة بسببهم؟

سكتّ أقول : فيهم بعض الحقّ وكثير من الباطل.

أنهينا طلاء السقف، تركنا باب الغرفة منفتحا كي يدخلها الهواء من كلّ جهة، تغذّينا، وكانت جدّتي تقول بين اللّقمة واللقمة: الآن ستسكن معي، هذه غرفتك.

في السنة التي انتقلت فيها الى غرفة جدّتي كان عبد اللطيف قد حصل على الشهادة الثانوية، وكنت على يقين من أنّني سأحصل عليها في السنة الموالية.

اشترى لي زوجها الضرير مكتبا من الخشب العتيق الصلب، وضعته في زاوية الغرفة، ووضعت سريري في الزاوية المقابلة، أدرس وأردّد قول الرّجل الضرير الذي أحببته في ذلك الزمن كلّ المحبّة: هذا عام البروڤي.

لم يعارض أبي فكرة انتقالي إلى بيت جدّتي، بل استحسنها استحساناً كبيرا لأنني سأتمكّن في غرفة السعداني من أن أطالع وأدرس بعيدا عن ضجيج أختيّ ومضايقاتهما.

كنت كلّما جلست إلى المكتب العتيق، أقارن بينه وبين طاولة الحديد الأنيقة التي استبدل بها أحمد الطاولة الخشبية، ووضع فوقها التلفون، ومزهرية النّحاس التي كان أوّل صانع لها في فاس حسب مايقوله عبد اللطيف.

كان قد رأى شكلها في الدّار البيضاء، فاشترى آلة التدوير والطبع من طريق مديونة، وأخذ يصنع.

- هو لايحتاج أن يزخرفها!
- وكيف تزخرف؟
- تطبع، يطبع الرسم بالآلة فوق النحاس، وتدوّر، فتصبح مزهرية، ويبيعها بالجملة ونصف الجملة.
- جميل!
- الآن يسمّي صناعته أواني مولاي ادريس!
- كيف ؟
- يطبع ذلك في كلّ شيء يصنعه!
-يصنعه؟
- نعم، حتّى الصّواني والبراريد!
- والزخرفة؟
- ذهبت مع (السّي التهامي)!

وعيت أنّنا أخذنا نفقد صدقنا بالجملة ونصف الجملة، وأنّ زمن (مول الحمّام) على مافيه من اختلال ربّما يكون أحسن من (أواني مولاي ادريس).

مررت بحانوت أحمد، انتبهت لطاولة الحديد، رأيت في المزهرية ورودا من البلاستيك: حمراء وصفراء وبيضاء... لم أجد لها أيّ لون في نفسي، حولّت

عينيَ إلى الواجهة بمحاذاة الطاولة، لاحظت أنها قد امتلأت بالنحاس، وأنَ المعدن والفضّة قد كادا يغيبان وسطها.

سألت عبد اللطيف عن ذلك. قال: إنّه يخلط النحاس بالمعدن ويصنع الصينيات المطبوعة.

- وكيف عرفتَ ذلك؟

-أهدَى أمّي واحدة منها!

- هل أخبرتَ أباك؟

-لايمكن، سيطلّقها، خبّأتها وسكتت.

فهمت من كلامه أنّ زمن الصّمت قد بدأ، وأنّ خرس أمّ ياسمين قد أخذ يتناسل داخلنا. هكذا تولد الأشياء، عادية، بسيطة، لانهتمّ بها، كموت أمّ الهادي، أو انقطاع العلاقة بين السفلي والفوقي في دار عبد اللطيف، ثمّ تتحوّل إلى (دار الغاز)، والصينيات المخلوطة، والقتل والغدر والخرس. هل سنكون في رحلتنا مسكونين بالشبح الذي رأيته وسط حديقة (بريكة)؟ أين سنضع أغانيها؟ هل سنمحو من ذاكرتنا صوتها الجميل؟

أقارن بين طاولة الخشب العتيق الصّلب وبين طاولة أحمد فأقول: إنّ الزمن كفيل بأن يعيد الأشياء إلى نصابها، ستتحوّل الدّنيا لتصبح كابتسامة ياسمين وعينيها، ستسكننا محبّة سمراء أبديّة.

كنت كلّما نظرت في كتاب أو مجلّة، تراءت لي صورة ياسمين، تذكّرت شفتيها وصدرها، استحضرت رائحة جسدها البرتقالي، وليلتنا السابحة تحت الصنوبرة، ثمّ تصورّت أن الزمن الآتي سيجمعني بها. كنت متأكدا من أنّ محبّتي لها فوق كلّ محبّة، وأن الفجر الذي طلع علينا في طمأنينة لابدّ من أن يشرق فيشمل آفاقنا البعيدة ودنيانا التي لن تذبل مع السعداني أو أحمد، مع الموت غدرا أو مع الصمت الرهيب ولعنة الشّبح.

لاأدري كيف ربطت في تلك الفترة بين الشّبح والصينيات المغشوشة. لماذا انبثق الشّبح في دار (بريكة) وصنعت المزهرية المزوّرة في دار عبد اللطيف. نسيت، كان أحمد قد اتخذ إحدى غرفتي السفلي مخبأ لسلعته. كان يخاف الضرائب كما يقول عبد اللطيف، كثيرا ما جاء بالناس ليبيعهم السلعة في منزله، حتّى (ابن عمّ السّي التهامي) الذي أراد أن يرث، أعاد معه أحمد المياه الى مجاريها وباعه الصينيات المخلوطة. وخديجة وضعت طفلا آخر، ترضعه (الحليب الرّومي).

رأيتها مرّة في القنطرة، ابنها الأوّل يمشي وقد أمسك بيدها اليمنى وابنها الثاني محمولا في يدها اليسرى، وهي في فستان طويل يكاد يمسّ الأرض، قلت: إنّ أحمد جعل يخبّئها كما يخبئ سلعته، هل يخاف عليها من الضرائب؟ هل هي مغشوشة

أيضا؟ لابدّ أنّها مغلوبة على أمرها، لماذا تكون في الجلباب وفي الفساتين الطويلة والقصيرة في آن واحد، ثمّ تكون أحيانا باللثام وأحيانا (بالحرية)- كما نقول- أي عارية الوجه أو سافرة. هناك شيء ما ضدّ هذه المرأة. في أيّامها الأولى يمنعها (السّي التهامي) من الخروج من منزلها ومن أن تلد منه، وفي أيّامها الثانية يسيطر عليها أحمد، فيظهرها ويخفيها ويفعل بها مايريد. لابدّ أنّ هناك خللا ما، فينا أو في الأشياء من حولنا، ولذلك كان يقول أبي: الدنيا عوجاء، حين نصنع نحن الطرابيش، يخرج الناس بدون رؤوس.

كانت قد بدأت تظهر عليه مسحة التشاؤم، ذلك أنّ تجارته البسيطة تراجعت كثيرا حين شاع الجلد الرومي في (السبطريين) وبدأت معامل البلغة الرومية تكثر في فاس. سألته:

- لماذا لاتبيع أنت أيضا هذا الجلد؟

- رأس ماله كبير يابنيّ، كبير جدّا، يشتريه أصحاب المعامل بالجملة، الخرّازون لايستعملونه.

- وحانوت الدّار البيضاء التي كنت تريد شراءها، ماذا ستبيع فيها؟

- كنت أريد فيها تجارة أبي: الزربية والحنبل.

- والآن لماذا لاتفعل ذلك؟

- أعوذ بالله، الدّار البيضاء أصبحت الآن نارا، نحن لانقدر عليها، يجب أن نبيع حانوتنا ودارنا لنشتري غرفة واحدة مع الجيران.

فكّرت، وجدت أنّها نار أو كالنّار، ألم تمت أمّ الهادي في الطريق إليها. الدّار البيضاء وهم يسكننا أو نسكنه، لابدّ أنّنا سنموت فيها بالجملة والتقسيط.

□ □ □

في ربيع تلك السنة زارنا (السّي المعطي). مكث في دارنا أسبوعا أو أكثر. زارت زوجته المولى إدريس، واشترى هو جلبابا من (سوق الحايك) وبلغتين من (سوق السبّاط). كانت مريم معهما، رآها عبد اللطيف فاشتعل قلبه بالمحبّة.

كانت مريم جميلة حقّا، وكانت سمرتها تشبه سمرة ياسمين. مريم أطول منها قليلا، تعلوها مسحة الفرح، تقول أيّ شيء وتضحك، وياسمين تغلب عليها مسحة الحزن، تبتسم ابتسامة مكسورة وقلّما تضحك ضحكة كاملة. ذكاء مريم ذكاء متّقد وحيويتها منطلقة، أمّا ياسمين فهادئة يغلب عليها الحلم، كأنّها تفكّر باستمرار في شيء ما. كانت مريم ترتدي فساتين مختلفة الألوان، تكثر فيها الورود الصغيرة

والأزرار والتقاطيع، وياسمين لاتضيف الى سمرتها الساكنة سوى لون واحد يضاعف من حزنها الدفين وأملها الذي لاأعرفه.

تقول: إنّنا سنتزوّج فأجد في ذلك منتهى أملي، ولكنّني أتراجع وأفهم من نظرتها أنّ حلمها يسكن في باب السماء، كأنّ أملها يسكن في ماضيها. ولذلك انكسرت ابتسامتها الرائعة.

لعلّ عبد اللطيف أحبّ في مريم صخبها، تتحدّث إليك فتحسّ أنّك أمام فتاتين أو أكثر. حركاتها متواصلة؛ تتداخل مع كلّ كلمة تقولها، تبتسم وتضحك وتنظر إليك في آن واحد. كلّ شيء فيها يحدّثك بأنّ الزمن سيأتي وأنّه لن يخطئك.

رآها عبد اللطيف مع أختي فجاء إلى دار جدّتي يسألني:

- هل هي من أسرتك؟
- أبوها صديق أبي، ماذا تريد منها؟
- أريد أن أحبّها، أقصد أنّني قد أحببتها.
- هي تسكن في الدّارالبيضاء؟
- سأحبّها ولو سكنت في القمر، مااسمها؟
- مريم.
-سأحبّها، أين تسكن في الدار البيضاء؟
- في المدينة القديمة، في درب كناوة.
-درب كناوة؟

تذكّرنا معا مرضه والجامعية والسّي التهامي وأحمد، سكتنا قليلا ثمّ سألته حتّى ننسى كلّ ذلك:

- وماذا أحببت فيها؟
- أحببت فيها؟ أحببتها هي.

أحسست أنّ سؤالي لامعنى له، تداركت ذلك:

- والحلّ؟
- الحلّ هو أن أحبّها، أن ألتقي بها؟
- تلتقي بها، كيف؟
- تقول لها: إنّ صديقي قد أحبّك، إنّه يريد أن يتزوّجك...
- تتزوّجها، متى؟
- في العام القادم.
-العام القادم؟
- نعم، سأكون قد تخرّجت من مدرسة المعلّمين.

- المعلّمين؟ وبعد ذلك؟
- بعد ذلك؟ أتزوّجها ونسكن في الدار البيضاء!
يسكن عبد اللطيف في الدار البيضاء، الدار البيضاء نار كاوية كما يقول أبي؛ إذن فهو يحبّ مريم حقا.
سألتها: هل تريدين أن تتزوّجي صديقي؟
- من ؟ صاحبك الذي تحكي عنه؟ أنا لاأعرفه؟
- هو في السابعة عشرة من عمره، في السنة القادمة سيصبح معلمًا.
- المهمّ أن أعرفه أوّلا.
خرجنا إلى ضاحية المدينة، مررنا ببعض بساتينها، كانت ياسمين إلى جواري، وكانت مريم إلى جوار عبد اللطيف، غنّينا في تلك الأمسية أغنية جميلة، وحكينا حكاية الفجر والقمر.
غنّت ياسمين:

نْهَارْ سبخْتَ مْعَا حْبيبي فسْمَاهْ
قبَضْنا نجومْ وقْمارْ أنَا وايّاهْ
كُنتْ فالرَّاحة الكبيرَة بين حْضانو
وكانْ يقبَّلني بصدقُو ورْضَاهْ
لَوْ كانْ الليل يخَيَّم بظلامُو
لابدْ قلوبْنَا تضوِّي فسْمَاهْ
أنَا فْجرْ يَشْرقْ فصْبَاحُو
وهُوَ هْلاَلْ يْلالي فغْلاَهْ
سْبَحْنَا فالكُونْ أو فغْيَابُو
ودْرَكْنا سْحَابْ دَّاني ودَّاهْ
هَاكْدا كانتْ أيَّامي ويَّامو
إخْلاصْ ووُدّ خداني وخْداهْ
كيفْ نْكونْ ايلا تْلَفْ زمَانُو
وِيلاَ جْلاني وجْلاهْ
حْبيبي واخْد هُوَ وَخْدُو
مَاخْلاَق من بَعدُ حدْ نَسْبَحْ مْعَاهْ

وحكيت حكاية الفجر والقمر :

زعموا أنّ الفَجر أحبَّ القَمَرْ

مَنحه من نوره سواراً

وضَعَهُ القمَرْ

علامَةَ صدق في جَبينه

لامعصم للقَمَرْ

ولامكانَ للقيد في جبينه

ثمَّ صارَ فضيّاً كما ترَوْن

ضاحكا في ليالي الرّبيعْ

ينتظرَ إطْلالَةَ الفجْر كي يَغيب!

زعَموا أنّ القمر أحبَّ فجر الرّبيع

فَأهْدَاهُ خَاتماً لم يَضَعْه الفجرُ في إصبعه

ارتسَم الخاتمُ في بَسْمة الفَجْر

تلألأتْ شفتَاه بالصِّدق

قدْ أحبَّ الفجرُ القَمر

وكانَا صديقَين في الطَّريقْ.

رجعنا الى المدينة عن طريق باب الفتوح، واقتنعت اقتناعا راسخا بأنّ الإنسان لايمكن أن يعيش دون محبّة.

كانت ياسمين في لباس سماويّ، وكانت مريم في لباس مزركش بالأسود والأصفر. عبد اللطيف خجول مضطرب قليلا، بين أن يندفع مع محبّته وبين لقائه بأوّل فتاة سكنت قلبه، يتحدّث في هدوء ويزن كلامه ويقول بين حين وآخر: قد أحببت هذه المرأة التي تسكن (سيدي بليوط) فنضحك جميعا ونستنشق الهواء ونجول وراء أسوار المدينة.

في ذلك اليوم دخّن عبد اللطيف أوّل سيجارة في حياته، أخرج من جيبه علبةLM، أصبح يصرّ على أن يمارس رجولته. أخذتُ منه سيجارة، دخّنتها، أحسست بلذّة عميقة؛ ثمّ تحوّلت إلى ياسمين أحدّثها بأنّ صديقي ينوي الذّهاب الى الدار البيضاء، أجابتني في هدوء واثق:

- مستحيل، سيموت هناك!

سكتّ، ودعوتها إلى أن تصمت، خفت أن تسمعها مريم، تصوّرت أنّ كلامها سيقف حاجزا أمام محبّة في البداية. نظرت إليّ في حزن، كأنّها تذكّرني بأبيها، ابتسمتُ، وحكيتُ نكتة البدويّ الذي جاء الى الدّار البيضاء، فجاءته المشاكل من كلّ جهة ولم يَقوَ على الصبر والمواجهة، فخرج في لباس أحمق يصيح:

- جيت تبيّضني كَحلاتْني جيت تبيصني كَحْلاتْني!

ضحك الجميع، وما كان أحلى ضحكة ياسمين!

جلسنا في حقل للزّرع، قطفنا زهرة الأقحوان، نزعنا وريقاتها البيضاء، وقبّلت ياسمين قبلة واحدة، ضحكت مريم ضحكة عالية، ولكنّ عبد اللطيف لم يتجرآ على أن يقبّلها. وقف وسط حقل الزرع، نظر إلى السماء، رفع يديه وهو يقول:

- اشهدوا أيّها الناس أنّني أحبّ هذه المرأة، وأنّني سأتزوجها، وسأسكن معها بجوار (سيدي بليوط).

ارتفعت حناجرنا بالضحك، فكّرت في أغنية: (سيدي بليوط والمزلوط) ثمّ ذهبنا إلى المدينة في انشراح وفرح. حين رجعت إلى المنزل، سألت مريم:

- مارأيك في صديقي؟

أجابتني وعيناها تلمعان بالفرح:

- جميل ومهذّب!

- إذن قد أحببته؟

خجلت قليلا وانحنت برأسها تتستّر على ركبتيها بفستانها المزركش.

□ □ □

ذهبت مريم إلى الدار البيضاء وأرسلت إلى عبد اللطيف رسالة شبيهة بما كنّا نجده في (رسائل المحبّين) و(كيف تكتب رسالة إلى حبيبك)... ولكنّ ماكتبته مريم كان بسيطا وصادقا. فقد عانت كما تقول من فراغ في حياتها إلى أن وجدت عبد اللطيف، ولم تكن تحسّ بنبضات قلبها قبل أن تراه، وهي مشتاقة إليه، لاتكاد تنام الليل إلاّ وصورته بين عينيها، تحسّ به داخل دمها وفي كيانها. هو أغلى ماتملكه، به تحيا، فلابدّ أن تموت معه.

فرح عبد اللطيف فرحا كبيرا برسالتها، قرأها عليّ ثلاث مرات، ودعاني الى قراءتها وحدي مرّة رابعة، ثمّ أجابها برسالة أرفق معها صورته ووردة حمراء نصف ذابلة، وطلب منها أن ترسل له صورتها.

حين جاءت صورتها من الدّار البيضاء أخبرني عبد اللطيف بذلك، ولكنّه لم يقرأ عليّ رسالتها هذه المرّة. كان منشغلا بخبر غطّى على خبر مريم.

- سينتقل إلى الدّار البيضاء!
- من؟ أخوك؟
- اشترى معملا للنّحاس!
- ماذا سيصنع فيه؟
- أواني مولاي ادريس.
- وكيف اشترى المعمل؟
-باع بستان باب الخوخة والسفلي!
- السفلي؟ من اشتراه؟ من سيسكن معكم؟
- (الجّامعية)، باع السفلي ل (الجّامعية).
- وأبوك؟
- لاينام الليل، لايكاد يتصوّر أنّ دارا واحدة ستجمعه بهذه المرأة.
- والحانوت، هل باعها أيضا؟
- لا، سيترك فيها أحد متعلّميه.
- والعمل؟
- أن نسكن مع (الجّامعية) ونحمد الله.
- ألم تقل إنّك ستتزوّج؟

أحسّ أنّني أريد أن أنسيه كراهيته لأخيه فأجابني في غضب:

- وأبي، هل أرميه إلى بوخرارب؟
- ومريم، ألم تقل إنّك تحبّها؟
- ومن أنكر ذلك؟ أقول لك: إنّ (الجّامعية) ستقتسم معنا الدّار وتحدّثني عن مريم.

عرفت أنّ كرهه لأخيه فاق كلّ عاطفة لديه، له الحقّ في أن يكرهه، هذا رجل يريد أن يقتل أباه على كبر سنّه، ألم يجد شخصا غير (الجّامعية) كي يبيعه السفلي؟ ربّما تكون لخديجة يد في ذلك، ربّما انتقمت بهذه الطريقة من عبد اللطيف ووالديه لأنّهم كانوا ساخطين على زواجها من أحمد.

كنّا راجعين إلى منزلينا، وجدنا أحمد صحبة رجل آخر يحزمان السلعة على ظهر حمار ضخم، قال عبد اللطيف: هذا هو ابن عمّ (السّي التهامي) في القبيلة.

سألت عبد اللطيف:

- الآن ماذا ستفعل؟

- سأدرس حتّى الصبح، لقد أضعت كلّ يومي في هذه القضية، سأغلق الغرفة على نفسي وأقرأ.

تيقّنت من أنّ عبد اللطيف يريد فعلا أن يلتحق بمريم، وأنّه لابدّ من أن يبني بيتا له في الدّار البيضاء. ودّعته والتحقت بمنزل جدّتي. وجدتها قد اشترت مزهرية من الفخّار ووضعتها فوق طاولتي. لم أدر كيف استفقت مع بداية نور الشمس، وأسرعت خطوي نحو دار (بريكة) أريد أن أقطف منها بعض الورد كي أضعه في المزهرية.

سألت عن ياسمين، أجابتني أمّها الخرساء بأنّها ماتزال نائمة، لم أتمالك نفسي، دخلت عليها في غرفة نومها، أخبرتها بأنّ أحمد هو الذي سيذهب إلى الدّار البيضاء، قالت بين اليقظة والنّوم:

-لن يموت هناك!

استغربت كلامها، ولكنّي وجدتها على حقّ.

كانت مستلقية فوق فراش مطرّز، ترتدي لباسا أبيض، رائحة سريرها كعطر من أشعّة الفجر، وحزامها كقوس الغمام. انحنيت لأقبّل رجليها، ضحكت كامرأة عرفت أنواعا من الرجال، ونظرت إليّ في عمق كأنّها تتساءل عن سبب مجيئي في أوّل الصباح. خاطبتها:

- إنّي أهتف بك في يقظتي ومنامي، أنت حلمي.

كان صدرها قد انكشف قليلا، وكانت به شامة من العسل. استدارت قليلا، انحنت نحو الأرض كي ترتدي شربيلا أبيض مُطرّزا بحرير أسود، جلست فوق السرير، وطلبت منها أن ترقص!. رفعَت قميصها عن ساقيها قليلا، ورقصت نصف رقصة أندلسية، انثنت بخصر رخو متكسّر، كان ردفاها كسعف النخيل. سألتني:

-كيف تجد جسدي؟

لم أجبها، كنت مستسلما إلى سحر حركتها، كنت كمن أصابه خدَر طيِّب. اقتربت منها، وضعتُ رأسي فوق عنقها، همست في أذنها:

- أنت حلمي وحلمي.

خرجنا إلى الحديقة، قطفتُ أربع قرنفلات وزهرة بيضاء، وضعتها في مزهرية الفخّار ونسيت حديث أحمد كما نسيه عبد اللطيف.

جواز سفر حتّى طنجة

أصبح عبد اللطيف معلّما، وفي تلك السنة تزوّجَتْ ياسمين. كان زواجها هو خيبتي الكبرى. لا أعرف لماذا وقع ذلك؟ أحبّها، وأنسى ذاتي لأذوب بين أضلعها، ثم تتزوّج. أعبدها ألف مرّة ومرّة وتذبحني هكذا في تفاهة. هل أحببتها لتقتلني في بدايتي؟ كيف سأواصل الطريق دونها؟ هل سأسكن قلب امرأة أخرى بعدها؟

وهي لماذا أحبّتني؟ لتتركني مشرّدا بين الأزقّة والطرقات، لا أعرف رأسي من رجليّ؟ ألم تخلق ياسمين إلاّ لتخنق حلمي؟ ماذا أصنع بنفسي وسط الخيبة؟ كيف يمكن أن أوجد في فراغ؟ هل سأرجع على عقبيّ؟ كل ما في الأمر أنّني أحببتها، أعطيتها نبضة قلبي، لماذا أُجْزَى بالخيبة والتفاهة؟ أظنّ أنّه كان عليّ أن أكرهها، أن أدّعي محبّتها فأقتلها بدلا من أن تقتلني؟ هل كانت المحبّة بيننا لعبة قتل مغلّفة؟ لماذا تتناسل كلّ هذه الأسئلة في رأسي؟ أليس زواج ياسمين هو منتهى اللعبة؟ ماذا بإمكان الأيّام الخائبة أن تفعل؟ هل تخفي بين طيّاتها الكئيبة أكثر من ذلك؟ قد أحرقَتْ حلمي، سرقت منّي واقعي، سلبتني إرادتي، ثمّ لم تترك لي الحقّ في المحبّة، هل سأكره ذاتي بعد أن كرهت زمني؟ كيف أجوب دروب المدينة وقد تخلّت عنّي أسوارها العتيقة وزواياها الخافتة؟ أحسّ أنّ كلّ شيء قد خانني أو كرهني. هل أصنع من ذاتي ذاتا أخرى غير هذه التي وُجدَتْ في محبّة ياسمين؟ غريب أمر الدّنيا، حين تتهيّأ لتجرفنا تبدأنا من جهة المحبّة، ثم تقهر إرادتنا فتفعل بنا ما تريد. هكذا إذن ستبدأ رحلتي الجديدة؛ ستتزوّج ياسمين، وأحبّ فتاة أخرى لن تلائمني، ونسير جميعا إلى الكراهية والرعب. يبدو أنّنا لا نختار مصائرنا وأنّ الدنيا تعاكسنا من كلّ جهة. لماذا نجني من المحبّة المرارة والخيبة؟ هل نسيت ياسمين ليلتنا في العراء تحت الصنوبرة؟ هل نسيت قبلتي تحت دالية العنب؟ ألن تتذكّر رقصتها في لباسها الأبيض بغرفة

نومها؟ هل ستتنكّر لكلّ ذلك؟ ورحلتي معها في ضاحية المدينة حين كانت مريم صحبتنا وكان عبد اللطيف يصيح: اشهدوا أيّها الناس أنّني أحبّ هذه المرأة، هل ستنسلخ ياسمين من كلّ ذلك؟

الآن خطبها محام من الدّار البيضاء. لم يعرفها من قبل، حدّثوه بأنّها جميلة ويتيمة وفي السادسة عشرة فأراد اغتصابها.

محام كان نائبا عامّا في محاكم فرنسا. أخبرتني بذلك ياسمين! وحين رأيتُه أصبت بخيبتها هي. كنت أتصوّر أنّه شابّ وسيم في بداية طريقه نحو الحياة الكريمة، قلت لا عليك: ليس كلّ من أحبّ يتزوّج من أحبّ، تلقّيت الخبر باستغراب لم أفقد معه صوابي ومحبّتي، ثمّ إنّني لم أكن أحبّها لأتزوّجها، بل أحببتها لأنّني أحببتها. ولكنني حين رأيته ذا خدّين مترهّلين، محمرّين من الشحم والأكل والسهر، دارت الدنيا حولي، كرهت الأشياء وكدت أكره الناس. أليست خيبتي أكبر من كلّ خيبة؟ أين هذا القلب الذي سيحبّ بعد اليوم؟ ربّما كنت في تلك الفترة شخصا لايفهم الدنيا؛ ولكن ماهذه الدّنيا التي سأفهم؟ أن تمنح فتاةٌ سبحت معي في حلمٍ أسمر بين أحضان القمر جسدَها لرجل أصلع؟ أنا متأكد من أنها كرهته قبل أن تتزوّجه، قلبي يحدّثني بأنّ شيئا ما سيحدث في ليلة عرسها.

سيشتري لها ذهبا وملابس وسيارة فخمة، ولكنّه سيسحق قلبها الطريّ، سيكسّرها كما كسّرها الزمن المنقلب. ألا يسير الزمن الآن على رأسه؟ حين كان يسير على قدميه كان أملي هو ياسمين، الآن قد فقدت الأمل، هل رأيتم إنسانا يفقد أمله ولّما يبدأ بعد طريقه نحو الأمل؟

تهيّأت دار (بريكة) لعرس ليس كالأعراس، عرس سيغتصب فيه قلبي. لماذا زوّجتها (بريكة)؟ ألم تكن تعرف محبّتنا الأبدية؟ ربّما تكون بداية اللعنة هي هذا العرس الملعون؟ ستتعوّد ياسمين لعنتها، سيدرّبها الزمن على التعوّد، سينزع من قلبها جذور البراءة والحلم، ستصبح شيئا من الأشياء، ستباع في سوق السَّقَط.

خطبها من (بريكة) فرأت فيه خلاصا من اليتم والفاقة والخرس. انفضّ الناس عن (بريكة)، تكاثر المغنّون في مدينتنا كالفطر، يغنّون أيّ كلام فيرقص الناس ويطربون، لقد أخذ الناس يتزاحمون حول تَفاهتهم، فكيف لاتدبّ الفاقة إلى (بريكة)؟ قد أصابها رعب التفاهة، فخافت على ياسمين.

غلبت (بريكة) على أمرها. كانت أغانيها تعكس مفارقة غريبة: تغنّي في ألم كبير، وتحكي قصص اليأس والمعاناة، ثمّ تبعث فيك أملا كبيرا بأنّ الدّنيا ترغب فيك أكثر ممّا أنت راغب فيها. وحين انفضّ الناس من حولها تحوّلت المفارقة الرائعة إلى

تفاهة. لاأدري كيف عرفت في تلك الأيّام الجميلة أنّ الفنّ والإنسان توأمان. بل الراجح أنهما شيء واحد.

غلبت (بريكة) على أمرها فزوّجت ابنتها من خوف أخذ يتمكّن منها. كانت في أيّامها الأخيرة، قبل عرس ياسمين بقليل لاتغنّي إلا لنفسها، تاخد عودها وربابها وتسأل الدّنيا في حزن دفين: لماذا كلّ هذا الألم يا إلهي؟

عندما خطبت منها حفيدتها، لم تندهش (بريكة)، قبلت زمنها الذي انقلب، وتهيّأت للموت، تهيّأت لتنسحب من عالم خانها وتنكّر لكلّ ما كانت تريده، وغنّت أغنية أخيرة:

مثْلي مثْل الحمْام من الفوق مابان دخّان ومن القلْب طابو حْجارو
مايَعْذرني غير اللّي جَرَّبْ بحالي الزمانْ وتكوى بكيّتو ونَارُو
ياهاد الناس مايعيّب حدّ على من نكرو الصديق والعدُو وغدْرُو جَارُو
لو كان ليَّامْ تمْشي بالگُودْ تَّاحَدْ ما يتنكّر لْحبيب ويهجر دارو
ياليل طَويلْ، نجومو راكدَة على قَلْب لأَيْنَام آو يتسالى سهارو
كُنت ضاوي فَيَّام الخير وكانْ نَجْمَك يطلّ علينا بهلالو وقمارو
غَابتَ منّك گمرة الصيف وتاهت سماك وصدْقانك فظلامك حَارو
وَاش ياليل الصّيف هْجَرْت المكانْ آو حْسُودكْ غَارُو
مَامَيّزْت العْدُو منْ الصْديقْ واخْلَطت بين العَاهَدْ وْغدَّارُو
انْتَ غَبْتَ وْخَلّيتي النّاسْ كُل وَاحْدْ مَلسُوعْ منْ جْمارُو
حْرَامْ عْليكْ ياليل الصّيف اللّي كانْ مْضَويّ بَنْوارُو
تْخَلّي حْبَابَكْ هَاكْدَا هايْمينْ لاهُمْ رَجْعُو وْلاهُمْ سَارو
انتَ يَابَرْدْ الليالي طَولْ وطُول ظلامَكْ مابَانْ نْهارُو
خَلّي الحباب كُلْها فطريقْ كُلْها يْشرْبْ كَاسْ مَرَارُو
كُلْهَا كاتَمْ فْقَلْبُو كيَّة وسَاكتْ عْلَى ليغتُو وسْرَارُو
غَادي تَشْرَق شَمْسْ الرّفيقْ وتْريبْ عالْ الظّلامْ سْوارو

وضربت بأغانيها عرض الحائط، وزوّجت ياسمين.

كان عرس ياسمين صامتا كصمت القبور، كانت اغتصابا أخرس. لم تكتف الدّنيا بموت أبيها وخرس أمّها، فغدرتها هي أيضا.

كانت عيوبنا في ذلك الزمن قليلة وبسيطة، يراقبها الناس في صرامة، يبالغون كثيرا في سقطة من سقطاتها، يضخّمون أمرها، فيبتعد عنها الناس أو يتستّرون عليها. ولذلك خافت (بريكة) من شيوع خبر ياسمين، فزوّجتها زواج اليتم!
صحت في وجهها:
- ألم تعلّميني المحبّة؟
- غُلبت على خوفي يابنيّ.
- خوَفك، ألم تجدي غير محبّتي لتتخلّصي من خوفك؟
- سامحكَ الله، أنا أحبّك أيضا ياولدي!
- تحبّينني، ماهذه المحبّة الغادرة؟
- لم أغدر في أيّامي، فكيف أغدرك أنت؟ أعرف أنّك أحببت هذه الفتاة كما لم يحبّها واحد قبلك...
- ولابعدي، سترين مصيرنا، سنذهب معا أدراج الريّاح، ستطأنا أقدام ذليلة قاسية، سترين ماسئوول إليه.
قد اقترب موتي يابنيّ، لن أستطيع حمايتكما، ستضيعان في محبّتكما، الأوْلَى أن تواجها مصيركما الآن.
- ماهذا المصير الذي تتحدّثين عنه؟ ياسمين تقول إنّ الدّار البيضاء قاتلة، وأنت تدفعين بها إلى مصير أسود؟
كانت (بريكة) تبحث عن مبرّر واحد تقنعني به، وكانت مبرّرات الدّنيا غير كافية لأتنازل عن محبّتي. هل يجبر الإنسان على أن يكره من أحبّ؟
- وكيف أقنعت ياسمين؟
- أقنعتها بعذابي الذي تراه كلّ يوم.
- وهل سيخلّصك هذا الزواج الأعرج من عذابك؟
- أريد أن أتخلّص من المسؤولية، أنت لاتعرف ذلك الآن، ولكنّك ستعرفه بعد مدّة.
-لا، لاأريد أن أعرف شيئا بعد اليوم، سأكفر بكلّ ماعرفت، سأنسلخ من ذاتي التي تشبّعت بأغانيك الكاذبة، سأقتل صدقي، سأشرع صدري للكذب والخيانة.
سكتت (بريكة)، دخلت علينا أمّ ياسمين، كانت تبكي لأنّ ابنتها ستفارقها وتفارقني، ستهجرنا معا، ستتركنا للخرس والصمت. لو واصلت ياسمين محبّتها لتغيّرت الأشياء. من أين جاءوا بهذا الرجل المترهّل؟ هل اختبأ هو أيضا كسلعة أحمد؟ ألم يجد غير ياسمين ليتزوّجها؟
- كيف سيتزوّجها؟

- كما يتزوّج الرجال النساء!
- إذن قد اقتنعتْ به؟

نبّهتني حسناء بحركة من عينيها أنّ ياسمين في غرفتها. قمت من مكاني في حركة متوترة، كأنّي أريد أن أحُول بينها وبين مصيرها الضائع، دخلت إلى الغرفة، وجدتها تصلّي!

ماكان أروعها في صلاتها، وضعت منديلا أبيض فوق رأسها، سترت سائر أعضاء جسمها، وتبتّلت تشكو ألمها إلى الله! أحسست أنّ مئذنة المدينة ستصلّي معها. اندهشتُ لصلاتها ووقفت أتأمّلها كي لاأقطع طريقها إلى الله.

كانت حركاتها شبيهة بحركات الجنَّة، هادئة مستسلمة طيّبة.

كيف سيضاجع هذا الملاك الورديّ رجلا أصلع متهالكا في الشّرب والاغتصاب؟ هل ستصلّي معه؟ وصلاتي أنا، هل ستنزوي في قلبها وتصير صلاة خرساء؟ هل ستلد منه؟ لايمكن؟ سيقتلها كما قُتل أبوها؟ ولن يكون الأمر غدرا هذه المرّة؟ سيكون قتلا في العراء؟ سيكون غدرا وسطَ الناس؟ أحبّ من أحبّ وكره من كره؟

صلّت ياسمين وجلست فوق سجّادها البنفسجي تنظر إليّ. أصابني صمت رهيب، وطفقت من عينيّ دمعتان أحسست أنّهما تسقطان داخل قلبي. عرفت في ذلك اليوم أنّنا لن نبكي كما يبكي الناس، سنبكي في صمت، سنواري دمعنا في دمنا ونسكت.

خاطبتها:

- ستتزوّجين.

لم تجبني، نزعَتْ منديلها الأبيض، أسدلت شعرها فوق نهديها، وجعلت تضفر خصلاته وتنظر إليّ.

قلت لها إنّني أحبّك، ولايمكن أن أتخلّى عنك. ظلّت صامتة. صحت فيه وجهها:

- هل أحببتني لأعَذَّبَ بك؟ زواجك من هذا الرجل غدر كبير لايمكن أن أحتمله.
- إذا لم أتزوّجه متّ من الفاقة والجوع.
- ألا يمكنك أن تصبري قليلا؟ سنعمل ونبني زمنا آخر غير هذا الزمن؟
- لن نبني شيئا، سترى أنّنا سنعيش زمن التدمير، لن نبني شيئا.
- ماهذه الظلمة التي تعيشينها؟ هي ظلمة في داخلك؟
- أنا كسائر الناس، أموت بالكراهية وأحيا بالمحبّة.
- أراك تقتلين نفسك.
- حكم عليّ بذلك، لاأملك من زمني إلاّ ما أنا فيه.

- وأنا، ماذا كنت تفعلين بمحبّتي؟
- أنا أيضا أحببتكَ.
- ولماذا تتركينني لهذا الضياع التافه؟
- ستحبّ أخريات غيري.
- لا، سأكره، سأصبح ملعونا، سأموت في رحلة اللعنة!
- لا يمكن، لقد غرستُ فيك جذوة المحبّة، أنت لا يمكنك أن تتخلّص من ذاتك.
- وهذا الرجل، ماذا ستفعلين به؟
- سأحاول التعوّد عليه، لعلّه قد يحبّني، فتتغيّر أشياء كثيرة.
- أنت ساذجة أكثر من اللازم، هذا إنسان مات قلبه في الخدر والاغتصاب.
- سأحاول.
-ستفشلين في ذلك؟
-لاخيار لي، كلّ ماحولي يحدّثني بأنّني مغلوبة منهزمة.
- ألا يمكن أن نستمرّ؟
- سنستمرّ هكذا، أحبّك وتحبّني، وكلّ منّا في جهة من الجهات!
- أنت غامضة؟
-سأحاول أن أكون واضحة، سأحاول.

لم أعرف مرادها من هذا الزواج الملعون، تذبح قلبي وتقول إنّها مضطرة لذلك، كأنّها تخفي عنّي مبرّرات هذا المصير الغامض. سأسألها سؤالا واحدا ولتذهب إلى الدّار البيضاء:

- هل تحبّين هذا الرّجل أو تكرهينه؟

ابتسمت في سخرية حزينة وهي تقول:

- أكرهه، أكرهه!

□ □ □

حين ماتت (بريكة) وتشوّهت ياسمين عرفت أنّ الأشياء بدأت تاكلنا، تلتهمنا من الدّاخل، تسيطر علينا، ثمّ تقتلنا. كانت الأشياء فيما مضى تافهة، لاقيمة لها. كانت بيننا وبينها مسافة بعيدة: الإنسان في جهة والأشياء في جهة أخرى. أحسست حين تزوّجتْ ياسمين أنّ الأشياء بدأت تعاكسني، ستسيطر عليّ بعد مدة، ستصبح لها إرادة قاهرة، ستحتقرني، سأضيع وسطها.

حمل الرجل المنتفخ ياسمين إلى الدّار البيضاء، وذهب عبد اللطيف ليخطب مريم، وظللت وحدي فارغا من المحبّة ومن أحلامي البسيطة. لم أكن في تلك المرحلة أطلب شيئا من الدّنيا، فلماذا أحرم من أملي في أن أضمّ إليّ ياسمين وأموت معها في آخر الأيّام؟

يبدو أنّ الإنسان سيحرم من كلّ شيء يحبّه، سيخسر ذاته، ستنفذ إليه الكراهية من كلّ جهة. ماذا سيفعل؟ سيقبل كلّ ما كان يعتبره ضدّه، ستتوالى رحلته في عبث لاهث.

قلت لعبد اللطيف حين رجع من خطبة مريم: قد تزوّجَتْ ياسمين ياصاحبي.

لم يكد يصدّق كلامي، أحسّ بألَمي حتّى النهاية. سكت ليستوعب جرحي، وقال في لامبالاة:

-ستحبّ غيرها!

- كيف؟

- الزمن كفيل بأن يمحو كلّ شيء!

- سيمحونا نحن، سيمحو الأشياء الجميلة، وسينبت فينا القبح والكراهية.

- يظهر أنّ ظلمتها قد أصابتك.

تركته وذهبت إلى دار جدّتي فكسّرت مزهرية الفخّار، استغرب زوجها ذلك وسألني:

- ألم تكن تحبّ الورد، لماذا تكسّر هذا الإناء الجميل؟

- لم أعد أحبّها، ألم تكره أنت أيّ شيء في حياتك؟

-لا، كرهت، كرهت امرأة كرهتني!

- لماذا؟

- لأنّني أحببتها أكثر من اللازم.

- ربّما أكون قد وقعت في المسألة نفسها.

- كيف؟

- كما تسمع، سحرتني واحدة وتركتني.

- كلّ النساء ككلّ النساء، ستتعوّد على ذلك ولن تحبّ واحدة منهنّ فيما بعد.

- ومن قال لك ذلك؟

- رئيسي في العمل كان يردّد باستمرار:

.mêmes les sont femmes les toutes

عرفت أن اللّعبة أكبر منّي فانثنيت إلى ذاتي، أحيا بحلم مضى، وأفكّر في خلاصي من المحبّة. فهمت أنّ الإنسان أصبح يقهر ذاته.

□ □ □

انكببت على دروسي، وتزوّج عبد اللطيف مريم. كان عمله في الجديدة وعملت مريم في إحدى الشركات في الدار البيضاء. توفي أبوه، وظلّت أمّه تسكن مع (الجامعيّة). أزورها أحيانا فأتذكر طفولتي وفرحي، وأترحّم على زمن مضى قبل أن يكبر. أجدها حزينة متوارية في بيتها تنتظر مجيء عبد اللطيف.

كان يأتي مرّة كلّ شهر، يسألها عن حالها، يمنحها بعض المال، ويذهب إلى شقائه.

مريم تسكن مع أبيها، ويقضي هو أسبوعا في عمله، ثمّ يذهب إليها يوم السبت، ليعود إلى الجديدة يوم الإثنين قبل الصباح! مرّة جاء الى فاس قائلا:

- سنسكر!

أجبته:

- سنسكر!

لم تكن أوّل مرّة أشرب فيها الخمر. كنت قد ذقتها، ثمّ أعدت ذلك عندما بدأت أشعر بعبث لاقيمة له حين تركتني ياسمين.

ذهبنا إلى حانة من هذه الحانات التي كثرت خارج مدينتنا، جلسنا إلى طاولة أنيقة نتهيّأ للشرب، جاء النادل، تجرّعنا كأسا أولى وثانية، نظر إليّ عبد اللطيف نظرة عميقة، أحسست أنّه يريد أن يرجعني إلى زمن مضى، ازدادت حدّة نظره: هل تعرف ماذا فعل أخي؟ اشترى شقّة فاخرة في (الباب الكبير)!

- اشتراها؟ إيوا؟ سكن فيها...

-لا، لم يسكن فيها، يزني فيها بالنساء!

-يزني فيها؟ وزوجته؟

- تركهم في الشقّة الصغيرة في (سْباتا)؛ ليس هذا هو المهمّ، المهمّ هو أنّ أمّه ماتزال كما هي بالرغم من أنّنا صالحناه، لماذا لاتسكن معه، الآن يملك من المال مايكفيه، يتركها هكذا، كأنّه يريد أن ينسى بأنّها أمّه.

- وأنت، لم لاتسكن معها أو تسكن معك؟

- أنا، أنا لم أسكن بعد، أنت ترى أنّني راحل باستمرار. لم تعد مريم تحتمل ذلك، الآن مضى على هذه الحال سنتان، حاولت أن أنتقل دون جدوى، يبدو أنّني

سأسكن في محطات النقل. لايهمّ، لايهمّ، أستطيع أن أتحمّل أكثر من ذلك، أنا مهيّأ لكلّ شيء، المهمّ عندي هذه الأمّ المسكينة، ماذا تفعل وحدها هنا؟ ربّما ستموت كأي حيوان يموت.

تذكّرت أمّ الهادي وشربت كأسا أخرى.

- هل حدّثته بذلك؟

- ذهبت إليه في مصنع (أواني مولاي ادريس)، كانت معه امرأة جميلة، نظرتُ إليه في احتقار، حدّثته عن أمّه، فأغرقني في المشاكل: الشيكات، البنك، الكساد... فتركتُه وخرجت. وجدتُ المرأة الجميلة ماتزال تنتظره في باب مكتبه، عرفتها، في الأصل هي صاحبة صديق له، رأيتها معه في (عين الذئاب)، قدّمها لي على أساس أنّها خطيبته، كانت ترتدي سروالا يلتصق بفخذيها وبطنها، لعلّ أخي سيخطفها منه.

- وما الذي يريده أخوك من هذه المرأة؟

- يريد، يريد أن يعرفه الناس، يريد المال بأيّ طريق.

- وماعلاقة ذلك بامرأة يحبّها أخوك؟

- يحبّها؟ أنت لاتعرف شيئا، أنت ماتزال تجهل الدنيا! يحبّها.

ضحك، شرب كلّ كأسه، نظر إليّ في مايشبه السخرية:

- يحبّها، سيستعملها كما استعمل خديجة، هذه أحسن من خديجة، هذه جميلة، وعا... ولابدّ أن تكون غنيّة! كان كلامه متقطّعا، ربّما يكون حقده هو السبب، يتقطّع كلامه لأنّه موزّع بين طيبوبته وحقده.

- وكيف عرفت ذلك؟

- أنا لاأعرفها هي، أعرفه هو، هو الذي أعرفه.

أدركت أنّ عبد اللطيف على صواب؛ فكّرت في أن يصير بنا الحديث إلى بعض العبث، قلت له:

- دعنا من المشاكل، ماذا سنشرب الآن؟

فهم عبد اللطيف ما أريده منه، أجابني:

-سنشرب الرئيس...

- تقصد Cabernet، بريزيدون، سنشرب الرئيس.

نادى على النادل وهو يضحك: قنينة: Président استدار إليّ:

- هل سمعت برئيس يسمّى: كابرني؟

-لا، لم أسمع بذلك، الرؤساء: دوغول، بومبيدو، جونسون، نيكسن.

- لا، لا، هذا أروع رئيس في الدنيا!

ملأ كأسه، ومدّ إليّ القنّينة، ملأت كأسي، شربتها، قلت أؤكّد كلامه:
- نعم، هذا أروع رئيس في عالمنا المعاصر!
- هو أكبر رجل سياسة في الأرض.
- أكبر رجل سياسة، ديمقراطي.
-يجعل الناس سواسية.
- يفعل ذلك بفطرته، يستسلم له كلّ الناس دون أن يتحايل عليهم.
- كابرني رجل طيّب، يتوصّل إلى مايتوصّل إليه دون غشّ.
- يجعل الناس مطمئنين.
- مط... مئـ... نّين...! تستسلم له وأنت راغب في الاستسلام، أليست هذه هي السيّاسة الصحيحة؟
- هي السياسة.
- ألا ترى أنّه قاس؟
- لا، لا، الويسكي أقسى منه، سياسته عنيفة، يعتمد فيها على القمع.
- ولكنّه يقمع كلّ الناس، أقصد كلّ الأقوياء الذين يشربونه، ألا ترى أنّه عادل في قمعه؟
- نعم، نعم، عادل وقويّ، كابرني إنسان بسيط، يريدك أن تاكل وتشرب وتنام، أليست هذه هي الدّيمقراطية؟
- ويريدك أن تفكّر وتغنّي، هذا منتهى التقدّم!
- مارأيك؟
- في ماذا؟
- في أن ناكل؟
- رأي صائب، هذا منتهى الحكمة.
صاح في النّادل:
- جوج هامبرغر.
أكلنا هَامبرغر وشربنا الرئيس، ومضينا إلى حالنا وسبيلنا.
كانت شوارع فاس خالية، وكانت الظلمة مستبدّة. كنت أردّد أغنية أحببتها في خيبتي:

خَـيـفـان عْـلـيـك مـن ريـاح الـشُّـومْ
ومـواجْ الـبـحـر الـعـاتـي

وتيهانك فوسط غيوم

ومطار غزيرة ومشاتي

راني مايجيني نوم

ومانتهنا فخياتي

حتى ترتاح ايامك اليوم

ويجيك زمان مواتي

زمان يشرق، يطول ويدوم

فيه راحتي وفرحاتي

خيفان عليك، راني مهموم

ولمن نشكي مخناتي

ايلا عشت منك محروم

وغاب هلالك من ساعاتي

قلبي منك وبيك مكلوم

وفيك ناري وجناتي

وانت ديما طاير وتحوم

ومخليني فغفلاتي

حرام عليك تعاتب وتلوم

وتهجر وفايا وعشراتي

وتزيد اتيه فطريق اللوم

وانا فكروبي وحسراتي

وكان عبد اللطيف يحاول إلقاء خُطبة كنّا نحفظها عن ظَهر قلب. قال:
أيّها الناس، اسمعوا وعووووا. كان يطيل كلمة (عُوا) ويمطّطها كعواء الذئاب،
فيضيع صوته بين أحجار المدينة وأسوارها العالية أيّها الناس:

هذا أوان الشدّ فاشتدّي

قد لفّك اللّيل بسوّاق يتيه في التردّي

خطوٌ إلى الموت وخطوٌ للسجون والتحدّي

أيّها الناس:

قد غاب من سمائنا وهمُ الكلام المستبدّ

فخوفنا من صنعنا وقيدنا منَ التقَدِّي

أيّا الناس:

اسمعوا وعوووووا

وتسمعه الحيطان، يضيع صداه في الأفق البعيد بُعدَ مابين السّماء والأرض؛ وأنا أغنّي كي أنسى ياسمين وشجرة الصنوبر وحلمي بأنّه سيكون لي بيت في الجنة.

قلت له:

ما هذه الخطبة؟

أجابني:

هذه خطبة خرساء!

أيّها الناس:

اسمعوا. من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي.

أنا ابن جلا. أنا إنسان تافه لاقيمة له. لا أصنع أواني النّحاس المغشوش.

أعلّم الأطفال والشيوخ! زوجتي في الدار البيضاء وأمّي في فاس وأنا في قبضة الرّيح!

أيّها الناس:

البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم فاشربوا الرئيس كابرني.

ضحكتُ في ذلك اليوم كما لم أضحك في حياتي.

وصلنا إلى منزل جدّتي، فتح لنا الباب رجلها الضرير، دعانا إلى الأكل، أجبناه بأنّنا أكلنا هامبرغر، لم يفهم شيئا، ولكنّه عرف أنّنا سكرنا.

دخلنا إلى الغرفة التي اتّخذتها لنومي وقراءتي، قال لي عبد اللطيف: سننام في سطح الدّار، استحسنت فكرته، حملنا غطاءين ووسادتين، وصعدنا الأدراج في صمت وتثاقل. كان الليل حارّا، أصابني بعض الأرق، وذهب عبد اللطيف في شخيره.

نمت نصف الليل، سمعت أذان الفجر، رفعت رأسي إلى السماء، خاطبت وجه الله:

ياإلهي: قد غرقت ياسمين في الدار البيضاء!

□ □ □

حين استفقت مع أشعة الشمس وجدت عبد اللطيف قد غادر منزل جدّتي، فهمت أنّه يريد الذهاب إلى عمله، ولكنّه لابدّ من أن يرى أمّه قبل ذلك، ويحمل الحقيبة الرّمادية التي كان يأخذها معه في حلّه وترحاله.

سألتني جدّتي:

- هذا هو صديقك الذي تزوّج؟

- نعم، هو.. . .

- ولم لاتتزوّج أنت أيضا؟

ابتسمت وأنا أجيبها:

- إن شاء الله.

فهمتُ من كلامها أنّها تريدني أن أحصل على عمل كما هو الأمر بالنسبة لصديقي. لم تكن في الحقيقة تريد زواجي، بل كانت تلاحظ أنّ أبي بدأ يتراجع ويشكو زمنه، ولذلك فإنّه في حاجة إلى من يعينه. أختي الكبرى لم توفّق في دراستها، والصغرى ماتزال صغيرة، الحياة تزداد غلاء، أبي يعين أخاه المريض على أن يعول ستّة أبناء وزوجة خبيثة وعصبية لاتعذره في مرضه؛ والدّور دوري في أن أتخرّج معلّما!

قال زوجها الضرير:

- يتزوج، après les études.

لم يكن يضيق بي هذا الرجل الطيّب. وقد كان يعينني في كلّ ما أريده، يمنحني بعض المصاريف، يشتري لي كتابا أو كتابين، يسألني إن كنت راغبا في الذهاب إلى السينما أو المقهى. بل كثيرا ماصادف عند (السلاوي)، بائع الكتب المستعملة، بعض المجلاّت فحملها معه إلى المنزل ووضعها فوق الطاولة العتيقة كي أقرأها. هل أصاب الزّمنُ المحمومُ جدّتي أيضا؟

لاأظنّ ذلك. ولكنّها من محبّتها لأمّي التي كانت ابنتها الوحيدة، أرادت في وقت ما أن أعي بأنّ الفاقة قريبة منّا، فعليّ أن أتحمّل المسؤولية في هذا الفقر الذي سيصيبنا.

حين يسكر الإنسان، لابدّ من أن يكون قد أصبح رجلا، ولذلك فإنّه في رأي جدّتي مسؤول عن مصاريفه، وقادر على أن يتزوّج ويستقلّ بنفسه.

- إذا تزوّجت أعطيتك هذه الغرفة الكبيرة وسكنت أنا في الغرفة الصغيرة!

أدركت أن محبّتها لي شيء لايمكن أن ينهار. أجابها زوجها:

– laisse le tranquille.

كأنّه كان يبعدها عن رأيها الراسخ في الخمر والمخمرين.

أحسست ببعض الخجل. خاطبتها:
- سأتزوّج، سأتزوّج. فهمَتْ أنّني غضبت لكلامها فضحكت تقول:
- أنا لاأريد إلاّ مصلحتك. متى ستدخل إلى الجامعة؟
- في نهاية هذه السّنة.
- انبسط وجهي، نظرتُ إليها في إعجاب، تداركتُ كلامي.
أقصد نهاية السنة القادمة، حين أنجح في الباكالوريا، سأحصل على منحة ضخمة!
- وبعد الجامعة!
- سأتزوج!
- et il aura beaucoup d'efants !
- ماذا يقول هذا النّصراني (لَعْور).
ضحكنا. يقول:
- إنّني سأتزوج أربع نساء.
قامت من مائدة الفطور وهي تتمتم:
- أنتما على ملّة واحدة، متفقان ضدّي، اليوم سأذهب لزيارة أمّك.
لم يكن كبر السنّ قد نال منها كثيرا. كانت ماتزال قادرة على العمل، حين كثر صنع الملابس الداخلية للنساء، تحوّلت من خياطتها إلى الطرز الذي كنّا نسمّيه (الغرزة). تغرز خيوط الحرير في الثوب، وترسم من غرزاتها الدقيقة أشكالا رائعة من المثلثات والمربعات المتداخلة في انسجام مدهش.
كان كلّ ما في هذه الجدّة يحدّثني بأنّ الدّنيا ماتزال تدور، وبأنّ أصل العالم إنّما هو الإنسان. ما قيمة الأشياء وجدّتي تقول حين أشكو لهاخيبتي في ياسمين:
- ستظلّ تحبّك إلى أن تموت، ستظلّ تحبّك!

□ □ □

كان عليّ في ذللك الصباح أن ألتقي ببعض الأصدقاء في المقهى، أشرب قهوة سوداء، وهو ما اتخذته عادة لاتتبدّل، وأقرأ جريدة أو جريدتين لم أعدل عن قراءتهما فيما بعد.
لم تكن صداقتي لهؤلاء متمكّنة أو دائمة، بل كانت تتغيّر في كلّ حين. كلّهم كانوا سواسية بالنسبة إليّ. لم أجد من بينهم من يشبه عبد اللطيف. وأظنّ أنّهم لم يجدوا في المقهى مايشبه صداقاتهم الحقّة. كنّا نجلس مايفوق الساعتين، ونتحدّث في

كلّ شيء إلاّ عن قلوبنا. في الجنس في السياسة في الثقافة والمستقبل؛ ولكنّنا لانتجاوز في كلّ ذلك حدود ملامحنا البيضاء والصفراء والمتلوّنة. نتحدث لنتحدّث، وننفض ثيابنا ممّا قلناه وأعدناه ثمّ نذهب لسُبُلنا المختلفة.

في هذا الوقت بدأت أعرف النفاق والمَجاملة والكذب، وفيه اكتشفت أن الزّور بدأ يتمكّن منّي. لم أكن أرغب في ذلك، كنت أحسّ أنّني مدفوع إلى هذا النوع من البهتان رغما عنّي، كأنّه بهتان يعاكس إرادتي، يسير ضدّها ويثنيها ضدّي! أصبحت رغبتي تنفلت منّي، بدأت أنفصل عن ذاتي. تمكّن منّي شعور قويّ بأنّني أخرج من زمن إلى زمن.

أحيانا أضيق بجلسات المقهى فأذهب إلى طريق خالية أو بجانب بستان لم يصبه المتر المربّع، أقرأ كتابا وأتيه في ذكرى ياسمين، وأحيانا تستبدّ بي لعبة النفاق والمداراة فأعود إلى المقهى. كانت ثرثرتنا أكبر منّا، وكنّا - عدا مانقرأه في الجريدتين - نحسّ جميعا بأنّنا على الهامش.

أكبرنا سنّا كان يدرس في الرباط. يأتي إلينا بين حين وآخر، يتحدث إلينا في غرور كبير عن ماركس وكامو وسارتر وفرويد. كان حادّاً في كلامه، جريئا إلى حدّ الخبث، يطلق على كلّ منّا مصطلحا جديدا لانعرفه. أنت نرجسي، أنت سادي، تعاني من عقدة أوديب. وأنا سمّاني المنكفئ. وقد كنت منكفئا حقّا، أحبّ زمن عبد اللطيف و(بريكة) وياسمين! ولكن مصطلحاته كثيرا ماتناقضت واضطربت من جلسة إلى جلسة. أحببت فيه نهمه للمعرفة وكرهت فيه خبثه وغروره. ربّما علّمَتْه فلسفته ألاّ يداري أحدا؟ ولكن لماذا لايسمّي نفسه بهذه المصطلحات؟ لماذا يقصد بها الآخرين فقط؟ ربّما يخاف ذاته فيحولّها إلى الآخرين؟ ولكن: هل أصل الإنسان عيوب وعقد لاتنتهي؟ لماذا لايكون أصله العقل والإرادة والمحبّة؟ لاشكّ أنّ فلسفة الخبث فلسفة مدمّرة؟ في الوقت الذي يدمّر فيه كلّ شيء تدمّر الفلسفة أيضا؟ قد دمرّت مزهرية الفخار التي كنت أضع فيها ورود ياسمين فلابدّ أن يكون تدميرنا أكبر من كلّ تدمير.

مرّة سألت صاحب الفلسفة:

- ما الفلسفة؟

قال:

- هي محبّة الحكمة...

فهمت أنّ حكمته مختلّة فأجبته:

- ليس من الحكمة أن توزّع علينا عقد الدّنيا وتترك نفسك بدون عقدة؟

- أنا أريد تعريتكم!

- ولم لاتعرّي نفسكِ أوّلا، ربّما تقصد أنّك تغطّي عيوبك.
- أنا واع وأنتم متخلّفون.
- وكيف تستثني تخلّفك، هل نشأت في محبّة الحكمة؟
قال أحدنا:
- في محبة الحكمة الخبيثة.
أجاب آخر:
- أراكم تتحاملون على فيلسوفنا.
أضفت:
- بل على عالم نفسنا.

تصاعدت حدّة نقاشنا، ولكنّها في مجملها كانت حدّة مصطنعة. لم يكن يقصد الفيلسوف الخبيث إلاّ أن يتظاهر بتقدّم وعيه، يريد أن يتميّز، ويشعر بكثير من التفوّق الزائف. ولم نكن نحن نريد في الأصل إلاّ معارضته، نحاول أن نتدارك بعض جهلنا في أن نقف ضدّه.

أعجبت بحدّة الوعي لديه، حاولت اللحاق به، اقتنيت بعض المجلاّت والكتب بقصد توسيع معلوماتي، لم أكن أختار ما أقرأ، أطالع كلّ شيء، أجمع في ذهني شتاتا من الأفكار المتعددة، أقرأ في نهم وأحاول نسيان خيبتي!

كان المقهى بالنسبة إليّ وسيلة للخروج من وحدتي، أجلس فيه لأنسى ذاتي المبعثرة، أحاول أن أجد بين رواده شخصا أشكو إليه ألمي؛ أحكي له أيّ شيء من قلبي وذكرياتي المنسية، أفتح له نفسي فأحسّ بصدقي بعد أن فقدته. ولكنّ العكس هو ماوقع! أصبح لديّ إحساس غريب بالزيف، بدأت أفقد الثقة في كثير من الأشياء، لم تعد المقاييس واضحة في ذهني، أصبح الإنسان بالنسبة إليّ لعبة لابدّ من ممارستها في كثير من الحذر.

أتأمل ذاتي وأقول: لماذا تتغيّر الدّنيا هكذا فجأة، تأكدّت أنّنا لسنا مانريده من أنفسنا، بل الحياة تفعل بنا ماتريده هي! ولكنّني حين يأتي عبد اللطيف إلى فاس أنسى كلّ قلقي، أعاود معه أيّام الصدق والمحبّة فأرتاح من عناء الدنيا وأواصل طريقي لهدف لم أعد أعرفه.

يأتي إلى فاس فيتحدث عن أخيه في كثير من الكراهية التي لم أعد أعتبرها حقدا بعد أن عرفت دورة الأيّام وانقلابها.

حدّثني في المرّة الأخيرة التي رأيته فيها طيّبا، متنقّلا بين الجديدة والدّار البيضاء، ماتزال به جذوة الطموح إلى أن يكون له بيت يجمعه بمريم، حدّثني عن أنّ أخاه قد تزوّج.

كنت أتوقّع ذلك، لم يفاجئني عبد اللطيف بالخبر، لم تكن خديجة بالنسبة لأحمد سوى ممر وطيء للنحاس، كانت أيّامها قدَرا لابدّ منه، لم تكن تلائمه في فاس، فكيف تلائمه في الدار البيضاء؟ ربّما سيتخذ هذه المرأة الجديدة طريقا إلى نحاس آخر، سيسمّيه هذه المرّة أواني (سيدي بليوط)، أو لن يسمّيه بأيّ اسم، سيكتفي بصناعة أيّ شيء ويقطع الدار البيضاء طولا وعرضا وبشكل دائري.

- ومَن هذه التي تزوّجها أخوك؟

- المرأة التي وجدتُها عنده في المعمل؟

- التي وجدتها عنده في المعمل؟ مااسمها؟

- عزيزة بنت السعداني!

صحت باسمها دون أن أشعر بذلك.

- هل تعرفها؟

- وأعرف أباها أيضا!

- كيف؟

- في رحلتي إلى الدّار البيضاء، وفي معاناة جدّتي ونور عيني زوجها!

لم يفهم عبد اللطيف من قولي شيئا؛ وصَفت له عزيزة: شقراء، جميلة، تطفح بالشبق والغريزة، ترتدي نصف ماترتديه النساء. ثمّ وصفت أباها: عصبيّ، مختنق بدمه، اسمه السعيدي، يبيع أيّ شيء، يسكن في درب السلطان.

- لا، بل يسكن في عين الذئاب.

- كان يسكن في درب السلطان وتحوّل إلى عين الذئاب!

- دين الكلب!

- من؟

- أخي! اشترى دارا في درب السلطان، هي دار السعيدي يخبئ فيها سلعته.

ارتبط النحاس في ذهني بالغاز الذي كان يبيعه السعيدي في دار جدّتي، حكيت لعبد اللطيف مبدأ الحكاية فلعن الدّنيا ومايأتي منها.

- الآن إذن تزوّج عزيزة. وأبناؤه؟

- تركهم لأمّهم. وهو الآن في فاس!

- فاس، ماذا يفعل فيها؟

- سيبيع حانوت الصفّارين، تجذّر الآن في الدّار البيضاء، الحانوت لم تعد تملأ عينيه: يصنع اليوم النّحاس، ويصنع معه سائلا لمسحه كي يبدو نحاساً حراً وهو مغشوش، يبيع النّحاس ودواءَه، أقصد الغشّ ودواءه.

تحدّثت لعبد اللطيف عن صاحب الفلسفة، فضحك قائلا:

- عليه أن يحلّ هذه العقد أوّلا، لم يبق للفلسفة إلاّ أن تطبّق في المقاهي، يظهر أنّنا أصبحنا ناخذ كلّ أمر من ذيله. سيأتيكم في المرّة المقبلة ملحدا وشيوعيا.

- كيف عرفت ذلك؟

- جلست مع واحد يشبهه في الدار البيضاء، يتبدّل في كلّ يوم بين فرويد وسارتر وماركس، ليست له فلسفة واحدة أو فلسفتان، هو خليط من المذاهب، ولامذهب له!

- وإلى أين سيصل؟

- سألته عن ذلك، أجابني بأنّ الفلسفة تعني الحريّة، والحريّة ثورة دائمة، والثورة تكمن في أن نتغيّر كلّ يوم، ومن لم يتغيّر حكم عليه بالموت.

حين سمعت لفظة الموت أحسست أنّ في فلسفة الخبث غشّا لابدّ من أن يرتبط بغش أحمد، اقتنعت بأنّ هناك من يدمّرنا من طريقين اثنين: طريق النحاس وطريق (الفلسفة).

ولكنّني بالرغم من ذلك أُخذْت بهذه الفلسفة التي يتشدّق بها صاحبي في المقهى، أردت أن أتعرّف عليها بأيّ ثمن. سألت عبد اللطيف:

- ومارأيك أنت؟

- في ماذا؟

- في الفلسفة؟

- رأيي هو أن تنبع فلسفتنا من ذاتنا.

- كيف؟

- إنّ هذا الذي تسمعه من صاحبك وأسمعه من صاحبي شيء لاقيمة له، كلام سطحيّ أكثر من اللازم، يتخذ للتصدير والاستيراد، كما تتخذ سائر السلع، الفلسفة هي بناء الإنسان، أنت تلاحظ أنّ صاحبك مليء بالخبث، ولكنّ خبثه سيدور عليه في آخر المطاف!

- وماهي الفلسفة الحقيقية؟

- هي مانؤمن به في داخلنا، هي أن نتّخذ من الفكر والحرية طريقا لطمأنينة الإنسان وسعادته!

- وسبيلنا إلى ذلك؟

- أن تكون لنا فلسفة بين الفلسفات، أن نصنع أنفسنا بطريقتنا الخاصّة. قوي لديّ الشعور بأنّ عبد اللطيف حين خرج إلى الحياة تعلّم أشياء جديدة هي التي يتحدث بها. كنت قد تقدّمت قليلا في دراستي، ولكنّني اقتنعت بأنّ الحياة أهمّ بكثير من ثقافة المدرسة. ألم يتعلّم أبي من الحياة تاريخا لاأكاد أعرف منه شيئاً؟ أليست جدّتي أعظم إنسان عرفته؟ وزوجها، أليس طيّبا أكثر من أيّ فلسفة في الدّنيا؟ ألم تكن

(بريكة) شعلة حياتي؟ ألم تعلّمني ياسمين محبّة الأشياء الجميلة؟ وبالرغم من كلّ ذلك كنت مصراً على أن أدرس الفلسفة. قلت لعبد اللطيف:

- سأدرس الفلسفة؟

- ادرسها، ولكن إيّاك أن تنهار داخلها!

- أنهار داخلها؟ كيف؟

- بأن تسلبك حريتك وذاتك!

نجحت في الباكالوريا، وحدّثت أبي بأنّني سأتخصّص في الفلسفة. ضحكت أختي الصغرى وهي تقول:

- سينتهي أمرك إلى الجنون، أنت نصف أحمق، وستزيدك الفلسفة حمقا، ستصبح مجذوبا.

أمرها أبي أن تسكت وخاطبني:

- لماذا لا تصبح محاميا؟ المحاماة مهنة شريفة؟

- نعم، نعم، ولكنّني سأدرس الفلسفة.

- وماالذي أعجبك فيها؟

- أعجبني، أعجبني: الفلسفة.

صاحت أختي:

- رأيت، إنه نصف أحمق.

زجرتها أمي قائلة:

- وماذا ستصنع بالفَلْفَسَة؟

ضحكت أختي الكبرى، وصحّحت لها نطقها المائل، فأعادت أمّي السؤال دون أن تنطق الكلمة الخاطئة.

أجبتها:

- سأصبح أستاذا، أو فيلسوفا إن أمكن.

نظر إليّ أبي نظرة استغراب، ثمّ خاطبني في جدّية:

- نعم، شيء جيّد، الأستاذ شخصية محترمة، ولكن دعك من هذه الفلسفة، بإمكانك أن تكون أستاذا للتاريخ، أو للعربية، ألم تقل إنّك تحبّ الشّعر، لماذا لاتدرّس الشعر؟

- الشعر والفلسفة متقاربان، من الممكن أن يكونا شيئا واحدا.

شرقت أختي بكأس اللبن الذي كانت تشربه، نظرت إليّ بعينين جاحظتين ونطقت في ضحك صاخب:

- ربّما ستكون أبا العلاء المعرّي!

زجرتها أمّي قائلة:

- المَعرِّي، يلعنك الله، اللّه يعريّك انتي.

أجابتها أختي الكبرى:

- المعَرِّي، ماهذه الكلمة؟

- هذا شاعر!

- شاعر، ماذا يصنع؟

- يقول الشّعر!

تظاهرت أمّي بالفهم، هزّت رأسها قليلا، وخاطبت أختي الصغرى:

- المهمّ أنّه سيصبح أستاذا، أنت ماذا ستكونين؟

أجابتها:

- فيلسوفة، فيلسوفة.

كانت تسخر منّي، وكنت أحبّ سخريتها تلك. هي دليل على محبّتها لي وعلى اهتمامها بجزئيات حياتي. كانت تعرف صدمتي في ياسمين، وتتعاطف معي في حزني الدائم. كانت رقيقة في أحاسيسها ولكنّها كانت تميل باستمرار إلى الضحك والسخرية. ولكن سخريتها سخرية بريئة طيّبة. لاتصدمك أو تثيرك. هي سخرية المحبّة إذا لم أكن مخطئا، تسخر منّي بقدر ماتحبّني، ولذلك لم أكن أجيبها أو أوقفها عند حدّ معيّن، بل كنت أبعثها أحيانا على أن تسخر منّي.

كانت ترى بين يديّ بعض كتب الفلسفة بعد أن دخلتُ إلى الجامعة فتتعمّد نطقها بشكل معوَج، وكنت أستحسن منها ذلك وأضحك: تقرأ فرويد: (فرُّويدٌ)، وماركس: (مَارَكَس)، وسارتر: (سَارتَرٌ)، وبرجسن: (برجُّسَنٌ)... وما إلى ذلك من الأسماء المشوّهة التي تسخر منها ومنّي. كأنها كانت تصرّ على أن تنطق هذه الأسماء بالعربية. مرّة رأت عندي (غريب) ألبيركامي فقالت:

ألبيرُ كَامي، ماذا يكمي البير؟

ضَحكتُ، وتركت الأمور تسير على حالها، وعرفت أنّ كلّ شيء قد أصبح عبثا، وأنّ محبّتي التي فقدتها هي محور العالم. والآن بعد أن فقدتها أصبح العالم بدون محور، أو إنه يدور حول محور وهميّ. أختي على حقّ في سخريتها وإن كانت لاتدرس الفلسفة.

قرأت كامو، فصادف في نفسي شعورا دفينا باللامبالاة، وبأنّ الدّنيا تسير على هواها، وبأنّنا لانصنع الأشياء بإرادتنا. كانت الخيبة قد ملأت كياني، وكنت قد فقدت محبّتي للأشياء الجميلة. فليفنَ العالم بعد ياسمين أو فليَسرْ كما يحلو له. بدأت غربتي تتناسل داخل صدري، لم أعد أستطيع الانسجام معَ الناس، فقدت

انشراحي وفرحي إلى الأبد، أحسّ باستمرار أنّ اللغة لاتسعفني في ماأريد قوله، أتذكّر خرس حسناء، وأقول: ربّما سأصاب بالخرس أنا أيضا، وماهذه الفلسفة التي استولت عليّ؟ هل هي الحقيقة، أم أن الفكر لاعلاقة له بالحقيقة؟

أخبرني عبد اللطيف أنّه طلّق مريم فازداد عبثي رسوخا، تأكّدت أنّ الدّنيا تسير في اعوجاج، وأنّ الأشياء ليست كما يجب أن تكون. جاء عبد اللطيف إلى فاس يبكي، كان متألما يحسّ أنّ الدّار البيضاء قد قتلته. سألته بعد أن سكرنا:

- ولم طلّقتها؟

- تركب مع مدير الشركة، في سيارته!

- تركب مع مدير الشركة، وتطلّقها أنت، غريب.

- ماالغريب، رأيتها معه، قالت إنّه يوصلها كلّ يوم، حاولت إقناعها...

قاطعته:

- مريم، لا، لايمكن، أنت خاطئ، ماالخطأ في أن أن تركب سيارته؟ هي زوجتك؟

- نعم زوجتي التي لابدّ من أن تخضع لإرادتي، أريد أن أراها كما أريد.

- عبد اللطيف، هذا استبداد.

- لايهمّ، أنا لا أستطيع أن أعيش معها على هواها، قلت لها إنّي لاأشك في سلوكها، وفي أنّها ابنة (السي المعطي) رحمه الله، ولكنّ الأمر يتعلق بكبريائي، ماذا ستخسر لو ركبت الحافلة؟ ألا أركب أنا من الجديدة؟

تذكّرتُ أباه، قلت في نفسي: إنّه ورث منه أشياء كثيرة. سألته:

- وهذا المدير، ألا تعرفه؟

- أعرفه؟ ماذا أفعل به؟ أنا أريد زوجتي، أليس لي الحقّ في أن تخضع لي؟

- لا، ليس لك الحقّ في ذلك، يجب أن تفهم أنّها إنسان، هل تريد أنتَ أن تكون خاضعا؟

- خاضعا؟ نعم أنا خاضع! لماذا أتحمّل كلّ هذه المشقّة؟ هل خلقت وحدي للتحمّل؟ عليها أن تتعب كما أتعب!

- التعب شيء والخضوع شيء آخر، ألم تتفاهم معك؟

- لا، لا، تفاهمت، وعدتني ألاّ تركب إلاّ الأتوبيس، تعمدّتُ أن أرجع إلى الدّار البيضاء يوم الإثنين، خرجَتْ من عملها ولم تركب الأتوبيس، دعوتها إلى أن تترك هذا العمل الذي يسبّب لنا المشاكل، رفضت.

- لها الحقّ في أن ترفض، هل تتصوّر امرأة بدون عمل! هذه قمّة الانهيار.

- يلعن بُو فلوسها، آكل الخبز والزيتون!

- ليست المسألة ماديّة، المسألة أكبر من ذلك، أنت تتشبّث بامرأة منهارة، لاقيمة لها، تاكل وتنتظر؟ ثمّ بعد ذلك هل تستطيع أن تتزوّج امرأة أنت مسؤول عنها؟ لماذا لاتتركها لمسؤوليتها؟

توتّر عبد اللطيف، نظر إلى سقف الحانة، تفحّص ملامحي، خاطبني:

- كيف حال الفلسفة؟

فاجأني بسؤاله، تداركت توتّري، أجبته:

-بخير، اقرأ الآن كامو، قرأت أخيرا: (سوء تفاهم)، فكّرت أنّ هذه المسرحية ستعجب عبد اللطيف، قلت له:

-سأعيرك هذا الكتاب، ربّما يعجبك!

- دعني من الكتب، أنا أفكّر في شيء آخر، في أن يكون لي مصنع أو تجارة مغشوشة، قد قتلتني فكرة الخيانة ياصاحبي.

فهمت أنّ لعبة الدّار البيضاء قد سيطرت عليه، ستدمّره فيما أعتقد، ستقتله حقّا.

- هل تظنّ أن مريم قد خانتك؟

- لا، لم أقل هذا، ربّما تكون الخيانة شيئا في نفسي، أنا لم أعد أصدّق الدّنيا من حولي، فقدت ثقتي في الناس. ذهبت إلى أخي في منزل عزيزة، أريد أن أشكو له ألمي، ثمّ أستشيره في أن أطلّق مريم. وجدت عنده بعض المدعوين. رجال ونساء، كلّ واحد منهم يرقص مع زوجة أو صاحبة صاحبه. كانت عزيزة في ثوب أحمر شفّاف، لاأدري كيف شممت في رائحة ثوبها لون الدّم، وكانت تدخّن، وتشرب الخمر، تتحدّث في المال والأرض والنساء. طلب منها أحدهم أن ترقص رقصة شرقية. ربطت في نصفها منديل حرير أزرق، تظاهرت بضيقها من اختناق البيت بدخان السجائر، فتحت أزرار فستانها، أمرت أحمد أن يطفئ كلّ المصابيح إلاّ مصباحا فاترا يضيء جسدها، وأخذت تتكسّر مع تصفيق الناس ونغمات الصخب، بصقت في الأرض وقلت: لعن الله النساء! قد كفرت بالنساء، وطلّقت زوجتي، مارأيك؟

- إنّك خاطئ!

- أعرف هذا ولكنّني لا أستطيع أن أتحمّل.

تأكدت أنّ الدّنيا قد دارت دورة واحدة، أصابتنا في قلوبنا فلا نستطيع منها فكاكا، أخذت تتسلّط علينا واحدا تلو الآخر، تاخذ منّا ماتحبّ، لتجعلنا بعد ذلك نحبّ مانكره. سألته:

- أما تزال تحبّها؟

- بكلّ تأكيد، ولكنّني وطئت قلبي وتركتها تفعل بنفسها ماتريد.

- لن تفعل شيئا، قد كسّرتَ هذه المرأة، كان عليك أن تقنعها أكثر.

حاولت، كانت تقول: إنّ عليّ أن أوفّر لها بيتا، وأستقرّ معها. أجبتها بأن ظروفي لاتسمح بذلك، دعوتها إلى أن تنتقل إليّ وتترك العمل، فهمَت من ذلك أنّني أريد فصلها من عملها كي أتحكّم فيها، ماالعيب في أن يتحكّم الزوج في زوجته؟ مع من تريد أن تلد أبناءها؟ مع شخص لاسلطة له عليها؟ لايمكن! إنّها لم تعد تحبّني، أصبحت تكرهني، تصارعني، تريد تدميري لأنّني لم أستطع أن أكوّن معها بيتا مستقراً. قلت لها: إن الأمر ليس بيدي، أنا لاأكره أن أستقر معها، كان عليها أن تنتظر.

يتحدّث عبد اللطيف ويسكر ويدخّن سيجارة بعد سيجارة، عيناه محمرّتان، حركاته مضطربة، يتكلّم وينظر في كل الاتّجاهات، تذكّرت مرضه القديم، خفت عليه، قلت له بلهجة صدقنا القديم: النساء غيرها كثيرات، أزوّجك أختي إذا أردت!

- لا، لن أثق في امرأة بعد مريم، قد طلّقت كلّ النساء حين طلّقتها.

أحسّ أنّني أجامله، أدعوه إلى أن يتناسى ألمه، استأنف كلامه:

- هل تعرف ماذا قال لي أخي، استهزأ بي، ضحك ضحكة عالية وهو يتمتم:

- تركب مع مديرها؟ مع مديرها؟ وستطلّقها؟ أنت معلّم ناجح، وربّما تكون عبقرية مغمورة، هل يطلّق الرجال النساء لأنهنّ يركبن مع مدرائهنّ؟

حدّثته أنّني أريد أن تكون زوجتي مطيعة لي، تحت سلطتي، أحسّ أنّني أعرّض به، أجابني بسرعة:

- أنا الآن في حفل مع أصدقائي، دعني من مشاكلك، تكفيني مشاكلي.

لطمت الباب في وجهه وخرجت، جلست في مقهى بالباب الكبير، تأمّلت الدّنيا وجدت أنّها قد اعوجّت، أصبحت في شكل آخر لاأعرفه، ماذا تريدون منّي، أن أراها معوجّة فأسكت أو أسير معها، سأحاول، سأصبح مغشوشا كأخي.

- لا، ليس هذا هو الحلّ، إنّ الإنسان حين يشعر بالخيانة يشكّ في كلّ شيء حوله، ربّما يكون شعورك خاطئا، ربّما تسعى الآن إلى تدمير نفسك بعد أن دمّرت زوجتك. ماذا تقول؟

- لا أقول شيئا، سأبيع الفوقي وأنتقل بأمّي إلى الجديدة، ويفعل الله خيرا.

□ □ □

ذهب عبد اللطيف إلى الجديدة، وبقيت وحدي في فاس. طلّق مريم فازددت يأسا من الدّنيا. تساوت الأشياء بالنسبة إليّ. لم أعد أفكّر في المستقبل. يأتي الزمن أو

لايأتي. كلّ شيء قد أصبح ككلّ شيء. أخذ ارتباطي بالماضي يسيطر عليّ. يبحث الزمن داخل صدري عن ذكرياتي الطيّبة، يسكن في محبّتي القديمة. أنظر إلى المستقبل في كثير من الازدراء، لاأتوقّع منه أيّ محبّة أو فرح.

أنظر إلى الأشكال التي ترسمها جدّتي في أثوابها البيضاء الجميلة وأقول في صمت: إنّ الأيّام ماتزال قادرة على أن تستمرّ بشكلها القديم. وأسأل أختي عن قيمة الفلسفة فتجيبني بأنّ الفلسفة صنعت للدّار الآخرة. احترت ماذا أفعل في الدّنيا، هل أقتل نفسي في الماضي الذي عشته في فرح ومحبّة رائعة، أم أسير أعمى إلى زمن أكرهه؟

أين ياسمين الآن؟ ضاعت في مسيرة رهيبة! قتلت كأيّ حشرة تافهة! هي أجمل ماعرفته في حياتي، هي محبّتي التي لايمكن أن أتخلّى عنها، ثمّ تقتل كأيّ حشرة! لايمكن، سأستردّ محبّتي، سأبعثها حيّة راقصة بين ضلوعي. لن أتخلّى عن ذكرياتي الجميلة. سأكون في هذا الماضي الذي يريد الزمن أن يمحوه من صفحة قلبي. لن أنسى عشق شفتيها، عينيها الجميلتين، قامتها السمراء، وجهها الذي يشبه لون العسل، نهديها الممتلئين، ردفيها المتكسّرين كقوس الغمام، لحظاتي معها بين المحبّة والرعب، رحلتي خارج المدينة، ثمّ ليلتي وأنا أضمّها إليّ تحت الصنوبرة العتيقة. هي محبّتي الكبرى، فهل تريدون من الناس أن ينسوا محبّتهم؟

لا، لن يحدث أن أنساها، هي نبضة قلبي، بها أحيا أيّامي القادمة، سأستردّها، لن ياخذها منّي رجلها الأصلع، لن تغرق بين البحر والطرقات المختلطة، سأقبّلها مرّة أخرى، سأضع صدري فوق نهديها وأموت في دقّات قلبها، سأنام فوق ذراعها ونسبح معا في سماء الدّنيا. هل يمكن أن أتخلّى عن روح تسكنني وتتيه بين عينيّ؟ سأبحث عنها في الدّار البيضاء، وسأجدها. سأحبّها محبّتين أو محبّة ثالثة إن أرادت منّي ذلك وستريده. ياسمين هي الذكرى والموت، ياسمين هي الحياة التي لايمكن أن تنتهي أو تتوقّف. لا يمكن أن أتركها امرأة ضائعة بين الصّلع والتفاهة. هي محبّتي، فهل يتخلّى الإنسان عن محبّته؟

كنت في المقهى، مرّت فتاة تشبهها، أو بدت لي أنّها تشبهها. استرجعت الماضي، رأيت حلمي يرقص في مهبّ الرّيح، قلت هي ياسمين قد عادت إليّ، قد فشلت رحلتها في الدار البيضاء. قمت من مكاني، نسيت أن أؤدي ثمن القهوة، نادى عليّ النادل، لاحظ اضطرابي، قلت له: سأعود بعد قليل، سأعود بعد أن أرى ياسمين، سأعود حين أراها. كانت في يدي رواية (الطاعون). كنت قد قرأتها مرّتين، وبدأت قراءتها للمرّة الثالثة. ترصّدت من بعيد خطوات الفتاة التي تشبه محبّتي، كانت جميلة، سمراء كعيني أمّي، تسير في خطوات هادئة، ترتدي فستانا

بنيّا يشبه أشعّة الشمس. اقتربت منها، نظرت إليها في دهشة، هي ياسمين فيما أظنّ. قلت لها في سذاجة:

- أنت ياسمين؟

لم تجبني. أعدت السؤال، ضحكت وهي تنظر إليّ في استغراب، ثمّ نطقت:

- لا، لست ياسمين، أنا سعاد!

ضغطت على رواية (الطاعون) التي كانت تحت إبطي، وسألتها:

- سعاد؟

- نعم، سعاد، ماذا تريد؟

الحقيقة أنّني لم أرد إلاّ أن أعثر بين الناس على ياسمين، فماذا أقول لهذه المرأة؟

- أريد، أريد محبّتك؟

استغربَتْ طريقتي في الحديث، ابتسمت، نظرت إليّ في تفاهة، خاطبتني:

- محبّتي؟ هكذا، دون أن تعرفني؟

- لا، أنا أعرفك من زمن قديم!

- أين؟

- في الحديقة، تحت الصنوبرة، في المولى إدريس. . .

اتّسعت عيناها، نظرت إلى حذائي، سألتني عن اسمي وعملي، ثمّ ركبنا سيارة أجرة إلى المدينة الجديدة.

لاحظت أنّ الناس يسيرون في سرعة، اختلطوا أو كادوا بعجلات السيارات، منهم من يشبه درّاجة نارية، ومنهم من يشبه عجلة واحدة.

قلت لسعاد:

- أين تريدين أن نذهب؟

أجابتني:

- هل تدخّن؟

- لا، ... أدخّن أحيانا...

- أنا أدخّن في كلّ وقت...

اشتريت علبة مارلبورو، جلسنا في مقهى صغير خلف الشارع الذي اصطخب بالمارّة والعجلات. طلبت سعاد مثلي قهوة سوداء. أشعلت سيجارتها، نظرت إليّ قائلة:

- تبدو حزينا؟

- نعم أنا حزين هكذا، دائما أفكّر في شيء افتقدته.

لم تُعر كلامي أيّ اهتمام، نظرت إلى ساعتها، كانت الساعة تشير إلى ماينامز

الخامسة. خاطبتني:

- هل تاكل شيئا ما؟ أنا جائعة.

نادت على النادل، طلبت هامبرغر وكأس برتقال، أكلَتْ في نهم، دخّنت سيجارة ثانية. فتحت حقيبتها الصغيرة، تناولت منها مجلّة ملوّنة، أخذت تقلّب صفحاتها، لم تقرأ منها شيئا، تنظر إلى صور الأقمصة والفساتين، إلى وجوه ملوّنة بالمساحيق وأحمر الشفاه.

ضقت بصمتها، بلا مبالاتها وأنا جالس إلى جانبها كرجل لا تعرفه. قلت لها:

- ألم تحبّي في حياتك؟

هزّت كتفيها:

- أحببت أكثر من مرّة، لم أجن شيئا من المحبّة، أتساءل في كلّ مرّة: هل هذه هي المحبّة؟ وأقنع نفسي بأنّ الدّنيا هكذا، علينا أن نقبلها.

أدركت أنّني أخطأت الطريق إليها، أعدت سؤالي:

- أقصد المحبّة الحقيقية؟

- آه، هذه لاوجود لها، كانت في الزمن القديم، اليوم علينا أن نلتقي ونفترق، ثمّ ينتهي أمرنا.

شعرت إزاءها بغربة كبيرة، تكوّن لديّ إحساس عميق بأنّني أنتمي إلى تاريخ عتيق.

طلبت منها سيجارة، ناولتني العلبة، أشعلتْ سيجارتي في حركة أنيقة وسألتني:

- قلتَ إنّك تدرس الفلسفة، عجيب، ولكنّ الفلسفة لا توجد في الحياة، هل تفعل شيئا غير الفلسفة؟

أجبتها في سذاجة:

- لا، لا أفعل شيئا.

- المهمّ، ماذا تريد منّي؟

- لا شيء، لاشيء...

ضحكت ضحكة خفيفة، نظرت إلى باب المقهى، سألتني:

- هل سنلتقي مرّة أخرى؟

- لابدّ، غدا إذا أردت ذلك؟

- غدا، في هذا المكان أيضا، الساعة الرابعة.

□ □ □

ذهبت إليها في الثالثة والنصف، وجدتها تنتظرني؛ كانت تشرب قهوة سوداء وتدخّن مارلبورو كعادتها، نظرتُ إليها في تمعّن، أتفحّص عينيها، أنفها، شفتيها، ابتسامتها المصطنعة؛ وجدت أنّ الفرق بينها وبين ياسمين فرق لا حدود له. وجهها يشبه وجه ياسمين، ولكنّها لا يمكن أن تكون هي ياسمين. كلّ شيء فيها معكوس. هي جميلة حقًا، ولكنّها فاترة الملامح، حزينة كياسمين، بل منهارة من داخلها، ثمّ تصطنع الفرح فتبدو متناقضة وممزّقة. تثير في نفسك الشفقة والخوف في آن واحد، تحسّ أنّها قويّة وضعيفة إلى أبعد حدّ ممكن. سألتها:

- هل تقرئين شيئا غير هذه المجلاّت الملوّنة؟

- أقرأ الأشرطة المصوّرة، ألهو بالكلمات المتقاطعة ...

- ألا تطالعين القصّة؟ والشعر، ألا يعجبك؟

- القصّة؟ تقصد المسلسلات، أراها في التلفزيون، الشّعر، قرأته في المدرسة الابتدائية.

ازداد ابتعادي عنها، كانت المسافة بيننا تتّسع باستمرار، فهمت أنّ حديثي إليها لامعنى له. كلّما اقتربت منها ستبتعد عنّي، وكلّما اقتربت منّي سأبتعد عنها. هي لا تريد أن تقترب منّي. لا تبالي بأيّ شيء فكيف تبالي بي؟ بيني وبينها زمن منهار.

سألتني:

- هل نذهب إلى السينما؟

- نعم، نذهب إلى السينما.

أخذت تذكرتين من أقرب سينما إلى المقهى الذي التقينا فيه، شاهدنا فيلما مليئا بالرعب، خرجنا من القاعة، افترقنا على أساس أن نلتقي بعد يومين.

التقيت بها في المقهى نفسه، سألتني عن الكتاب الذي كان بين يديّ أجبتها بأنّه رواية لكاتب فرنسي. أخذته منّي، قرأت صفحته الأولى، فتحت عينيها في استغراب قائلة:

- لم أفهم شيئا، ماذا يقول هذا الكاتب؟

- يقول: إنّ الصدفة هي التي تتحكّم في الإنسان، وإنّ حياتنا مجرّد عبث... علينا أن... وقطعت كلامي.

كانت قد أغرقت عينيها في مرآة صغيرة أخذتها من حقيبة يدها، تنظر إلى عينيها في المرآة، تسوّي حاجبيها، تمسح جبينها، ولا تبالي بما أقول.

استأنفت كلامي:

- عيناك جميلتان؟

- حقّا، ماذا ترى فيهما؟

لم أجد ما أقوله، الحقيقة أنّني لم أر فيهما شيئا، كانت عيناها مجرّد عينين تنظر بهما. لم تستسغ صمتي. خاطبتني وهي تبتسم ابتسامة متسائلة:

- ماذا فيهما، أليست عيناي كسائر العيون؟

- لا، كسائر العيون؟ نعم كسائر العيون!

كانت قد خطّت أجفانها بقلم أسود فبدا لونهما العسليّ أحسن ممّا هما عليه في الحقيقة. ولكنّك حين تتمعّن فيهما النظر، لا تعثر في بريقهما على ذلك الحلم الجميل الذي كنّا نراه في عيني فتيات حيّنا، شيء ما ينقصهما. ثمّ هي تعترف بأن عينيها كسائر الخلق، فأيّ حلم سأراه فيهما. لعلّها تشبه الهامبرغر الذي تحبّ أكله في كلّ حين؟ لا أدري: هل هي التي تدخّنُ مارلبوبرو أم أنّ مارلبورو هو الذي يدخّنها؟

في هذه المرّة طلبَتْ هامبرغر وزجاجة شويبس، أكلَتْ في حركة شبه أنيقة، وأشعلت سيجارتها الرّابعة.

قلت لها في صدق:

- التدخين مضرّ بالصّحة.

- الصحّة، لا يهمّ، لا يهمّ.

وأخذَت في تدخينها غير مبالية.

سألتها:

- ماذا تفعلين في الدّنيا؟ أقصد: ماذا تشتغلين؟

- لا أفعَل شيئا لحدّ الآن، انقطعت عن دراستي، وأدرس الآن التجارة والحساب، لابدّ أن أحصل على عمل، لابدّ...

أحسست أنّني من عالم غريب، سكتّ لبعض الوقت، ثم قلت في سرعة:

- شفتاك تشبهان البرتقال.

قالت في جرأة:

- تقصد عصير البرتقال، أم البرتقال قبل أن يعصر؟

احمرّت وجنتاي، لاحظت اضطرابي، أدركَت أنّني لم أفهمها، تداركَت الموقف:

- أقصد أنّك لم تقبّلني إلى الآن؟

اطمأنّت نفسي قليلا، أجبتها:

- سأقبّلك...

- متى؟

- حين تريدين ذلك.

لقيتها بعد أيّام قليلة، ذهبنا إلى فندق في مدينتنا الجديدة، قبّلتها! لم أحسّ بأيّ

طعم لشفتيها، كان ثغرها دافئا، ولكنّ أحساسي به كان إحساسا فاترا، شعرت بأنّ شيئا مّا يتحرّك داخلي، أخذ قلبي ينبض، شملني بعض الدفء ولكنّه ليس دفء المحبّة ... هو شيء آخر غير هذا الذي عرفته مع ياسمين! كأنّ شخصا آخر يوجد مَعي هو الذي كان يقبّلها. غريب هذا الذي شعرت به معها. أسلمَتْ شفتيها في ارتخاء، ضمّتني بيدها اليمنى، ضممتها إليّ، أرادت فعلا أن تحبّني، ولكنّها فيما أظنّ لم تستطع ذلك. الظاهر أنّ المحبّة أصبحت لعبة.

قبّلتها، قبّلتني، أنهينا اللعبة وخرجنا إلى الشارع الكبير نتزاحم مع النّاس. ودّعتها، ثم التقينا، فمارسنا لعبة المحبّة، وغابت عنّي بعد ذلك.

□ □ □

حضر عبد اللطيف إلى فاس، أوكَل إليه أخوه أن يبيع الفوقي، اشترته منه (الجّامعية)، ورحل مع أمّه إلى الجديدة. بكيت في اليوم الذي رحل فيه عبد اللطيف. وصلت معه إلى المحطّة، ضممته إليّ حينَ اقتربت حافلة السفر من أن تقلع وقلت في عصبية :

- إيّاك أن تغيب عن هذه المدينة!

أجابني :

- لا، لن أغيب عنها.

وأخذ في البكاء فبكيت معه.

وقفت في المحطّة بعد أن ذهب عبد اللطيف، رأيت الناس يركبون إلى هذه الجهة وهذه، أحسست بضياعي وضياعهم، عرفت أنّهم غرباء مثلي، فانطويت على سكينتي وذهبت إلى المقهى أنتظر شيئا ما.

جاء أحد (الأصدقاء)، كان يدرس الطبّ في فرنسا؛ أخذ يتحدّث عن الحريّة وعن الجامعة والنساء وباريس. ارتحت إلى حديثه، سألته عن الأحياء الجامعية وعن المصاريف وعن دراسة الفلسفة، أجابني بأنّ كلّ شيء ممكن هناك. كنت كمن يريد أن تأتي فرنسا إليه، أن تكون بين أهله وذويه. لم أفكّر يوما في الذهاب إليها، بل تربّيت على الإعجاب بأهلها وكراهية دولتها. ولذلك كان يَقول زوج جدّتي :

. sauvage est politique leur mais ،bons sont français les

فأوافقه على ما يقول، ويحكي لي عن طيبوبة رئيسه في إدارة البريد التي كان يعمل بها وعن وحشية المراقب العسكريّ الذي كلّف بمهمّة داخل هذه الإدارة أيّام كان الصّراع بيننا وبين الفرنسيين على أشدّه. حدّثني طالب فرنسا عن المكتبات والمسارح

والصحف، وعن حيويةالناس وحركتهم الدّائبة فتمنّيت أن أختلط بهم فأعرفهم عن قرب.

كانت عطلة الصيف قد اقتربت، حصلت على جواز السفر، وفّرت منحتين أو ثلاثا، أخذت من جدّتي بعض المال، ساعدني أبي في ثمن تذكرة السفر، ثمّ ركبت القطار إلى طنجة.

لم أكن أعرف هذه المدينة من قبل. نزلت بأحد فنادقها، خرجت في الليل أجوب شوارعها، رأيتها مدينة مختلطة وجميلة. قلت سأمكث فيها يومين، ثمّ أركب الباخرة.

في طنجة التقيت بياسمين. كانت حاملا ورأيتها فجأة، في محطّة بنزين، تسوق سيارة فخمة. نظرت إليها في دهشة، لم تنتبه لوجودي في بادئ الأمر. أدّت ثمن البنزين، همّت بأن تضغط على دوّاسة السيارة الفخمة، رأتني واقفا أتأمّلها، لم تبد أيّ حركة، ظلّت تنظر إليّ، كأنّها لا تصدّق بأنّها أمام من أحبّها حتّى آخر نبضة من نبضات قلبه.

تقدّمت نحوها، سلّمت عليها، كدت أشرع في حديث محبّتي وألمي، نسيت أنّها متزوّجة وأنّها حامل. ولكنّ الذي آلمني فيها هو كونها قد تنكّرت لي. سلّمت عليّ كامرأة لا تعرفني. سألتها عن حالها فردّت عليّ في فتور، كأنّها كانت لا تريد أن أسألها. أنا أعرف أنّ الزمن قد تغيّر، ولكن ليس إلى هذا الحدّ الذي نتنكّر فيه لأحلامنا الجميلة، لمحبّتنا التي لم نكن نملك غيرها.

قلت لها:

- هل نسيت محبّتي؟

- أرجوك، أنا الآن متزوّجة، ولا أريد أن تزعجني!

أزعجُ من منحتها كياني؟

تيقّنت أنّنا أصبحنا ندمّر ذاتنا، قد انقلبنا على أنفسنا، سنتيه في تفاهة لا حدود لها. انحنيت برأسي إلى الأرض؛ وذهبت ياسمين. في الليل ذهبت إلى حانة من حانات طنجة، أكلت نصف المال الذي كان معي، رجعت إلى الفندق، نمت ككلب لا معنى له. استفقت في الساعة السابعة، أخذتُ أمتعتي وقصدت الميناء. في الطريق إلى الباخرة راودتني فكرة رائعة، جاءتني هكذا فجأةو قلت: سأبحث عن ياسمين، وألتقي بها، وأتأكّد من أنّها قد نسيَتْ ماضيها وتنكّرت لمحبّتها، ولعن الله فرنسا هاته التي ستشغلني عن هواي وعشقي.

رجعت إلى الفندق، ثم إلى الغرفة التي تركتها، نمت قليلا ثمّ خرجت إلى مقهى قريب أتناول فيه الفطور وأتأمّل الدّنيا والزمن الميّت.

من عادات طنجة أن يخرج فيها الناس عند بداية المساء إلى الشارع الكبير، فلابدّ أن تخرج ياسمين مع زوجها إلى هذا الشارع، أو لابدّ أن ألقاها مرّة أخرى في محطّة البنزين، لن يخطئ قلبي طريقه إليها، سأجدها في أيّ مكان لأنّني ما أزال أموت فيها حبّا وألما.

وكذلك كان، لم أخطئ الطريق إليها، كما لم أخطئه في زمن مضى! وجدتها في دكّان للملابس، تشتري بعض حاجيات مولودها. لم أتردّد في الدّخول إلى الدكان، وقفت إلى جانبها، سألتها لتوّي:

- هل هو حملك الأول؟

نظرت إليّ مستغربة جرأتي:

- لا سيكون مولودي الثاني!

كانت تبدو منشرحة؛ لعلّها كانت فرحة بسعادة مّا، وجَدَتها في الدار البيضاء، أو هنا في طنجة.

أردت أن أؤدّي ثمن ما تشتريه ياسمين لمولودها، منعتني من ذلك، وخرجنا معا إلى الشارع، دعوتها إلى أن نجلس في مكان ما، لم تتردّد في الاستجابة لطلبي.

ذهبنا إلى فندق الموحّدين، جلسنا في ركن من قاعته الكبيرة، ملأت رئتيّ من هوائه المكيّف، وسألتها عن فتورها وتنكّرها، ردّت بأنّها تريد أن تتخلص منّي، قالت: إن ذكراي تسكنها، وهي منشطرة بين محبّتها وزواجها.

عاد إليها حزنها القديم، حاولت أن تطرده، سألتني عن حالي، أخبرتها بأنّني غير راض بما آل إليه أمري بعد أن تركتني. أصبحت بعدك في مهبّ الريح، أحاول أن أعيش كسائر الناس فلا أستطيع، هناك خلل ما في العالم من حولي، لم تكن الدّنيا هكذا حين كنت إلى جانبي؟ سألتها عن حياتها، أجابتني بأنّها حياة عادية: آكل وأنام وأخلص لأبنائي.

فهمْت أنّها تنبّهني لبراءة جلستنا، أجبتها في حدّة:

- أنت لا يمكن أن تعرفي الخيانة! أين زوجك؟

- في الدار البيضاء، أنا هنا مع أسرته، ومع ابني.

- ما اسم ابنك؟

ابتسمت في فرح قائلة:

- اسمه عمر!

- عمر ... ، وهذا الذي في بطنك، ماذا ستسمّينه؟

- إن كان ولدا سأسمّيه بدر، وإن كانت فتاة فسأسمّيها: صباح!

ياسمين لم تخطئ المحبّة، فكيف يمكن أن تخطئ الأسماء. كل ما فيها يحدّثني بأنّ خلل العالم سيزول، وبأن الأشياء ستعود إلى أماكنها الصحيحة. هذا الذي أصابنا بين الرّحلة والرّحلة مسبيل عابر، سنعود إلى أنفسنا بعد حين، وتعود الدّنيا لترقص أمام أعيننا من جديد.

انتبهَتْ ياسمين لشرودي، أرادت أن تستأنف كلامنا، سألتني:

- ماذا تفعل الآن؟

- لاشيء، أدرس الفلسفة!

- وماذا تصنع في طنجة؟

- لا أصنع شيئا، كنت أنوي الذهاب إلى فرنسا، وعدلت عن هذه الفكرة حين رأيتك.

لم تصدّق ياسمين أنّني كنت ذاهبا حقّا إلى فرنسا، لعلّها قد اعتادت كذب الناس، قالت في حركة مصطنعة:

- لا تبالغ، هل تشلك محبّتي إلى هذا الحدّ؟

تألّمت لسؤالها، أخذتُ تذكرة السفر من جيبي، نظرَتْ إليها ياسمين فاطمأنّت إليّ كطمأنينتها القديمة، عاودها حزنها وأملها اللذان عرفتهما فيها حين أحببتها أوّل مرّة، صمتَت لبرهة ثم خاطبتني:

- وأنا أيضا مازلت أحيا بمحبّتك، قد فُرض عليّ هذا الزواج كما تعرف.

- الآن فُرضت علينا أشياء كثيرة، لا يهمّ، سيمرّ كلّ ذلك، المهمّ أن نخلص للزمن الآتي.

- زمن من؟

- زمن أبنائك؟

- لم أعد أثق في شيء، لقد انهارت الدنيا بانهيار محبّتي! سيعيش أبنائي وسط الكراهية، ستكون حياتهم مليئة بالحقد والخيانة.

فكّرتُ في أنّها مسؤولة عن بعض ما وقعنا فيه من يأس، ولكنّني لم أرد أن أضيف ألمي إلى ألمها. نظرت من زجاج الغرفة الكبيرة إلى البحر، كان هادئا مستسلما إلى السماء، يلتقي بها في الأفق البعيد، يعانق زرقتها، وترقص أشعّتها على صفحة مياهه الساكنة، كأنّه قد فتح ذراعيه لحمرة الغروب، ستنام الشمس في حضنه، ستتلألأ نجوم الليل فوق موجه، سيغيب القمر في رحمه، ثمّ ينبعث الوجود رائعا طريّا بين جنباته. لاحظَتْ ياسمين انشغالي عنها، فقالت في رقّتها القديمة:

- ألا تشرب قهوتك؟

- سأشربها، سأشربها. كيف تعيشين في الدّار البيضاء؟

- تعوّدْتُ على كلّ شيء، لم أعد أقبل شيئا أو أرفضه، تساوت الدنيا بالنسبة إليّ.

- وأبوك الذي قتلوه، ألم تعودي تذكرينه؟

- لقد مات الماضي بالنسبة إليّ، انقطع ما بيني وبينه، أبي قتل وانتهى الأمر، كيف أنتقم له وأنا مهزومة، لقد تعلّمت الاستلام، صار النسيان جزءا مني، ذاكرتي ترفضني، صرت أحتمي من الماضي الذي عرفته معَكَ بحاضر زائف مقنّع، أنا مرغمة على أن أنسى كلّ شيء.

هل كتب على ياسمين كلّ هذا العذاب؟ ألم تخلق لتحيا كما تريد؟

- وأمّك، كيف حالها الآن؟

- ما تزال خرساء كما تعرفها، هي تعيش الآن وحدها في الدّار القديمة، ألم تزرها بعد موت جدّتي؟

- لا، لم أزر الدّار القديمة بعد زواجك، انفصلت عنها بعد انفصالي عنك، دارت بنا الأيّام كما يقولون، فرّقتنا إلى طرقات متنافرة، الآن لا أدري ماذا تفعل بنا، قد قلبتنا رأسا على عقب، صار كلّ شيء إلى ضدّه، هل كنّا خاطئين في محبّتنا، أم أنّنا لانريد الاستسلام لهذا الزيف الكبير؟ أحسّ أنّ لعبة كبيرة قد شملتنا، لماذا ياكل كلّ منا نفسه ويسكت؟ أصبحنا كفئران التجارب، أكاد أجزم أننا نخاف من لاشيء، أو إنّ كلاّ منّا يخاف صاحبه، هذا منتهى الهزيمة، إنّنا نعيش قمّة المأساة، متى يكون خلاصنا من هذا الكابوس المطبق؟

فتحَتْ ياسمين حقيبة يدها، وأرتني خاتما كنت قد أهديتها إياه في يوم من أيّامنا الجميلة. فرحت فرحا كبيرا حين رأيت خاتم محبّتي، عرفت أنّها ما تزال على عهدها القديم، أخذْتُ الخاتم، قبّلتُه ثم أعدته لها. لم ترد إرجاعه إلى الحقيبة، أصرّت على أن يظلّ معي كي تعاودني ذكراها كلّما رأيتُه، استحسنت فكرتها واحتفظت به.

قامت من مكانها تريد أن تنصرف، سألتها:

- ألن أراك مرّة أخرى؟

- لا، سأرجع إلى الدّار البيضاء!

- متى؟

- غدا، بل ربّما هذه الليلة.

لم أدر كيف صحت في وجهها:

- سأبحث عنك في كلّ الدنيا، سأراك متى أردت، لن أتخلّى عن محبّتي مهما طال بي الزمن وامتدّت الرحلة.

ودّعتني ياسمين، وظللت في طنجة تائها بين الحيرة والتساؤل: هل هذه هي الدّنيا، تفعل بنا ما تريد، ثمّ ترمينا إلى قدر أعمى؟

□ □ □

رجعت إلى فاس، سألتني أمّي عن فرنسا، أجبتها بأنّها جميلة، متّسعة ومنظّمة. سألني أبي عن الأماكن التي زرتها، قلت له:

- إنّني نزلت من الباخرة في الجزيرة الخضراء، ومنها إلى مالقة، وغرناطة، رأيت مآثر المسلمين ومساجدهم... علّق على كلامي:

- لم ينهزم المسلمون إلاّ لأنهم متفرّقون.

وحين سألتني أختي الصغرى عن باريس، تحدّثت عن متحف (اللوڤر)، وعن قوس النصر وبرج (إيڤل) والحيّ اللاتيني والصوربون.

كنت قد اشتريت بعض الهدايا ذات المسحة الأجنبية، أعطيت لأمّي ثوبا جميلا لتخيطه، وأختيّ حذاءين رشيقين، وأهديت لأبي حقيبة لحلاقة الوجه، كما احتفظت لجدّتي وزوجها بزجاجتي عطر ووسادة مطرزة بأشكال أندلسية.

سألتني أختي الصغرى على انفراد، حين كنت أرتّب حقيبة سفري:

- ماذا فعلتَ بتذكرة السفر؟ هل بعتها؟

نظرت إليها في حدّة:

- كيف عرفت ذلك؟

- لا يوجد أيَ طابع في جواز سفرك؟

- لقد التقيت بياسمين في طنجة!

- إيوا... بَقيتَ معها وذهبْتَ إلى فرنسا في منامك؟ قلت لك إنّك لا تصلح للفلسفة، أنت أحمق.

من ذلك اليوم بدأت أصدّق أنّ المحبة نوع من الجنون، وأنّ ياسمين قدري الذي لابدّ من أن يدمّرني.

قضيت أيّاما كثيرة أفكّر في مشهد البحر، وفي فندق الموحّدين، وصياحي في ياسمين بأنّني سأبحث عنها في الدّار البيضاء. أتكلّم أيّ كلام فتعلّق أختي:

- رآها في فرنسا، اشتراه من فرنسا، يوجد في فرنسا... فأضحك، وتضحك أختي، وتمضي بنا الأيام تفعل بنا ما نريده وما لا نريده!

وحين أهديت جدّتي الوسادة والعطر سألني زوجها عن الفرنسيين فأجبته بأنهم يقرأون كثيرا وينتقدون كلّ ما يقرأونه، ثمّ إنّهم يعيشون في فرح وحرّية. نساؤهم

يمارسن الحبّ كرجالهم، ورجالهم يمارسون الحبّ كنسائهم، ولا فرق لديهم بين الإنسان والإنسان إلاّ بالعمل والجهد.

وسألتني جدّتي عن الطريق إلى فرنسا: هل هو طريق صعب، فلم أدر كيف أجبتها بأنّني قد لقيت فيه ياسمين. اندهشَتْ لكلامي، ثمّ رجَعَتْ بذاكرتها إلى أيّام خلَت وهي تقول:

- يظهر أنّك ستُدفن في القبر مع هذه المرأة.

علّق زوجها:

- هو على صواب: monde le dans a qu'on ce tout est L'amour .

كان فرحي بلقاء ياسمين أكبر من كلّ فرح عرفته. اكتسبت بها مناعة ضدّ الإحساس بالعبث الذي ألْت إليه، صرت أحتمي بها في كلّ لحظة أشعر فيها باللامعنى، تبدلّتْ أيّامي قليلا بعد لقاء طنجة، صرت أقلع عن كثير من العادات التي ملأت حياتي حزنا ولا مبالاة بالناس والأشياء، بدأت أستعيد محبّتي القديمة وثقتي؛ لم يعد الحاضر سجنا أهرب منه الى الماضي، أخذ يحدث لي نوع من الانسجام مع غربتي؛ اعتقدت اعتقادا راسخا بأنّني على صواب، وأنّ الأشياء هي التي تتبدّل فتجرف معها الصدق والبراءة وأحلامنا الكبيرة.

كادت خيبتي تحولّني إلى حقد وكراهية مستبدّين، ولكنّني حين استعدت خاتم ياسمين، عرفت بأنّني سأخسر كلّ شيء إن أنا خسرت فرحي بالحلم الجميل الذي عشته في دار (بريكة).

التقيتُ بسعاد، عزمت على أن أمارس معها لعبة المجلاّت الملوّنة، ثمّ أعطيها قلبي، وبعد ذلك أستردّ توازني وحياتي المفقودة. كان لقاؤنا الأوّل في المقهى الذي تعودّنا أن نجلس فيه، كنت قد اشتريت علبة مارلبورو، وطلبت حين جلسَتْ سعاد الى جانبي زجاجتي كوكاكولا وجوج هامبرغر. سألتني عن سفري فلم أكذب، حدثتها بأنّني حين وجدتُ في طنجة المرأةَ التي سكنتُ إليها في صباي وأوّل شبابي، عدلت عن فكرة السفر. لم تصدّق كلامي، لم تتصوّر أن يترك الإنسان سفرا بعيدا من أجل امرأة أحبّها وانتهت محبته. لم تتخيّل أنّ الإنسان قد يترك كلّ شيء من أجل محبّة افتقدها. كانت سعاد تعتقد أنّ الناس يلتقون، ويستهلك بعضهم بعضا، ثمّ يتفرقون. هكذا كانت تتصوّر الدّنيا: لافرق فيها بين الإنسان والهامبرغر! لها العذر في ذلك، فهي لم تعرف عبد اللطيف، ومريم، و (بريكة)، وكلّ الذين عرفتهم فلمستُ فيهم طيبوبة ومحبّة لم أعثر عليهما إلى اليوم.

سألتني عن لقائي بياسمين فأجبتها بأنها كانت حاملا، وبأنّنا جلسنا في فندق أمام البحر، وبأنّها شربَت عصير برتقال، وشربتُ قهوة سوداء، ثمّ افترقنا.

ضحكت سعاد، كأنّها كانت تسخر منّي . قلت لها :
- لماذا لاتقرئين جبران أو موباسان بدلاً من هذه الصور التي تقتلين فيها نفسك؟
في لقائنا الثاني الذي كان في المقهى أيضا حملت معي (الأجنحة المتكسّرة) و(bel Ami) . نظرت سعاد الى الغلافين فاستحسنتهما . دخنّا سجائر كثيرة، وتحدّثنا عن نافورة واسعة أحدثت في مدينتنا الجديدة، ماؤها ملوّن، يصعد الى الفضاء، ويدور على نفسه . ظنّت سعاد أن ألوان النافورة صباغة امتزجت بالماء الذي تنفثه . شرحت لها أن الأمر يتعلق بأضواء مصطنعة تجعل الماء لامعا لوقت قصير، ثم تغيب لوقت آخر لتعيد نفس الدّورة! لم تصدّق سعاد ذلك . كان المساء قد بدأ يخيّم على شوارع المدينة المضيئة، تركنا المقهى، وطلبتُ من سعاد أن تصحبني إلى النافورة كي تتيقّن من زيف ألوانها . لم تعترض على ذلك . قصدنا الساحة الكبيرة، كان الناس قد ازدحموا حول مشهد الماء الملوّن، لم تستطع سعاد أن تميّز بين الأضواء المختلطة، تقدّمنا قليلا، اجتزنا الصفوف المتشابكة . قلت لها :

- سأسبح في النافورة!
اندهشَت للفكرة، حاولَت منعي من ذلك، تركتها وتقدّمت نحو الألوان المتصاعدة .
أزلت حذائي، وجواربي ؛ ثم تسلّط عليّ شرطيّ يشبه الشيطان :
- ماذا تفعل؟
- أريد أن أميّز بين اللون والضوء!
صفَعني، سقطت وسط النافورة، ابتلّت ثيابي، أخذ الناس يتصايحون، عَلا صفيرُهم، ضجّت الساحة بلغطهم، أراد بعضهم أن يهجم على الشرطيّ، تزاحموا حوله، انشقّت الأرض عن أناس لم أعرف مصدرهم، كانت رؤوسهم من حديد، كانوا يلبسون بذلات لا لون لها، فرّقوا الناس في كلّ جهة .
ظللت واقفا في مكاني، والشرطيّ إلى جانبي لايعرف رأسه من رجله . جاءت سيارة بيضاء، حملتنا معا الى المركز، كان مشهدي مضحكا، حذائي في يدي، وأنا أقفز من البرد . سألني أحدهم :
- هل سقطت في النافورة دون حذاء؟
أجبته :
- هو الذي أسقطني فيها!
- كيف؟
- صفعني!

استدار نحو الشرطيّ:

- لماذا صفعته؟

- لأنّه أثار الفوضى والشغب!

- أثرتُ الفوضى؟كيف؟

لم يجد أيّ جواب لسؤالي المحيّر.

سألني رئيسهم:

- وهذا الذي وقع، من المسؤول عنه؟

أجبته:

- لاأدري، عليكم أن تبحثوا في ذلك.

نظر بعضهم إلى بعض، عرفت من عيونهم أنّني على صواب، أمرني أحدهم أن ألبس حذائي، انحنيت إلى الأرض وأنا أرتجف، تغامزوا فيما بينهم، ضحكوا، قال لي رئيسهم:

- مااسمك؟

أجابه واحد منهم:

- لاداعي لذلك.

خلّوا سبيلي، خرجت إلى الشارع الكبير، فكّرت كيف أنزل إلى المدينة القديمة وأنا مبلّل إلى الحذاء، أفزع من البرد وممّن سيراني في حالي بين الحمق والحمق.

وجدت سعاد تنتظرني، بين يديها قميصٌ مزركش وسروال أسود. ضحكت تقول:

- أنت أروع رجل عرفتُه.

استترنا خلف عمارة مظلمة، تعرّيت، لبست الثياب التي أعطتنيها، وضعت يدي في يدها، سرنا معا، انتشيت بوجودها إلى جانبي، أخذت أصفّر، وأغنّي، ولا أبالي بما وقع!

التقيت بها بعد أيّام قليلة، سألتها عن جبران وعن موباسان، أجابتني بأنّها قرأتهما في نهم كبير، وأنّها كرهت شخصيةAmi Bel ، وحزنَتْ كثيرا للجناحين المكسورين في رواية جبران، أعطيتها (البحث عن الزمن الضائع)، قرأتها في وقت قصير، ثمّ أخذنا معا نبحث عن شيء كنت أظنّ أنّنا افتقدناه إلى غير رجعة. قبّلتها فصرت أحسّ بها إحساسي الأوّل بياسمين، تجوّلت معها في دروب المدينة فاستحضرت جذوري وكياني الأوّل. أحيانا تضمّني إليها وتقول في نشوة كبيرة:

- ماهذه الفلسفة التي درستها؟

فأجيبها في كلّ مرّة:

- لا ، ليست الفلسفة هي التي جعلتنا نبحث عن زمننا الذي لم يضع ، ليست الفلسفة ، بل التاريخ الذي تعلّمته من أبي! هل نسيت أنّ جدّتي استرجعت بَعض وقفها من السعيدي؟

كنت قد حكيت لها القصّة ، فوافقتني على أنّ دار جدّتي لايمكن أن تتحوّل بأيّ حال من الأحوال إلى (دار الكاز) .

كانت أيّامي مع سعاد مزيجا من الدفء والمعاناة الرائعة . لم أقو معها على أن أستمرّ في عبثي ، بدأت أسترجع ثقتي التي كدت أفقدها إلى الأبد ، أخذ شعوري بالأشياء يرجع إليّ ، أصابني ندم كبير على مزهرية الفخّار التي كنت كسرتها في سخطي وتشاؤمي . بدأت سعاد تقلع عن التدخين العصبيّ المتوتّر ، أقلعَتْ عن شرب أيّ شيء كيفما اتّفق ، قلّت جلساتنا في المقهى المختنق ، أخذنا نقصد بعض الأماكن الهادئة ، نبتعد عن الناس ماأمكن . نتحدّث من تلقاء أنفسنا في ما قد يكون أولا يكون من مستقبلنا . كأنّي أصبح لي مستقبل آخر بعد أن فقدت مستقبلي الأوّل . انبعثت في نفسي محبّة جديدة لاتختلف في شيء عن محبّتي لياسمين . أحيانا أتساءل عن الزمن : ألا يغيّر عمق البشر؟ فأنظر إلى سعاد وأنسى كلّ صدماتي القديمة ؛ كأنّ خيبتي لم تكن خيبة إنسان فقد كلّ ما أحبّ وانجرّ إلى لعبة الكراهية . كنت كمن فقد هويته واسترجعها في خلسة . كدت أضيع ثمّ عدت إلى ذاتي وأشيائي البسيطة التي شكلّت كياني في الزمن الأوّل .

جاءت سعاد في يوم من أيّام الخريف تحدّثني بأنّها عدلت عن فكرتها في أن تدرس الحساب والتسيير . سألتها :

- وماذا ستفعلين؟

- سأدرس الرّسم!

استغربْتُ نوع التغيّر الذي طرأ عليها ، تذكّرت مزهرية جدّتي ، قلت في تلعثم :

- الرسم ، . . . الرسم . . . ، وأين ستدرسينه؟

- في طنجة!

كأنّ رحلتي إلى هذه المدينة لم تكن عبثا ، وكأنّ الصور الملوّنة لم توجد يوما في حياة سعاد .

- وكيف راودتك هذه الفكرة؟

- كنت أحبّ الرسم في طفولتي!

أخرجت من حقيبتها الصغيرة ثلاثة رسوم جميلة كعيني أمّي : شمس داكنة تغيب وسط البحر ، لا في الأفق ؛ قمر أزرق كالسماء يصعد من جهة المغيب ؛ وأمّ سمراء ترضع طفلا أسمر!

تذكرّت سَلْفادُورْدَالي وخاطبتُ سعاد في محبّة دافئة :
- لابدّ أن تكوني فنّانة كبيرة .
أجابتني :
- سأرسم أوّل لوحة لي وأقدمها لك .
رسمَتْ سعاد لوحتها، كان في اللوحة زورق صغير يركبه رجل واحد، وكان الزورق وسط بحر شاسع يكاد يهدأ!
سألتها :
- هل تحبين البحر؟
- حين أنظر إليه أشعر بالرّهبة، تتملّكني الرغبة في أن أصير جزءا منه، رائحته أجمل من كلّ رائحة، هل أنا على صواب؟
- أنت الحقيقة!
اكتشفت في سعاد جزءا من العالم كنت قد نسيته، ذهب منّي كما ذهبت مزهريتي، تكسّر فلم أستطع لمّ شتاته. لم أتصوّر حين التقيت بها أوّل مرّة أنّها قادرة على أن تعيد أشياء كثيرة إلى مكانها الصحيح. قبلها كنت أظنّ أنّ زمني قد انتهى وأنّني أسير نحو لاشيء. وعندما عدت من طنجة عرفت أنّ رحلة أخرى ستبدأ؛ ربّما تكون أروع من رحلتي مع ياسمين، وربّما لن تنتهي إلى الخيبة الكبيرة. المهم، عليّ أن أحبّ سعاد، لأنّها جديرة بالمحبّة!



رسالة من عبد اللطيف

جاءتني رسالة من عبد اللطيف!

تقول الرسالة:

لعن الله هذه المحبّة التي ابتليتَ بها وابتليتُ بها معك. أنا الآن منشطر بين الجديدة والدّار البيضاء. لم يستطع قلبي أن يتخلّى عن مريم. طلّقتها وظللت أحبّها. هي تركب الآن مع مدير الشركة ومع غيره وأنا أموت فيها حبّا. في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها قبّلتها وصفعتها. كان ذلك وسط الشارع الكبير. بمجرّد أن سلّمَتْ عليّ، ضممتُها إليّ في عنف وأخذت شفتيها بين شفتيّ، ثمّ تذكّرت قبلتي الأولى حين عرفت هذه المرأة في فاس! أرادت أن تتخلّص منّي، كان عنفها أقوى من عنفي، ابتعدتُ عنها قليلا ثمّ صفعتها، صحت في الناس الذين اجتمعوا حولنا:

- ابتعدوا، هذه زوجتي، أحبّها وأكرهها، أليس من حقّي أن أحبّ وأكره؟

ذهب الناس إلى حال سبيلهم، قلت لمريم:

- أين حبّك القديم؟

أجابتني:

- أنت أحمق!

تذكّرت أخي. كنت قد زرته في منزل عزيزة. كان يسكر، وكانت عزيزة ترقص وتدخّن وتسكر هي أيضا. قلت له:

- أريد أن أشتغل في صناعة النحاس!

- كيف؟

- أعطيك القدر الذي ورثته من الفوقي وأشترك معك.

أجابني:

- أنت أحمق!

أصابني شلل في دمي، نظرت إليه أستطلع بقية الأخوّة بيني وبينه، لم أجد في عينيه شيئا يربطني إليه، أخذت قنّينة الويسكي من بين يديه، وشربت كأسا جافّة وأخرى بقليل من الماء، ثمّ ثالثة.

عرفت عزيزة أنّي قد سكرت، وضعَت منديلا أحمر في ردفيها، أطلقت شعرها، وأخذت ترقص رقصة شرقية عاهرة. امتلأت عيناي بالدّموع، كنت أبكي في صمت، حقدت على الدّنيا، ماذا كنت أريد من حياتي حتّى تحتقرني إلى هذا الحدّ. كنت أريد زوجة وبيتا، كنت أريد الطمأنينة، ولسعتني الدّار البيضاء. واصلَت عزيزة رقصها وواصلتُ سكري. كان أخي يراجع بعض حساباته ويدخّن في نشوة وهدوء بارد. تحولّت عزيزة إلى قزم، تراءت لي وسط السكر والدّخان قزما يدعوني إلى الضّحك، أخذت أضحك بصوت عال وأصفّق وأقول:

- نعم، هكذا، ارقصي، من هذه الجهة، وهذه...

تحولّ أخي عن حساباته ونظر إليّ في استغراب، ثمّ نظر إلى عزيزة، أمرها أن تجلس، لم تبال به، واصلت رقصها وواصلتُ ضحكي، احتار أخي بيننا، أردت أن أشرب كأسا أخرى. منعني من ذلك، كسّرت زجاجة الويسكي، ثمّ قمت من مكاني ألعنه وأسبّ الدّنيا التي جمعتني به وأقول لعزيزة:

- أنت عاهر، أنت ابنة السعيدي، أبوك كلب من الكلاب، أنت مزبلة القرون.

ظلّت ترقص وتضحك، أردت أن أنقضّ عليها، لو أمسكت بها لخنقتها، منعني أخي من ذلك، خرجت إلى الشارع، جلست في حافّة الطريق أبكي وأصيح: قد خانتني مريم، مريم ابنة (السّي المعطي) تخونني، لايمكن أن يحدث ذلك.

مرّ رجل صالح بالقرب منّي، سألني:

- مابك ياولدي؟

قلت له:

- لاشيء، لاشيء!

أعاد سؤاله:

- ولماذا تبكي؟

- أبكي لأبكي...

لم يفهم جوابي، دعاني الى الصبر، قلت له: سأصبر أكثر من صبري، دعاني إلى أن أنصرف، قلت له: إلى أين؟ سألني عن منزلي، أجبته بأنّه في الجديدة، قال لي:

- وهل ستقضي الليل بين هذه الشوارع المتداخلة، سيقتلك البرد يابنيّ؟

قمت من مكاني، ذهبت إلى فندق مراكش في درب كناوة، قضيت ليلتي، ثمّ استفقت لأعترض سبيل مريم، كأنّي أريد أن أحبّها للمرّة الأولى.

اعترضتُ سبيلها كما قلت، وقبّلتها وصفعتها، ثمّ ذهبت إلى الجديدة.
سألت أمّي:
- هل أخي هو أخي؟
أجابتني:
- نعم أخوك يابني.
- ولماذا هو من النحاس وأنا من الطين؟
لم تفهم سؤالي، ولكنّها أجابت:
- يخلق ويفرّق يابنيّ.
قلت في صدق كبير:
- نعم يخلق ويفرّق!
كانت مريضة؛ الطبيب يقول إن هواء البحر لايلائم رئتيها فأشعر بالخزي لأنّني بعت منزلنا في فاس. تحدثني المسكينة بأنّ أهمّ شيء بالنسبة إليها هو حياتي أنا، حياتها قد مرّت كما تقول، ولذلك فهي لاتريد أن تموت بحسرتي. نصحتني أكثر من مرّة بأن أردّ زوجتي، اسألها: كيف؟ فتجيبني:
- تذهب إلى أمّها وتطلب منها إصلاح أمركما؟
هي تنسى أنّني ذهبت إلى منزل مريم أربع مرّات، وأنّني التقيت بأمّها، وأخبرتها بأنّني بعت (الفوقي) في فاس لأكتري منزلا في الدّار البيضاء، فرحّبت بالفكرة وتحدّثت إلى ابنتها بذلك؛ ولكنّني حين هممت بإرجاع زوجتي وجدت أنّني أحبّها وأكرهها كما ذكرت لك قبل قليل، فماذا أفعل؟ لاأحد في الدّنيا يفهمني، فهل أقتل نفسي؟
مرّة ذهبت معها إلى مقهى في شاطئ البحر، فرحت فرحا كبيرا، وفرحت معي، تذكّرنا الزمن القديم، واليوم الأوّل الذي عرفتها فيه، تحدثّنا عنكَ وعن ياسمين، سألتني عنك، أجبتها بأنّك مازلت تدرس الفلسفة، استغربت ذلك، وقالت في براءتها الأولى:
- ماذا سيفعل بالفلسفة في زمن مُفلس؟
أجبتها كما كنت ستجيبها أنت:
- إنّه يدرس الفلسفة لأنّه يدرسها!
مرّ بنا رجل تعرفه، سلّم عليها، سألها عن حالها، ثمّ انصرف قائلا:
- A bientôt.
سألتها عنه، قالت: إنّه صديق لصديقتها. قلت في عنف:

- ولماذا يريد أن يلتقي بك؟
- لا، لن يلتقي بي. . .
- هو يقول : A bientôt ؟
- ليس معنى هذا أنّنا سنلتقي. . .
- وما معناه؟

أصابها غضب وتوتّر من أسئلتي، قامت من مكانها، تبعتها أصيح باسمها، ركبَت التاكسي، ظلّ الناس ينظرون إليّ، ضحك بعضهم، تركت المقهى وانصرفت أجرّ خيبتي.

لم أكن أتصورّ أنّ الدّنيا ستصير هكذا قاسية منقلبة فظيعة. لماذا نعيش إذا لم نعش للمحبّة؟

الآن وأنا أحبّها وأكرهها ماذا أفعل؟ هل أتزوّجها من جديد؟ إنّني لاأستطيع أن أتخلّص من محبّتها التي تسكنني، كما لاأستطيع إعادة علاقتي بها حسب الأيام الأولى التي عشناها في فرح بالمستقبل.

كانت تقول لي في ذلك الوقت الجميل: سيكون لنا طفلان وبيت صغير، وسنحيا في سعادة أبدية. ذكرت لها ذلك حين التقينا، أجابتني في قسوة كبيرة: إنّها لن تلد أطفالا في حياتها. ماذا أفعل بامرأة لاتريد الولادة. لقد تغيّرت مريم التي كنتَ تعرفها. هذه ليست ابنة (السّي المعطي)، هذه مريم أخرى.

أنا الآن أدخّن أكثر من علبتين في اليوم الواحد، لم أعد أقرأ الشعر الذي كنت أحبّه. لا أقرأ شيئا، أعيش في تفاهة مستمرّة. هؤلاء الأطفال الذين أدرّسهم يصيبونني بالذعر، مامستقبلهم؟ إذا كنت أنا الآن أحبّ وأكره، ويجري الزمن أمامي في قسوة وبلادة، فماذا سيفعل هؤلاء في أيّامهم، إنّهم سيضطرّون للكراهية فقط! ستكون لعبتهم أكبر من لعبتنا، ستشملهم القسوة من كلّ جانب. أنا أنصحهم بأن يجتهدوا في دراستهم، ولكنّني غير مقتنع بذلك، أصبحت مقتنعا بعكس ماأقول.

فكّرت يوما: هل أنا هو أنا؟ فأجبت عن هذا السؤال الرهيب في بساطة: أنا لست أنا! ربّما ستقول أنت الذي درستَ الفلسفة: إن صديقي اقترب من الجنون، فأجيبك قبل أن تتوقّع ذلك: إنّي عاقل بما فيه الكفاية، ولكنّ الواقع كما تعرف واقع أحمق، فهل أعيش حمقه كي لاأجنّ؟

الآن وقد ضاقت بي الدنيا، ماذا أفعل؟ كم أتمنّى أن أقتنع بفشلي، ولكنّي لست فاشلا، وأنت متأكّد من ذلك، أنت الذي خبرتني من زمن بعيد، هل كان بإمكان أخي أن يمتلك معمل النحاس ويحبّ امرأة شَبقة لو أردت أنا ذلك؟ أنا لم أعترض سبيله فيما أراد، لو كنت قد فعلت ذلك لكانت الأمور على غير ماهي عليه اليوم،

لكانت الدنيا تعطي وتأخد، ولكنّها الآن تاخذ وتاخذ، فهل هي على صواب فيما تفعله.

كم أتمنّى أن أسكر معك، وأن نستحضر أيّام الدراسة والمحبّة. تقول أمّي: إنّ لك صديقا وحيدا هو الذي يقرأ السفلقة. هي تسميها سفلقة. ستضحك -لاشكّ- من هذه الكلمة الغريبة المقلوبة، ولكنّها كلمة صدرت عن أمّي، ولذلك ارتحت إليها كثيرا، فاضحك منّي أنت أيضا إن أردت الضحك من إنسان تفهم عمقه، المهم أنّ هذه الكلمة أعجبتني، وأظنّ أنّها ستعجبك أنت أيضا.

إنّك تعرف أنّ الكلمات ليست مهمّة، المهمّ مايوجد داخل الكلمات، في هذه الكلمة جزء من أمّي، فهل أحاسب على محبّة أمّي؟

فكّرت في الصلاة! صليّت يومين ثمّ انقطعت عن ذلك، هل سأنافق الله؟ إنّي أريد صلاة الطمأنينة، وهذا شيء كان يعيشه أبي، وأنا لايمكنني أن أتنكر لجزء من أبي، ستمرّ كلّ الأزمنة المقلوبة وسأصلّي هذه الصلاة التي أريدها.

كم أحنّ إلى خصّة المولى إدريس. حين كسّرت قنّينة الويسكي في وجه أخي، وخرجت إلى الشارع أتألّم لتفاهتي، تمنيت أن أسبح في الخصّة وسط الضريح، لو فعلت ذلك لتخلّصت من كلّ هذا الألم الذي يسكنني. أنا الآن لاتسعني الدّنيا، ولذلك أحتمي بطفولتي، أراجعها فأجدها جميلة طيّبة، كيف لانحبّ الأشياء الطيّبة؟ هل بإمكان الإنسان أن يكره نفسه؟

التقيت ياسيّدي في هذه الأيّام وفي الدّار البيضاء برجل يصيح وسط الناس: ضاع منّي خاطري، ضاع منّي خاطري! كان الناس يضحكون قال أحدهم:

- كيف يضَيع الخاطر؟
- قد يضيع المال...
- أو أوراق السيارة...
- ورسم الدّار يضيع أيضا...
- والابن أو الزوجة...
- الخاطر؟!

ولكنّ الرجل كان على حقّ! نعم قد تضيع كلّ الأشياء، ثمّ قد نجد بعضها ونفقد بعضها إلى الأبد، أمّا الخاطر حين يضيع فإنه لايمكن أن يعوّض. أرى أنّ ألم هذا الرجل أكبر من كلّ ألم، هوَ يشبهني إلى حدّ بعيد، ولكنّني لاأستطيع أن أصيح، وهذا ألم آخر أضفته إلى محبّتي المفقودة.

تعرف، تراودني فكرة غريبة، أن أتزوّج بابنة (الجّامعية)، المرأة التي اشترت السفلي وأضافت اليه الفوقي، ثمّ أقول:

- عبد اللطيف يتزوّج بابنة (الجامعية)؟ هذا منتهى المسخ! امرأة كان يكرهها أبي، فيها من الشعوذة مايكفي ليسحر مدينة بأكملها، كيف سأحيا مع ابنتها؟ تقول أمّي: إنّ ابنتها جميلة ومهذبة، كيف؟ هل سأستغلها بالرّغم من أنّ أمّها مكروهة؟ غير ممكن: إنّي أريد مريم ولاشيء غير مريم. سأذهب غدا إلى الدّار البيضاء كي أعتذر لها، لن أصفعها هذه المرّة، سأقبّلها وأذوب فيها، سأقتل غيرتي لأحبّها حبّا جديدا، ابنة (السّي المعطي) لايمكن أن تكون خائنة، هي أكبر من الخيانة، لماذا ستخونني؟ إنّي أحبّها محبّة البداية والنهاية، هل ستقتلني في محبتي؟ كيف ستعيش بدوني؟ سأوفر لها بيتا ونعيش كما يحلو لكلّ واحد أن يعيش، سأحاول أن أسيطر على هذه الدنيا التي صارت ضدّي.

صديقي الحميم، أنت أخ لي، والأخ - فيما أعتقد- يعرف سرّ أخيه: أقول لك في صراحة تامّة: إنّني لايمكن أن أحيا إلاّ بمريم، مريم أجمل من أيّ امرأة عرفتها.

نسيت أن أحدّثك عن مغامراتي بين الجديدة والدّار البيضاء، أنت على يقين من أنّ لكلّ إنسان مغامراته.

تعرّفت في هذه الأيّام على امرأة جميلة طيّبة، حكيت لها همومي الكثيرة وحكت لي همومها، وجدت فيها بعض الخيوط التي ربطتني إليها، استدعتني إلى بيتها، كنت في حاجة إلى امرأة، أحببتها بعض الحبّ ثمّ رجعت لأحبّ زوجتي.

قد كانت لي مغامرة أخرى غير هذه، من منّا يستطيع أن يعيش دون امرأة؟ تجولّت معها في شوارع الدّار البيضاء، وغنّيت بالليل، كنت منتشيا بمحبّتها وفرحي بها، قضينا الليل في فندق أنيق، التقيت بها مرّة أخرى، ثمّ عدت إلى مريم أستعطفها كي تحبّني من جديد.

لا، هي ماتزال تحبّني، ولكنّها حائرة، ربّما تكون خائفة منّي، هل أصبحت المحبّة عندنا ممزوجة بالخوف، أنا أيضا أخافها، فكيف تفسّر ذلك؟ أظنّ أنّ شيئا ما قد أصابنا فأصبح كلّ منّا يفزع من غيره، ربّما يكون في الأصل مفزوعا من ذاته.

هل أنا على حقّ فيما أظنّ؟ أريدك أن تجيبني على هذا السؤال لأنّه أساسيّ بالنسبة إليّ. إنّ كلّ الأسئلة مهمّة بالنسبة إليّ الآن، ذلك أنّني لم أعد أثق فيما كنت أومن به سابقا، أصبحت في دوّامة من الأسئلة، إنّي انقلبت في هذه الأيام الأخيرة إلى خوف رهيب من علامات الاستفهام، أحاول ما أمكن أن أتجنّبها في السبورة وفي كتب الأطفال الذين أعلّمهم. أنا أعرف أنّهم لا يمكن أن يتعلّموا دون أسئلة، ولكنّني كما قلت لك أصبحت أفزع من أسئلتي، أكرهها لأنّها تبدّدني، يكاد سؤال واحد منها يقتلني، أضيع فيها كأنّي في متاهة لابداية لها ولانهاية، إنّها تتناسل كالنمل في داخلي، تاكل من دمي وكياني، هل رأيت إنسانا تدمّره أسئلته؟

إنّني لم أعد أقوى على الأسئلة من كثرة ماتساءلت، إنّي الآن أشبه ما أكون بإنسان أصابه الخرس من داخله، أنظر إلى الدّنيا تتسرّب أمامي، تختلس عمري، ولا أجد فيها مكاني. هل كان عليّ أن أكره الناس والأشياء الجميلة كي أبني حياتي؟ قبل شهر أو شهرين كانت لي علاقة عابرة بامرأة أحسست معها بالكراهية، سألتها:

- لماذا تكرهين الرجال؟

- أحببتُ واحدا فسحقني. . .

وأنا، لماذا تكرهني مريم؟ هل سحقتُها، أرى أنّ الأيّام هي التي تسحقنا، إنّنا لم نعد نقوى على المحبّة، صارت المحبّة أكبر منّا، نحن أقزام تلعب بنا الكراهية، تقتلنا ونتشبث بها، لانستطيع دفعها عنّا، كلّ منّا خائف من خوفه، قد فقدنا الطمأنينة إلى غير رجعة. ضعنا في متاهة الخوف، ولن ينتشلنا منها إلاّ شيء عجيب، كأن نحلم أو نتخيل أو نصاب بالجنون. قد أصبحت مقتنعا أنّ الجنون شيء عجيب، يطلّق الإنسان فيه الدّنيا ويعيش في المطلق! مارأيك؟ ألا يوجد في الفلسفة التي تدرسها شيء اسمه فلسفة الجنون؟ مارأيك في أسئلتي؟ أليست أسئلة رهيبة كما قلت لك؟

أحيانا أحاور ذاتي فتهرب منّي، هل سمعت بإنسان تهرب منه ذاته، أنا ياصاحبي هو ذلك الإنسان، كلّما حاولت الإمساك بجزء من كياني انفلت منّي ليدمّر جزءا آخر، أنا في شبكة من الانهيار، لديّ إحساس قويّ بأنّني سأموت في انهياري، هذا أشدّ أنواع الموت، إنّه أكبر من الموت جوعا وعطشا، هذا قمّة المأساة.

سترى بعد حين أنّ مأساتي -هنا وفي الجديدة أو الدار البيضاء- تفوق مأساة الدّنيا بأكملها، هل سمعت بإنسان يريد ذاته فلايجدها؟ أليست هذه قمّة الانهيار؟ أتمنّى أن تكون بخير، وأن تكون الفلسفة التي درستها قد أسفرت عن نتيجة معيّنة، وأعدك بأنّني سأكتب لك رسالة أخرى، لأنّني الآن في أمسّ الحاجة لأن أكتب!

والسلام عليكم ورحمة الله.

□ □ □

رسالة أخرى من عبد اللطيف:

ماكدت أتأمّل رسالته الأولى حتّى وصلتني رسالته الثانية. كنت أريد أن أجيبه، ولكنّ رسالته الثانية وصلت بعد يومين:

يقولون: السماء لاتمطر ذهبا، فكيف يمطر النحاس الذهب؟

لقد طلّق أخي زوجته الأولى، أي أمّ أطفاله وسرّ نعمته. تركها لأبنائها وانشغل بزوجته الثانية. أسّس مع هذه معملا لصناعة الذهب. قد اختلط الآن (الكاز)

بالنحاس فصار كلّ الغش إلى كلّ الغشّ لتمطر السماء ذهبا. أرأيت كيف تندحر كلّ أيامنا الجميلة بين ردْفي عزيزة. هل هذا الشبق الذي فيها هو السّر في لعبة ضياعنا؟ إنّني لاأبحث الآن عَن زمني، لأنّ ذلك قد ضاع منّي إلى الأبد، الآن زمني يبحث عن زمني، فماذا تسمّي هذا الضياع؟

ذهبت البارحة إلى الدّار البيضاء، ذهبت إليه في معمل النحاس، أخبروني أنّه في معمل الذهب، أخذت عنوان الذهب ومضيت. حدّثته بأنّ أمّه مريضة وأنّها قريبة من أن تموت، أجابني بأنّ الأعمار بيد الله، وأنّه من الأفضل أن تموت في الدّار البيضاء. قلت له: كيف؟

- بأن تأتي بها إلى هنا.
- أين؟
- تعيش مع أبنائي.
- أين؟
- في منزل خديجة.
- لا يمكن، أنت تعرف أنّ عداوتهما متمكّنة، وأنت الآن طلّقت خديجة، فكيف تريد لهذا الحلّ أن يكون؟
- وهل لديك حلّ آخر؟
- لا!
- إذن ماذا تريد؟
- لا أريد شيئا، لاأريد شيئا...

ذهبت إلى مريم، في منزلها، لم تتركني أمّها أدخل حتّى تحدّثت إليها بنيّتي في إرجاع زوجتي. أخبرتني من الباب بأنّ مريم قد تزوّجت.

كنت كمن أصابته حمّى المستنقعات، خرجت من درب كناوة إلى الطرقات المتشابكة، اختلطت رجلاي برأسي، وتحوّلت الدّار البيضاء إلى دائرة تدور فتطحنني، سئمت نفسي، وتقيّآت الدّنيا، وبصقت في وجه العمارات الشاهقة. فهمت أنّ قيمتي أتفه من حجر واحد من أحجارها. الأولى لي أن أتحوّل إلى قطعة خشب أو كيس إسمنت. لو كان قلبي قد تحجّر من زمن بعيد لكانت حياتي حياة وأيّامي أيّاما.

رجعت أدراجي إلى مسجد من مساجد المدينة العتيقة، صلّيت الفجر والمغرب، ثمّ ذهبت إلى أمّي، وجدتها ماتت دون أن تكلّمني كلامها الأخير، لم أخبر أخي

بموتها، دفنتها وحدي، وقرأت على قبرها بعض سور القرآن، ثمّ انسللت إلى منزلي.

□ □ □

حين وصلتني الرسالة الثانية من عبد اللطيف، وتيقّنت أنّه أصبح وحيدا في الدّنيا قرّرت أن أسافر إليه.

كانت امتحانات تخرّجي من الجامعة على بعد ثلاثة أيّام أو أربعة. أخبرت سعاد بأنّني قد عزمت الرحيل إلى صديقي، قالت لي في صدق كبير: لابدّ أن أرحل معك.

اجتزت الامتحان في سلام، ثمّ رافقتني سعاد لنبحث معا عن مدرسة الأمل في الجديدة.

بين الحمق والحمق

نزلنا في الدّارالبيضاء، تغذّينا خبزا وسمكا، ضحكنا كثيرا، وركبنا إلى عبد اللطيف.

لم يكن عنوان منزله لديّ، بل الذي أمتلكه إنّما هو اسم مدرسته فقط، ولذلك قصدنا المدرسة بمجرّد أن نزلنا في مركز المدينة. لم تكن الطريق إليها بعيدة، كان علينا أن نقطع شارعا ضيّقا يتفرّع عنه الشارع الكبير، ثمّ نصل ساحة عتيقة تتوسّطها مدرسة الأمل. كانت الباب مفتوحة، تقدّمت إلى الحارس أسأله عن صاحبي، أجابني بأنّ عبد اللطيف قد تغيّب عن عمله لأكثر من عشرة أيّام، وأنّه لايوجد في الجديدة. سألته:

- كيف عرفت ذلك؟

- لم يره أحد هنا، وهذه المدينة -كما تعرف- مدينة صغيرة، لايمكن أن تخفي أخبار أهلها.

- وأين يسكن؟

- يسكن في شارع فيكتور هوجو الذي يسمّى الآن درب ابن بطوطة.

- ورقم المنزل؟

- العمارة 7 المنزل 3.

سألت عنه جاره في درب ابن بطوطة، أجابني بأنّه لايعرف من أخباره شيئا! احتارت بي الجديدة، لو لم تكن سعاد بجانبي لضعت فيها كما ضعت في طنجة قبل أن أجد ياسمين.

قضينا الليل في فندق جميل، حين استفقنا في الصباح ذهبنا إلى البحر، سبحنا في مائه العذب، وعدنا إلى الدّار البيضاء كي نبحث عن صاحبي.

سألت عن (أواني المولى إدريس) في درب (عمر)، وعن المعمل الذي يصنعها،

أجابوني بأنّه يوجد في (عين السبع). ذهبت إلى عين السبع، سألت عن أحمد، أجابوني بأنّه في معمل الذهب (بعين برجة). ذهبت عنده، عرفني أوّل مارآني، رحبّ بي، سألني عن أهلي وعن عملي. أطال الكلام كثيرا ففهمت أنّه يتحاشى الحديث عن أخيه.

سألته:

- أين عبد اللطيف؟

- في المستشفى.

- مريض؟

- مريض جداً.

- مامرضه؟

- مجنون...

- لايمكن!

- هذا ماوقع، يمكنك أن تتأكّد من ذلك إذا أردت زيارته.

- نعم سأزوره، ولكنّني متأكّد من أنّه ليس مجنونا.

- أنتم أصحاب الفلسفة لاتثقون في شيء.

لم أجبه، سلّمت عليه وخرجت.

قلت لسعاد:

- سنذهب لمستشفى المجانين!

أجابتني:

- سنذهب، لابدّ أن تشتري لصديقك شيئا ما.

- سأشتري باقة ورد.

- وأنا سأهديه هذا المنديل، كنت سأعطيه لك، ولكنّ صديقك الآن أولى به منك.

كان المنديل الذي تريد سعاد أن تهديه لعبد اللطيف منديلا من الحرير، رسمت فيه وردة من عبّاد الشمس، منحنية قليلا، كأنّها تميل إلى أن تتكسّر.

ركبنا الحافلة رقم 32 لنصل إلى عبد اللطيف.

سألت عنه حارس الباب، قال: إنّ كلّ هؤلاء المرضى في 36، ونَطَقَها بالفرنسية. أصابتني دهشة كبيرة لأرقامنا التي ماتزال تنطق بهذه اللغة. أخذت يد سعاد وتقدّمنا إلى الداخل نسأل عن صديق أصابه الجنون!

وجدناه ينتظر شيئا مّا. رآني فابتسم ابتسامته المعهودة، ووقف ليسلّم عليّ. عانقني، ضغط على ظهري وأخذ في البكاء. لم تتمالك سعاد نفسها، احمرت

وجنتاها وأخذت تبكي هي أيضا. نظر إليها سألني:
- هذه زوجتك؟
- نعم.
- إنّها جميلة جداً، ماذا تفعل؟
لم أدر كيف أجبته:
- ترسم البحر والورد والزوارق.
ارتاح لجوابي، قدّمَتْ له سعاد منديل الحرير الذي رسمَتْه، خاطبها.
- أنا خائف!
- خائف؟ ممّن؟
- من المجهول، من ذاتي، من كلّ شيء.
- كيف؟
- لاأدري، أشعر بالاختناق، أخاف من الموت، من الناس، من هؤلاء الذين أعاشرهم هنا.
- ماذا وقع حتّى وصلت إلى هذا المكان؟
- لم يقع شيء، ذهبت إلى أخي، أخبرته بأنّ أمّي ماتت، وأنّني دفنتها في الجديدة، قال لي: إنّك أحمق، صفعته، تدخّلت زوجته، ضربتها إلى بطنها، سقطت إلى الأرض، أخذ مزهرية نحاس بين يديه، ضربني إلى رأسي، سقطت كأنّي قد فقدت وعيي، جاءت الشرطة، وحملوني إلى هذا المكان. كانت آثار الضربة ماتزال تلوح في رأس عبد اللطيف، وكانت عيناه ذابلتين كجمر هامد. سألته:
- وماذا ستفعل الآن؟
- سأبصق على الدّنيا وأعيش هنا، ربّما أرتاح في هذا المكان من تعبي، أنت تعرف أنّ تعبي كبير. إنّ مايشغلني الآن هو هذا الألم في رأسي.
- ومريم؟ هل نسيتها؟
- مريم؟ مريم تزوّجت... هربت وتركتني لهذا المصير الأسود. هل رأيتها؟
- لا، ولكنّي سأراها اليوم، سأخبرها بما أنت فيه.
- لا، لاداعي لذلك، ستعطيها الدليل الكافي على أنّني مجنون حقّا، ستزداد هروبا منّي، ثمّ مالفائدة؟ كنّا وكنتو، وصرنا وصرتو، الآن انتهى كلّ شيء!
- لا لم ينته شيء بعد، (جنونك) بداية!
اطمأنّ عبد اللطيف، نظر إليّ في سكينة، واصلت كلامي:
- لن أتخلّى عنك.
- وألمي؟

- سأقتسمه معك. سأتحمّل جزءا منه، لن تكون مجنونا بدوني، لن تتألّم وحدك!
- دعك منّي، أنا الآن منهار أكثر ممّا تتصورّ.
خاطبته سعاد:
- لاتترك الوهم يسيطر عليك، لست منهارا، يلزمك ألف ضربة إلى رأسك كي تنهار.
ضحك عبد اللطيف، رأيت التفاؤل في عينيه، تذكّرت أيامنا القديمة، قلت:
- وخُطبتك الخرساء، هل نسيتها؟
- الآن أصبحت خطبة صمّاء، ماأجمل تلك الأيام، كان كلّ شيء بسيطا، وكان الإنسان منّا يتكلّم ويضحك، لماذا تنقلب الدّنيا هكذا، وبهذه السرعة.
قالت سعاد:
- لايهمّ، لأنّها ستنقلب من جديد، ستعود الأشياء إلى أحسن ممّا كانت عليه، ليس ألمك إلاّ جزءا من آلام كثيرة، سترى: إنّه سيمرّ بسرعة!
مدّت إليه تفّاحة ومنحتني تفاحة. أخذ عبد اللطيف منديل الحرير بين يديه، تأمّل الوردة التي تكاد تتكسّر وسأل سعاد:
- كيف رسمت هذه الوردة؟ أقصد لماذا جعلتها قريبة من البرتقال.
تأملتُ المنديل فوجدت أنّ وردة سعاد أشبَه ماتكون ببرتقالة، نظرت إليها كأنّي أؤكدّ ما قاله عبد اللطيف، سألتنا معا:
- هل لديكم فرق بين الورد والبرتقال؟
لم نستطع إجابتها، نظر إليها عبد اللطيف يقول:
- هذه امرأة جميلة حقّا، كيف عرفتها؟
- سأبحث لك عن امرأة تشبهها، المهم أن تشفى من ألمك... أجابني في سرعة:
- لا، ليست بي حاجة إلى أي امرأة، لن أحبّ امرأة بعد زوجتي.
فكّرت أنّه مايزال متشبّثا بصدقه القديم، وأنّ جنونه من بعض صدقه، أو إنّ صدقه من بعض جنونه، هكذا نحن صادقون مجنونون، أو مجنونون صادقون!
نظر عبد اللطيف إلى الأفق البعيد وسألني:
- وكيف حالك مع الفلسفة؟
- بخير، لاجديد فيها إلاّ كونها فلسفة.
- وفاس، ماتزال كما كانت؟
- لا، تغيّرت كثيرا، الآن يتّسع فيها بناء الصناديق...
- الصناديق، إذن سيسكن الناس في الصناديق؟

- نعم سيسكنون فيها.

- أحسن من ألاّ يسكنوا، كم بحثت عن منزل لمريم فلم أجده، كنت كمن يبحث في فراغ، الدّارالبيضاء مدينة فارغة، إنّها شبح رهيب، الأشياء فيها تتحرّك، الأشياء فيها مليئة، والإنسان، الإنسان لامعنى له، هل رأيت أناسا يكرّسون حياتهم للأشياء؟

- لا، لم أرَ ذلك، ولكنّ اللعبة أكبر منّا.

لم يفهم عبد اللطيف كلامي، ربّما تكون أوّل مرّة لم يفهمني فيها. تدخّلت سعاد قائلة:

- الآن نذهب.

أجابها عبد اللطيف:

- ستتركونني وحدي.

أحسست أنّه حزين، قلت له:

- سنأتي غدا.

تماسكت إرادته:

- سأنتظركما، هل بإمكانك أن تشتري لي بعض الثياب الداخلية؟ مدّ يده إلى جيب قميصه، يريد أن يمنحني بعض الدّراهم، سلّمت عليه، احمرّت عيناه، كان يريد أن يبكي، ضغطت على يده، نظر إليّ نظرة صلبة، وانصرفت مع سعاد أحكي لها بعض قصصنا الأولى.

□ □ □

اتّفقنا على أن نذهب إلى السينما، شاهدنا فيلما أمريكيا تافها، كانت السماء صافية في ظلمتها، تلوح نجومها الصغيرة عن بعد كأنّها تريد أن تسقط، الساعة واقفة عند الثانية عشرة ليلا، في الشوارع المتقاطعة أناس كثيرون، طلبت من سعاد أن نتجوّل قليلا، لم أشعر بأيّ رغبة في النوم، ثمّ إنّي أريد أن أنسى تفاهة الفيلم الذي رأيناه لأهتمّ بمأساة عبد اللطيف ومصيره.

كان فندق (الحرية) الذي احتجزنا فيه غرفتنا قريبا من السينما، قطعنا الطريق بينهما مرّات عديدة، لم يصبني التعب، ولكنّي أردت أن أشرب قهوة في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، وافقتني سعاد على ذلك، فجلسنا في مقهى الزهور نتحدّث في الماضي البعيد وفيما سنفعله غدا بعد أن نزور عبد اللطيف. كنت حين أتحدّث عن طفولتي أشعر شعورا عميقا بأن المسافة بيني وبينها بعيدة جدّا، كأنّ قرونا تفصل بيني

وبين ذكرياتي، كأنّني حين أتحدّث عنها أتحدّث عن إنسان آخر، عن أشياء في متحف متقادم عتيق، ثمّ أقفز في سرعة كي أتحدّث عن المستقبل. ربّما أكون هاربا من الحاضر؟ ولماذا لايكون الحاضر هو الذي يهرب منّي؟ أليست المسألة هي أنّنا غير متوافقين؟ فكيف أحكم على نفسي بالرّداءة وأترك الدنيا بريئة؟ أليست سعاد برهانا واضحا على أنّي على حقّ. ربّما كنت خاطئا فيما مضى، حين تساوت كلّ الأشياء في ذهني، حين أردت الانفصال عن كياني لأمارس عبثي كيفما اتفّق؛ أما وقد استعدت محبّتي، وظللت مرتبطا بعبد اللطيف، أخلص له كما أخلص لسعاد، فإنّي مازلت كما كنت في الماضي البعيد، أرتبط بالأشياء الجميلة، أحبّ أن تصير الدّنيا على ماكانت عليه بسيطة عادية لاتقتل الإنسان.

إنّ ضياعي الذي كان، جزء من ضياع أكبر. فهل تخلّصت منه، يبدو أنّ الأمر كذلك، وإلاّ فلا معنى لأن أزور عبد اللطيف، وأجلس في مقهى الزهور مع سعاد ننتظر أن يسفر غدنا عن شيء خارق أو بسيط يربطنا بالحياة.

هل ذهب وقت المحبّة إلى غير رجعة؟ لا، لايمكن أن نصير خشبا أو كالخشب، هل سنموت في التفاهة؟ لا، لن يحدث ذلك، سنسترجع كلّ براءتنا القديمة، وستؤذّن مآذننا من جديد لتعلن عن أنّنا مانزال كما نحن أناسا طيّبين، ستصير كلّ الأشياء رائعة كما كانت أو يزيد، ستهبّ علينا رائحة البنفسج والبرتقال، ستسقينا حبّات المطر، سنسبح في المحبّة، ولا كراهية بعد اليوم.

ماكدت أجلس في مقهى الزهور وأحتسي قهوة سوداء أنسى بها عبد اللطيف حتّى تراءى لي شبح امرأة. هل هي ياسمين؟ لابدّ أن تكون هي! خصلات شعرها ماتزال كما كانت مضفورة على طريقتها القديمة. ولكنّ وجهها تغيّر، أصابه بعض التغضّن. لا، ليست هذه هي ياسمين التي عرفتها، كلّ شيء فيها قد تبدّل. قد أصبحت ياسمين عاهرا! هل أصبح قلبي القديم عاهرا في مهبّ الريح؟ لا، لم يذبل قلبي، فلماذا ذبلت ياسمين. قد أحببتها في طفولتي، فهل تصير الطفولة عاهرا رديئة؟ هي ياسمين، لابدّ أنّها ياسمين، لا، لا يمكن أن يحدث ذلك. هل تختلط الأشياء إلى هذا الحدّ؟ هل يصير حبّي تفاهة كبيرة في مقهى الزهور؟ لابدّ أنّ هناك شيئا معيّنا قد خذلني.

سألت سعاد:

- ماالذي أصاب عبد اللطيف؟

أجابتني:

- لاشيء، لاشيء...

- وكيف أصبح مجنونا؟

- لا، ليس مجنونا!
- وهذه المرأة التي أراها؟
- من؟
- هناك، أترينها، هذه التي تشرب (كوكا كولا)؟
- نعم، هل تعرفها؟
- أعرفها؟ هذه ياسمين!
- ياسمين؟ لايمكن، هذه هي التي المرأة التي أحببتَها حتّى الموت؟
- نعم، هذه هي التي أحببتها أكثر من كلّ امرأة في الدّنيا.
- وجمالها؟
- ذبل كما ترين، لم أكن أعرفها على هذه الحال، كانت كالبدر وشلاّل الماء، كانت كلّ شيء في حياتي.
- ولماذا تركتها؟
- هي التي تركتني، خذلتنا الدّنيا معا، وافترقنا.
- يبدو أنّك ماتزال تحبّها؟
- وكيف يمكن أن ننسى محبّتنا الأولى؟

أحسّت سعاد ببعض الانزعاج، ادّعت أنّها تريد أن تنام، أكملْتُ فنجان القهوة، ودعوتها إلى الانصراف.

لم يكن الوقت الذي دخلَتْ فيه ياسمين إلى المقهى وانصرفنا فيه نحن من المقهى يجاوز ربع ساعة، ولكنّها كانت وحدها، ودخّنت ما يفوق أربع سجائر، كانت تشعل واحدة بواحدة، فما الذي أصاب أجمل امرأة عرفتها؟ ألم تكتف الأيام بخذلانها الأوّل؟ هل من الممكن أن يكون حظّها سيئا إلى هذه الدرجة؟

مررنا بالقرب من طاولتها، نظرَتْ إليّ، عرفتْني، كانت نظرتها منكسرة، كأنّها قد أصابها فزع منّي، ماكادت تنظر إليّ حتّى أدارت وجهها إلى الجهة المعاكسة. وضعت يدي في يد سعاد وقصدنا الفندق.

كنت أستعجل الوصول إلى الغرفة، دلفت إليها بسرعة، ارتميت فوق السرير، أفكر في كلّ شيء ولاشيء.

لم تكلّمني، فهمَتْ أنّني منشغل بمحبّة ياسمين وبالماضي البعيد الذي كان يجمعني بها.

نمنا ليلتنا التي لم أنمها، وفي الصباح دعوتها إلى أن نزور عبد اللطيف فرفَضَتْ.
- سأرجع إلى فاس.
- سنرجع معا...

- متى؟
- حين أطمئن على صديقي.
- ثمّ ترى صاحبتك.
- لا، لن أراها.
- أنا متأكدة من أنّك تريد ذلك؛ سأنصرف وأتركك إلى إخلاصك الأحمق.
- هل أنت متأكدة من أنّك ستسافرين؟
- نعم سأسافر.

ذهبت معها إلى محطّة القطار، ودّعتها، ثمّ انطلقت من محطّة القطار إلى مستشفى المجانين، حدّثت عبد اللطيف بأنّني رأيت ياسمين، سألني عن سعاد، أجبته بأنها سافرت إلى فاس، غضب لذلك غضبا شديدا وهو يقول:

- أنت أحمق، أنت أحمق!

تركته وانصرفت توّا إلى مقهى الزهور، أنتظر ياسمين!

كان اليوم الذي لقيتها فيه ممطرا غائما، لقيتها صدفة، هكذا في مدينة الموت. سألتها:

- أنت ياسمين؟

لم تجبني، قلت لها:

- لقد أحببتك في طفولتك؟

نظرت إليّ نظرة غريبة لم أعرف لها معنى، واصلت شرب قهوتها وتدخينها. لعنتُ الأمريكيين، وتذكّرت الحلوى التي كنّا نشتريها من دكاكين قريبة من المولى إدريس، ثمّ تجرأت من جديد وطلبت منها عود ثقاب أشعل به سيجارتي السوداء. ناولتني نارا، واستمرّت في نظرتها المنكسرة إلى قدميها.

بدوتُ ثقيلا أبله، تراجعت قليلا إلى الوراء واستعدت أمارات كانت غائرة في قلبينا معا، قلت:

- أنت التي كنت أنام فوق صدرها وتنام فوق صدري، أنت التي كنت ألمس شعرها بأناملي فأشعر أنّ العالم يسكن في ضفيرتها وعينيها. أطفأتْ سيجارتها، نظرتُ إلى شفتيها، تذكّرت حمرتهما القديمة، ذبلت شفتا ياسمين وانكسرت عيناها.

ابتسمَتْ، رفعت عينيها إليّ في سخرية:

- هل عرفتني حقّا؟ ماذا تريد؟
- أريد أن أحيا معك أيّامي القديمة؟

ضاقت عيناها قليلا، ودعتني إلى أن أجلس:

- ماذا قلت؟

- أريد أن أعيش معك حياتي الماضية؟ أريد أن تبعثيني من جديد وكأنّي لم أعرف هذه الدّنيا التي عرفتها بعدك؟ ضحكت ياسمين، أحسست أنّ ضحكتها من ليالينا المنسية، حنّت مشاعري إلى دروب فاس، إلى صحن الضريح وقبّته، قلت لها في صوت أجشّ:

- مازلت أحبّك كما كنت، لقد فقدتك في الطريق!

أشعلت سيجارة أخرى ودعتني إلى أن أشرب شيئا ما.

- سأشرب، سأشرب، ولكنّني أريد أن تمنحيني قلبك وشفتيك كما كنت تفعلين في زمن مضى؟

- غير ممكن، شفتي الآن احترقت، ألا ترى؟

- وقلبك؟

- قلبي، جفّ في داخلي، لم أعد أحسّ بنبضه. . .

- وطفولتك؟

- ذهبت في مهبّ الريح!

- وأنا ؟

- لم أعد أعرفك، نسيتك كما نسيت نفسي!

- كنتُ جزءا منك؟ كنت أسكن قلبك؟

- احترقت ذكرياتي، لم تعد أجزائي منّي، تتنازعني الآن أطرافي، تتنافر داخلي، هل تفهم معنى أن يريد الإنسان شيئا ويفعل شيئا آخر لايريده؟

- وأنا، ألا تجدين لي مكانا في ذاتك الطيّبة؟

- غير ممكن، فصلت بيننا أيّام قاسية، ذهب بنا الكره كلّ مذهب، لسنا الآن كما كنّا من قبل نعيش مانحسّ به فعلا، نقول شيئا ليس هو مانرغب فيه فعلا، خانتنا كلماتنا. تقول إنّك تحبّني، ولكنّك تشعر بشيء آخر غير المحبّة، إنّك تستعيد صورة الزمن البعيد، لا قدرة لك في أن تحييها، أنت كمن يرفض الاستسلام ليستسلم، أنت تعاني من انتفاضة الموت، من نبضة أخيرة وعنيفة لا معنى لها.

استولى عليّ صمت مشلول، أشعلتُ سيجارة من علبتها، وهمست في اضطراب:

- أراك يائسة إلى ما لانهاية؟

- لا، ليست القضية مسألة يأس أو أمل، القضية أنّني لست قادرة على أن أيأس، لا أستطيع أن أرغب في شيء معيّن، أنا كما ترى، أحيا هكذا، أفعل شيئا ما لأنّه يريد أن أفعله، كأنّ الأشياء تمتلك إرادة ما نفعله بها، أدخّن لأنّ السجائر في

حاجة إلى أن تُدَخَّن، آكل لأنّ الرغبة في الأكل ليست لي، وإنّما لما قد آكله أو ياكله غيري.

- هل تسكرين معي؟

ضحكت تقول:

- ومافائدة السكر؟ لقد كان له معنى حين كان لذّة ومتعة ننسى بهما تعب الدّنيا. أمّا الآن فنحن متعبون في كلّ حال، حزننا في الفرح كحزننا في الحزن.

- هل فقد العالم معناه؟

- لا، نحن الذين فقدنا معنانا، هل تجد لنفسك معنى محدّدا أنت الذي تسألني؟

تأملّت الأمر للحظة، وجدتها على حقّ فيما تحدّثني به. ثمّ سألتها:

- هل تذكرين صديقي؟

- من؟ عبد اللطيف؟

- أصيب بالجنون...

- أحسن، لقد اختصر الطريق، تعرّف في الوقت اللازم على أنّ العالم سيصير مجنونا! لا، أخطأت التعبير، العالم أتفه من أن أصفه بما أصاب صاحبك. عرف أنّ العالم سينقلب، ستصير الأشياء آلهة، وسيموت الإنسان في عبادته لها. ستسكننا الرغبة في أن نصبح جميعا أشياء مستهلكة. تصوّر -وهي تضحك- أنّ الإنسان يساوَى بقنينة أو علبة من أيّ سلعة. هكذا نحن، نقاس بهذا أو ذاك ممّا قد نشتريه بدرهم أو درهمين. يبدو أنّ إرادتنا قد انسلخت عنّا لتكتسبها أشياء بليدة من حولنا. أشياء تتعدّد، تتلوّن، ترتفع أثمانها، ونحن نندحر، نعبدها باستمرار حتّى تحوّلنا نحن أيضا إلى المنطق الذي يسودها، منطق العدد والثمن والسوق الرائجة. يراودني أحيانا إحساس متوتّر بأنّ هذا الفستان الذي أرتديه أكثر منّي قيمة، هذا الحذاء الذي أطأه يعلو رأسي، يتسامى فيمتلكني، أبدو حشرة وأنا أنظر إليه من فوق، لاأرتديه لأسير، بل صار يرتديني ليشقّ طريقه المرسومة في ذكاء وفق لعبة رهيبة تحطّمني، لا، حطّمتني، حطّمتني.

- حطّمتك لأنّك استسلمت لها.

- لا، لم أستسلم، كنت جزءا منها، مركزا من مراكزها، سيطرت عليّ دون أن أشعر، تمكّنت منّي قبل أن أعرف حدودها الملتوية، كانت بسيطة في البداية، ظننت أنّني سأتجاوزها، دمّرتني من حيث لاأدري.

- ألا أمل الآن في استرجاع مافات؟

- الأمل، تتحدّث عن الأمل، غريب أنت في تفاؤلك، أما تزال ساذجا كما كنت في طفولتك؟

- أريد استعادة ماضاع منّي، أريد أن أبدأ بداية أخرى، ألا تساعديني في ذلك؟
- عُدْتَ إلى أحلامك القديمة، أنسيت ماكنت تحدّثني به من أنّنا سنتزوّج، وسيكون لنا أبناء، وسنبني دارا صغيرة نزرع فيها القرنفل والياسمين؟ ألم يخذلك حلمك البسيط؟ فكيف لك بحلم مدمّر؟
- ألا يمكن أن نصنع من أنفسنا أناساً آخرين؟
- انتهى الزمن الذي كان فيه الإنسان يصنع بنفسه مايريد، الآن أصبح كلّ منّا معلّبا بشكل أو بآخر، نحن أناسٌ معلّبون، يُفعَل بنا مانريده ومالانريده، مصيرنا منفصل عنّا.
- والمحبّة، أليست معجزة كلّ الأزمنة؟
- دعني من هذه الكلمة الفارغة، كنت أومن بها قديما، تحوّلت الآن في نفسي إلى كفر ميّت، إمّا أن أكره أو لاأكون، لابدّ لي من أن أكره.
بدت ياسمين غريبة بالنسبة إليّ. لم يبق منها سوى شبح يتناثر في ذاتي المقهورة. هل هذه هي التي تركت من أجلها سفري؟ هل هي التي وعدت نفسي بأن أبحث عنها في كلّ المدن؟ تركت سعاد تذهب وحدها لألتقي بالوهم؟ لا، لن يسكنني وهمها المستبدّ، سأظلّ كما كنت مخلصا لمحبّتي، سأحبّ محبّتي ثمّ أكون حرّا بريئا فيما أفعل! لن تعوّج بي طرق الدّار البيضاء. سأزور عبد اللطيف مرّة أخرى، وأذهب عند مريم، وأهرب إلى سعاد فأعينها على أن تبحث في قلبي عن ذكريات جديدة أمحو بها حقيقتي ووهمي.
سألتها:
- أين طفلك؟
-طفلان اثنان، أخذهما أبوهما.
- كيف؟
- طلّقني!
- طلّقك؟
- نعم، لأنّني كرهته، به بدأت كراهيتي، انتزع منّي ولديّ ولفظني.
- هل تتزوّجينني؟
ضحكت ضحكة عالية ونظرت إليّ في قسوة وسألتني:
- من هذه التي كانت معك البارحة؟
- امرأة أحببتها بعدك.
- إنّها جميلة.
- نعم جميلة.

- لماذا لاتتزوّجها؟
- سأتزوجها.
- أنا الآن لا أصلح لك، من الأحسن أن تترك الماضي يندثر، سينسانا الزمن، المهمّ أن تفكّر في مستقبلك، أن تهتمّ بنفسك. . . .

كانت لغة عقلها أقسى من صدمتها القديمة حين خذلتني، ازدادت غربتي بالنسبة إليها. قمت من مقعدي، قبّلتها في خدّيها، أدّيت ثمن ماشربناه وانصرفت. دموعي في عينيّ، أدرت رأسي نحوها بعد خطوات، رأيتها تدخّن، تنظر إلى الأفق في فراغ، واصلت طريقي وأنا أقول:

"ليست الأشياء كما يجب أن تكون" !

دخلت إلى حانة من حانات البيضاء، شربت جعّة وجعّة وكأس ويسكي، أحرقت قلبي من سجائر متواصلة سوداء، أصابني الجوع، تناولت هامبرجراً رديئا، ضعت بين الطرقات، ثمّ تذكّرت دار السّي المعطي.

لم تعرفني مريم، صحت في وجهها:

- أنت خائنة صديقي!

ضمّتني إلى صدرها وأخذت تبكي، بكيت معها في سكري! جاءت أمّها، نظرت إلينا في دهشة، أقفلت الباب، ودعَتْنا إلى الجلوس في الغرفة الصغيرة. سألت ابنتها عنّي، أجابتها في صوت متقطّع:

- هذا، هو . . . صديقه . . . صديقه القديم . . . الذي حكيت لك عنه. . . . كان أبوه صديقا لأبي. . . . هؤلاء الذين كنّا نزورهم حين نزور. . . . حين نذهب إلى فاس.

أجهشتُ في بكائي وأنا أقول:

- الآن صديقي مجنون؟
- أين؟
- في 36 تْرانْت سِيسْ، زرته البارحة، هل تزورينه معي؟
- سأحاول .
- سأذهب معكما.

فهمت أنّ جوابهما مجرّد محاولة لتهدئتي، واصلت كلامي:

- لابدّ من زيارته، هو في حاجة إليك، لو كان أبوك حيّا لما تركه في هذا المستشفى.
- لا، ستزوره، ستذهب عنده، هو زوجها على كلّ حال. . . .

- زوجها؟ يقول إنّه طلّقها؟

- لا، لم يطلّقني، كان يريد ذلك، ولكنّه لم يفعل.

- ويقول إنّك متزوّجة؟

-لا، لم أتزوّج، كيف أتزوّج وأنا متزوّجة؟

تيقّنت أنّ الدّنيا ماتزال جميلة، وتذكّرت قول جدّتي:

"يدورْ الزّمان حتّى يْدورْ، ويولّي لعَيْن الرّحى"!

- ستزوره غدا؟

- سنزوره غدا.

وقفت لأنصرف، سألتني مريم:

- إلى أين؟

- سآتي غدا في الساعة الثامنة.

- لايمكن، لابدّ أن تتناول معنا طعام العشاء.

- أكلت، أكلت!

- لا، ستاكل أيضا، ألا ترضى الآن بطعامنا؟

جلست في مكاني، لم أجد أيّ موضوع أتحدّث فيه، تأملت مريم في حركاتها وهي تغيب ثمّ تظهر كي تحضّر مائدة العشاء، لم ألاحظ أيّ تغيير قد طرأ عليها، ماتزال ضاحكة منطلقة كما كانت في ماضيها البعيد، إلاّ أنّها الآن تضحك كي تنسى الألم الذي لفّ قلبها، في حين أنّها فيما مضى كانت تضحك لتضحك. سيذهب ألمها حين تتزوّج زوجها، عندما تعود إليها إشراقة الأمل ستضحك لتضحك.

جلسَتْ إلى جانبي، مدّت لي قطعة خبْز وهي تقول:

- إيوا الفاسي، لم نرك في الدّار البيضاء من زمن بعيد، مازال مخَبّي فْدَاك فاس، شي مرّة طّيح عليك...

ضحكتُ، قالت أمّها:

- إيوا بْديتي، بَاغْدي عليه، كُلْ آولدي، كيف حال الوالد، والوالدة، بِخير، وانْتَ، مازال كتقرا.

- نعم، سأتخرج هذه السنة.

- فَاشْ؟

- في الفلسفة؟

نطقت مريم وهي تبتسم:

- الفلسافة، سير، ايوا ولّيتي مجْهَد!

سألتها:
- وأنت، أما تزالين في الشركة؟
- أيّ شركة؟
- التي حدّثني بها عبد اللطيف؟
لمعت عيناها في ذكاء متوقّد، فهمَتْ أنّني أعود بها إلى أصل المشكل.
- لا، هذه الشركة تركتها، كان مديرها زوج صديقتي، انتقلا إلى أگادير، والشركة بعيدة، الآن أناقرية من المنزل، أسير على قدميّ.
أدركت أنّ عبد اللطيف قصّر في حقّها، حمّلها مسؤولية عجزه في أن يوفّر لها بيتا في الدّار البيضاء، جعل من عملها كارثة شيّد بها تدميره؛ ابنة (السّي المعطي) هي ابنة (السّي المعطي)، ولا فائدة من خيانتها الواهمة!
إذا خرج عبد اللطيف من ترانت سيس -36 ستسير كلّ الأمور على مايرام.
اعتذرتُ لها بعينيّ وأنا أقول:
- فلسفتك أحسن من فلسفتي.
أجابتني تضحك:
- إيوا، باراكا من الكذوب، انتوما هْل فاس مايقاد عليكم حَدّ فالتّواشي...
- وانتوما بيضاوا مايقادْ عليكم حَدّ فالوْعَارَة.
أكّدَت أمّها تقول:
- صْعاب آوليدي.
كانت أمّها شريفة شرقاوية، هذا ما كان يقوله أبي، فلابدّ أن تكون كذلك، ولابدّ أن (السّي المعطي) كان يعاملها في طيبوبة وحزم يضمن معهما شرفه ورجولته في آن واحد. فكيف تخون مريم عبد اللطيف؟ غير ممكن!
ودّعتهما، وذهبت إلى فندق الحرية، على أساس أن ألتقي غدا بمريم حتّى نزور عبد اللطيف.

نمت في تلك الليلة حتّى آخر الصباح، كأنّي حين تحدّثت إلى مريم قد نسيت كلّ المأساة. كنت كمن عثر على رأس الخيط وسيبدأ من جديد.
ربّما يكون في عبد اللطيف أصل البلاء، إذن عليّ أن أعيد ترتيب الأوراق لأحاول فهم هذه الحياة التي اختلطت عليّ بما فيه الكفاية. حتّى ياسمين سأحاول العثور عليها من جديد وأقنعها بأنّه لافائدة من أن تغرق في الدّار البيضاء التي أصبحت بالنسبة إلينا جميعا علبة سوداء. وسعاد، هذه زوجتي في المستقبل القريب، وهي التي تلقّفتني في ليلة فزعي من البرد حين ترك رجال الأمن طريقي، فلايمكن أن أتخلّى عنها.

ذهبنا إلى عبد اللطيف، لم نجده في المستشفى، سألنا عنه، قالوا إنّه ارتاح من قلقه فأمرهم الطبيب بإخلاء سبيله. سألتني مريم:

- إلى أين من الممكن أن يذهب؟

- إلى بيته في الجديدة.

- أو إلى منزل أخيه؟

- لا، غير ممكن!

- وماذا نفعل الآن؟

- سأذهب إلى الجديدة!

- سأذهب معك!

ركبنا حافلة السفر، ذهبنا إلى شارع فكتور هوجو، لم نجد عبد اللطيف، رجعنا لتّونا إلى المحطّة، وركبنا نحو الدّار البيضاء، ودّعتُ مريم وقصدت دار أحمد، كان قد سلّمني عنوانه حين التقيت به في معمل الذّهب. سألته عن أخيه، اندهش لخروجه من 36، صاح في خادمته:

- هل قفلت الباب جيّدا.

ابتسمتُ فيَ سخرية مريرة، احمرّت وجنتاه، قال لي:

- هل تشرب شيئا؟

شكرته، سلّمت عليه، وتركته لخوفه وهواجسه من أخيه. ركبت قطار الساعة التاسعة، ورجعت إلى فاس.

هكذا نحن بين الأمل واليأس والأمل. سنظلّ كما كنّا. كتب فوق جباهنا أن نعاني ونخلق من معاناتنا قمرا بعينين واسعتين يلوح عن بعد ويحدّثنا بأنّ غدنا قريب أو يكاد. هكذا نحن... نصنع من أنفسنا شيئا آخر غير ما نحن فيه من نبض متألّم ينبت القرنفل. لقد كفرت بالمحبّة من زمن بعيد، ولكنّني سأحبُّكَ حبّا ليس كالحبّ في هذا الزمن اللعين. سأبني لكَ قبّة وضريحا وصحنا، وأشعل الشمع الملوّن بالأخضر والأحمر والورود، شمع المولى إدريس. هل تذكر ليلة القدر. كنّا نخرج من دروبنا مع مغرب الشّمس، ونقصد الضريح الكبير، ندخله جماعات فوضوية صغيرة، ونتجارى وسطه، نفرح ونتحابّ ويغار بعضنا من بعض دون حقد أو كذب، كانت الأساطين ترقص معنا رقصة الفوضى، وكانت فسيفساء الصحن والقبّة تتضاحك من صخبنا، كان شبّاك الأماني يسخر منّا ولانهتمّ. كان الجبس والخشب المنقوشان جزءا منّا يتناسق في أعيننا وقلوبنا، كنّا لوحة محمّلة بعبق التاريخ

ورائحته الرطبة، يصيبنا العطش من كثرة الجري والضحك والتدافع فنشرب من أيّ ماء يجري في سواقي الضريح.

في ليلة القدر يتركنا المقدّم نفعل مانريد، يغيّب في ليلة القدر سوطه، ويجلس القرفصاء بعيدا عنّا، ينظر إلينا ويبتسم. كنت أعرف أنّه يتأمل في ذلك اليوم سنة منصرمة فيسخر من نفسه، ينظر إلينا فيجد لعبنا صلاة أو كالصلاة.. فيسخر من سوطه.

كانت ليلة القدر ليلة الأمل الذي لابدّ من أن يتحقّق. فيها، وفي وقت متأخّر من الليل تنفتح باب السماء، فنطلب من الله كلّ رغباتنا ونشكو إليه أحزاننا. ننتظر باب السماء كي تنفتح فتنفتح، ونتوجّه إلى الله بمطالبنا فتتحقّق؛ لاأدري سبب ذلك.

هكذا كانت ليلة القدر مجالا للضحك والفرح وطريقا إلى باب السماء. هل تصدّقون أنّنا كنّا نرى وجه الله يتعطّف نحونا بالأمنيات البسيطة والرغبات الجامحة. كان منّا من يصعد إلى السطوح، ومن يقضي الليلة فوق قنطرة الرّصيف أو في جامع من الجوامع القريبة. ولكنّ الضّريح الكبير كان مقصد الذين يؤمنون حقّا بانفتاح باب السّماء. كان كلّ ماحولك داخل الضريح يحدّثك بأنّ الله قريب منك يكاد يأخذ بيدك. حصيره يشهد بأنّ أقدامنا ما كانت لتطأه بهتانا أو كفرا مغلّفا بإيمان ضالّ. صومعته الخضراء الشاهقة تتعالى نحو السحاب وتنظر إلينا في عطف كأنّنا قد ولدنا من بين شقوقها وثناياها.

والآن أين ليلة قدرنا؟

ضاع صديقي، والتقيت بياسمين فأنكرتني! أهكذا نضيع صدفة وننتهي صدفة؟ هل أصبحت علاقاتنا هشّة إلى هذا الحدّ؟ أليست ياسمين هي ياسمين التي عرفتها؟ أجزم أنّها امرأة أخرى، لا، ليست امرأة. أنت حذاء أو فستان أو حقيبة يد. كنت أعبدك فيما مضى، فهل أعبد الآن الأحذية؟ هلَ أحضن حقائب اليد وأقبّل الفساتين؟ لقد صارت شفتاك إلى زرقة وبرودة. مالذي تشوّه فيك؟ أين روحك الطيّبة وعيناك الدّافئتان. قد صرت من ورق ذابل وكيان لاكيان له، لا، لست كيانا، أنت فراغ مخيف يرجع على عقبيه، أنت قطعة لحم معلّب!

ماذا أحبّ فيك اليوم؟ هل أحبّ امرأة ميّتة؟ أنت قبر محنّط.

سأخلص إلى ذكراك، وسأبني كياني من محبّة جديدة، سأحبّ محبّتي كما قلت من قبل، ثمّ أحاول أن أعثر على ماضاع منّي في كراهيتي، سأحاول.

□ □ □

حين وصلت إلى فاس، ذهبت إلى المقهى الضيّق الذي التقيت فيه بسعاد أوّل مرّة. كنت متيقّنا من أنّني سأجدها في المكان الأوّل الذي التقينا فيه، كما أنّني كنت متيقّنا من أنّها ستكون قد رسمت شيئا جديدا وجميلا إلى أبعد حدّ من حدود قلبها النابض بالحياة والاشتعال.

وجدتها في المقهى، كأنّها كانت تنتظرني. سلّمت عليّ في برودة وسخرية، كانت تعرف أنّ لقائي بياسمين سيكون لقاء فاشلا، دعتني إلى أن أجلس بالقرب منها، لم أتردّد، كنت كمن ستنتشله من دوّامة رهيبة. ماأقسى أن نحبّ وننسى محبّتنا. في الحياة خيبات كثيرة، وليس فيها كخيبة النسيان. نظرت إليّ سعاد في عطف كبير. فهمَتْ أنّني حزين حقّا، أخذت يدي اليمنى، ضغطت عليها، كانت تريد أن تقول إنّ الإنسان لايمكن أن يعيش في خيبة دائمة، كأنّها تؤكد بأنّ محبّتها لن تتبدّل. نظرت إليها كطفل صغير، شعرت أنّها طيّبة ورائعة، لم أدر كيف انعطفت نحوها، أمام الناس في المقهى، وقبّلتها. ظننت أنّ كلّ الناس ينظرون إلينا، انتبهت، وجدت كلّ واحد قد استغرقته طاولته، ربّما يكون كلّ واحد يعيش خيبة قديمة ومحبّة جديدة، بل ربّما يكون كل الناس في دوّامة أو فزع متبدّل. المهم أنّني قبّلت سعاد أمام الملأ، وأنّني استرجعت في قبلتها تلك جزءا من ذاتي أضعته في الدّار البيضاء. سأظلّ أضيع ذاتي وأسترجعها إلى مالانهاية من البداية والرجوع، لاخلاص لي إلا بهذه الطريقة.

قلت لها:

- ألم تغاري من مكوثي في الدّار البيضاء؟

- عرفت أنّك سترجع إليّ!

- أرجع إليك؟

- نعم، ترجع إليّ لأنّك دوني ستكون وحدك، ستغرف في مدينة مثقوبة، ستضيع كما ضاع صاحبك!

- والفلسفة التي درستُها؟

- هذه فلسفة، والدّار البيضاء شيء آخر، مخالف تماما لما تفلسفتَ فيه!

- وكيف عرفت ذلك؟

- عرفته بقلبي، بمحبّتي لك، هل تؤمن بالمحبّة؟

- أومن ولا أومن...

- يلزمك بعض الوقت، ستؤمن، ستؤمن بكلّ ما أقول!

قبّلتها قبلة أخرى وسكتّ. كانت ريقتها هواء جديدا أتنفّسه، كأنّي لم أذق ريقة من قبل، نسيت في قبلتها كلّ امرأة عرفتها قبلها، كنت كمن أحبّ لأوّل مرّة، أو كأنّي لم أعرف سعاد أو أقبّلها من قبل.

سألتها:

- كيف وصلت إلى فاس؟

- كما يصل كلّ النّاس، هل كنت خائفا عليّ؟

- خفت أن تنسي محبّتي!

- هل أحببتك لأنساك؟ ماذا فعلت مع صديقك؟

- صديقي ضاع بين الدّار البيضاء والجديدة، قتلته المحطّات، لم أجده في أيّ مكان، ضاع منّي إلى الأبد، لن أعثر عليه إلاّ داخل صدري.

- لم تجده في المستشفى؟

- قلت لك لم أجده.

انحنت برأسها إلى الأرض قليلا وهي تقول: ستجده، ستجده. طلبت قهوة سوداء، شربتها في سرعة وطلبت من سعاد أن نخرج من المقهى.

كانت قد ارتدت فستانا طويلا وقبّعة صغيرة سوداء، تأمّلت عينيها، كان بريقهما يلمع مع أشعّة الصباح، ارتسمت في شفتيها ابتسامة هادئة، وضعت يدي في يدها وأخذت أترنّم بأغنية حزينة فرحة:

غَابْ هلالَك فوسْط سْمَاه ... ولبَس لَبْسَه من ظَلماتو

هام فدروبُو والوَهم دَّاه ... الخَطوة فطريقُو عَيّاتُو

سَارْ فَخلاَمُو يبعّدْ وتَاهْ ... ومَا عْرَف نُورو من غَيماتُو

السكَّة الواضْحة بْقات وْراه ... همَلها وهجَرْها ونسَاتُو

هْلالك يمْكن يَرجَعْ لضْياه ... ترقَصْ وتْلالكي نَجْماتوُ

اخْبابُو والرّفيقْ خْداه ... ايّامُو تزيّان وسَاعاتُو

هْلالَك منّك وانْت وايّاهْ ... من نَبْضاتْ القَلْب ودَقّاتُو

القَلْب اللّي حَارْ معاكْ ومَعَاه ... وهْجَر فْراحُو وفَرحاتُو

هْلالَك خْذا قَلبي ودَّاهْ ... وضَيّعُو فرحْلَة من رحْلاتوُ

مَازَادمارْجَعْ من طريق غْواه ... ماسْكَن فْجوارُو وسَاحَاتُو

قَلبي مَسكين بْلاني وبْلاهْ ... هلالك فغْيابُو وطلاّتُو

مَرّة يظْهر فتّمَام بْهاهْ ... ومَرّاتْ يْتيه فتَلفاتُو

يْخَلّي قلبي هايَمْ فهْوَاه ... حزِينْ وذايْب فغَصّاتو

فـمـواج الحُـبّ رمـانـي ورمَـاه ... وكْـوى جْـوارحـي مـن كـيَّـاتـو
مْـرارْة الـكَـاس سْـقـانـي وسْـقـاه ... وذَوَّقـنـي شـقَـايـا وجْـرعـاتُـو
بْـغـيـتْ هْـلالـك يـشْـرق ونْـراه ... يـضـوّي بـنـورو وشـمْـعَـاتـو
الـدّنْـيـا والـكـونْ وْهُـو فـعْـلاه ... تَـنْـشـد رمَـالـو ومَـايَـاتـو
يَـونّـس ايّـامـي ونَـسْـعـد بـرْضـاهْ ... ويـلَـقّـي احْـلامـي بـهـمـسـاتُـو
ونْـعِـيـش الـزّمـان الـدّايِم فـحـمـاه ... ونـرْقـص بْـنـغَـامُـو وخْـضـراتُـو

لم يكن لديّ أيّ هدف محدّد، كنت كمن يريد أن تخلّصه سعاد من ألم متراكم، ألم يسكنني حتّى العظم. هل سأظلّ كما كنت أسكن الماضي ويسكنني حتّى النهاية. سألتني:

- هل رأيت جدّتك، لقد ذهبتُ عندها البارحة، إنّها مريضة.
- لا لم أر أيّ واحد حين رجعت، قضيت الليل في الفندق، كنت أريد أن أسكر حتّى الجنون.
- وهل سكرت؟
- كما لم أسكر من قبل، أحرقت كبدي ونمت ساعتين فقط.

امتلأت عيناها بدمعتين، كانت تعرف بأنّ ألمي أكبر من محبّتها، لم تستطع أن تنسيني كلّ المعاناة التي استبدّت بي.

- هل تتزوّجني؟
- لابدّ أن أتزوّجك، أنت رائعة في محبّتك، سأتزوجك.

ضمّتني إلى صدرها وسط الشارع الكبير، وهمست في أذني:
لم أحبّ أحدا كما أحببتك، جنونك يغريني بأن أتعرّى أمام الدّنيا وأصيح:
هذا إنسان أحببته

ضحكتُ في صمت، شملني فرحها، أخذ تفاؤلها يستولي عليّ، بدأ صدري يتّسع للمحبّة والألم. خاطبتها:

- هل تذهبين معي لنرى جدّتي؟
- أذهب معك حتّى آخر الدّنيا.

نزلنا إلى المدينة العتيقة، وجدت جدّتي قد اشترت منديلا أبيض تطرّزه بالورديّ والأزرق. سلّمت عليها، ضحكت، سألتها:

- ألم تكوني مريضة؟ هل شفيت بهذه السرعة؟

أجابني زوجها:
-سْباع ارواح، عَمَّرْها ماتموت.
ضحكت سعاد، نظرت إلى المنديل المطرّز، وسألتها:
- لمن هذا المنديل؟
-لك أنت، هذا أوّل هدية لزواجك من هذا الصعلوك، أين بتّ البارحة؟
- وكَيف عرفت أنّني جئت من الدّار البيضاء؟
- أخبرني الناسَ بذلك، رأوك تخيط الشوارع بالليل؟
- المهمّ أنّني لم أذهب إلى أيّ مكان، جئت إليك بمجردّ أن جئت.
- بعد أن قضيت ليلك؟
- هذا ماتقابل انتي، غير القوافي، laisse le faire tout ce qu'il veut.
اختلط ضحكي بضحك سعاد وجدّتي تقول:
- كلكم مَلاّ وخْدة، نوضو تغدّاوْ.
اجتمعنا حول المائدة المستديرة، مائدة عتيقة من الصنوبر، قوائمها قصيرة على قدر جلستنا المنحنية. أكلت في نهم كأنّي كنت جائعا لثلاثة أيّام أو أربعة. ثمّ شربنا الشاي. كانت سعاد منطلقة في انشراح متواصل، كنت أنظر إليها فأزداد محبّة فيها وفي ابتسامتها.
سألتني جدّتي:
-متى ستتزوّج؟
- هذه السنة، حين أنهي دراستي.
- الصداق عليك، والعرس عليّ!
- هي جبرتي شي كنز؟
- قلت لك العرس عليّ، سأبيع ذَهَبي وأزوّجك.
- إذن سأتزوّج، ولكن لاتبيعي كلّ ذهبك، بيعي شويّا وخلّي شويّا.
أجاب زوجها:
- خلّيها تبيع كلّ شي، دابا يدّيهوم بوموارث.
قالت سعاد:
-اتركو للاّ العزيزة على خاطرها.
أجابت جدّتي:
- خلّي داك العور يقول اللّي بْغا، راه تايهترف.
- المهم، العرس عليك، ايوا عنداك تندم.
- أجبته:

- لا هذه لن تندم فيها.

- سنرى.

قمت إلى الغرفة المقابلة، ناديت على سعاد، جلسَت بالقرب منّي، وقعت عيني بالصدفة على ديوان شعر كان فوق المكتب الصّلب، أعطيته لسعاد وطلبت منها أن تقرأ أيّ قصيدة منه.

كان صوتها عذبا متقطّعا كرذاذ موجة تتكسّر. كأنّني عشت في تلك اللحظة كلّ أحلامي القديمة. إيقاع صوتها ينبض به قلبي، شفتاها جزء منّي، عيناها بين السطور في عينيّ، ولمقاطع الشعر الذي تردّده صدى عميق يتسرّب إلى كياني في يسر وطمأنينة هادئة. كانت حركة يدها ترقص مع كلّ كلمة تقولها، وكان حاجباها يرتفعان وينحدران مع حركة يدها. كنت في حلم جميل متواصل، نسيت العالم من حولي، واستغرقتني لحظة المحبّة والشعر والعثور على ذاتي التي افتقدتها من زمن بعيد. كان منزل جدّتي صامتا كمتحف عتيق، وكان صوت سعاد غناء هادئا وسط الصمت. ما أروع أن نحبّ وأن نستسلم لمحبّتنا. لم يكن الشّعر الذي تقرأه سعاد شيئا ذا قيمة كبيرة، ولكنّها كانت تقرأه بنبضات قلبها، فلم يكن بإمكاني إلاّ أن أنساب مع الحلم الجميل. سألتها:

- أمازلت تصرّين على الذهاب إلى طنجة؟

- لا بدّ من ذلك، سأدرس في معهد الفنون الجميلة سنتين، ثمّ قد أرسم لوحات جميلة ستعجبك!

- وزواجنا!

- حين أرجع من طنجة، أو نتزوّج وأدرس.

- يفعل الله خيرا، لعلّ الزمن لن يخطئنا هذه المرّة؟

- هل أقرأ قصيدة أخرى؟

- ماأعذب أن تقرئي!

كان ديوان الشعر أنيقا كعينيها، أخذَته بين يديها من جديد وشرعَت في قراءة أجمل من قراءتها السابقة. وضعت يدي في يدها وأنا أقول:

- سأسير معك في طريق جديد، سأبني لك منزلا داخل صدري ونعيش معا إلى الأبد.

سألتني:

- هل نسيت الماضي أم أنّك مشدود إليه بهذه المحبّة التي تدّعيها؟

أجبتها في تلعثم:

- الماضي جزء منّي، أو إنّني جزء منه، هل تريدين أن أنسى ذاتي؟

- لا، ولكنّي أريدك للمستقبل، إنّ هذا الارتباط بذاكرتك يعمي عينيّ، أرى أنّك لست لي، فماذا أحبّ فيك وأنت ماتزال مرتبطا بياسمين، ياسمين سجنك الذي لاخلاص لك منه.

- وعبد اللطيف؟

- سأعينك في البحث عنه، سترى أنّه قد شفي من كلّ أوهامه، سيعود إلى زوجته وعمله!

كان تشاؤمي يستبدّ بي، وكانت سعاد شعلة أمل وسط التمزّق. طلبت منها أن تناولني ديوان الشّعر، وقرأت لها مقطوعة كنت أحبّها محبّة كبيرة، ثمّ قبّلتها، وافترقنا على أساس أن نلتقي بعد يومين.

انصرفت سعاد، تمدّدت فوق فراشي، أنظر إلى السقف وأتأمل المستقبل. ارتسمت أمام عينيّ سحابة بيضاء مشرقة، وكان وسط السحابة طفل جميل يضحك. أشعلت سيجارة سوداء وظللت أتتبّع كريّات الدّخان الذي تنفثه رئتاي. قلت: ربّما تكون الدّنيا على صواب وأكون أنا الخاطئ في هذا الزمن الهارب.

□ □ □

كنت قد انقطعت عن زيارة أسرتي لشهر أو أكثر، إذ كانت إقامتي عند جدّتي تزداد مع كلّ مدّة رسوخا وارتباطا بهذه المرأة العجيبة. كنت أتأكدّ باستمرار من أنّ إعجابي بها يفوق محبّتي لها، لم أكن أستطيع أن أتحرّر من سيطرتها عليّ، كانت تملكني أكثر ممّا أملك نفسي. أليست هذه المرأة هي التي فهمتني من بين سائر الناس؟ أليست وحدها التي لاأشعر إلى جانبها بأي نوع من أنواع الغربة؟ ماعلاقة هذه المرأة بالفلسفة؟ ولماذا أحبّها كلّ هذه المحبّة؟ ثمّ كيف تنتشلني من دوّامة الألم والخيبة بمجرّد أن تنظر إليّ؟ كيف أحببتُ هذا الرجل الضرير الذي تزَوّجته؟ أليست المسألة في الأوّل والأخير سكنا إلى الجذور وأملا في المستقبل؟

كان أبي يعاني من مرض الاختناق. تجارة الجلد التقليدي أصابته بالرّبو، ولكنّه لم يحد عنها بالرغم من ذلك. ذهبت إليه في حانوته الذي أخذت تدبّ إليه الرطوبة، وجدته جالسا ينتظر رزقه، كانت ملامحه تنمّ عن ضيق في صدره، وكنت أعرف أنّه متألّم لفقره أكثر ممّا هو متألم لمرضه. سلّمت عليه فابتسم قائلا:

- أهلا بالهرّاب...

- كيف حال أمّي؟

- لم أر ابنا يسأل عن أمّه وهو ساكن في مدينتها.

- كنت في الدّار البيضاء!
- في الدّار البيضاء؟ماذا فعلت هناك؟ لست تاجرا فيما أعرف؟
- ذهبت لزيارة صديق في المستشفى!
- مزيان، المهمّ سنزوّج أختك، هل ستحضر معنا؟
كدت أبتسم، ولكنّ سحنته الغاضبة منعتني من ذلك، أجبته:
- وهل رأيتَ أخا لايحضر زواج أخته؟
- إيوا ماعرفنا هادْ الفلسفة فين غاد تمشي بك.
قبّلت يده ومضيت في خطى متواصلة إلى المنزل أستطلع خبر الزّواج.
كانت أمّي وحدها في المنزل، وجدتها منشغلة بخياطة بذلة نسوية جميلة، سلّمت عليها، سألتها:
- هل هذه بذلة أختي؟
- لا، هذه بذلة فتاة أخرى!
- من؟
- لاتعرفها.
كانت بذلات النساء التي تخيطها بين حين وآخر وسيلة لإعانة أبي في فقره ومرضه، وكان يهمّني من ذلك هذه الطريقة التي تعين بها هذه الأمّ زوجها المختنق. في خياطتها تعب كبير، وفيها صبر متمكّن ومعاناة. إبرة دقيقة وخيط لاتكاد تراه، ثمّ غرزات متتابعة في عناية وحركة بطيئة لانهاية لها.
تركت الخياطة وسألتني:
- هل تَشرب القهوة؟ رأسي توجعني؟
- نعم أشربها.
قامت نحو المطبخ، حضّرت القهوة في سرعة، ثمّ رجعت بصينية صغيرة تحفّها أربعة كؤوس ويتوسطها إبريق من المعدن الحقيقيّ. شربنا القهوة، سألتني عن حالي، سألتها عن هذا الزواج وعن موعده، أجابتني بأنّ أختي الكبرى قد كبرت فعلا، وأنهم سيزوّجونها لموظّف في الفلاحة، معروف باستقامته وأخلاقه الفاضلة وسلوكه الجيّد وحيائه، وهو ابن أسرة معروفة في حيّ قريب من حيّنا قبل أن تصل إلى المخفية، وما إلى هذه العبارات التي أصبحت مع الأيّام أحسّ أنّها فارغة لاتكاد تقول شيئا.
- جيّد، مزيان، مبارك مسعود، أتمنّى أن تزوّجوا أختها أيضا.
- إيوا وليدي، هادي مازالْ كتقرا؟
- إيه، نعم، تقرأ، سياتي وقتها.

لم أكمل جملتي حتّى انتصبت فوق رأسي، كأنّ الأرض قد انشقّت عنها:
- أهلا بفيلسوف الزمان، إيوا طاحت عليك شي فكرة تهرّس الرّاس أو مازال؟
قمت من مكاني، ضممتها إلى صدري، سألتها عن دراستها، أجلستها بالقرب منّي. كانت جميلة ومتفائلة، تستهين بالدّنيا وتضحك، ثمّ كانت جادّة في درسها وبناء مستقبلها. وأحبّ ما كان إليّ فيها سخريتها البريئة من كلّ شيء. خاطبت أمّي:
- فاين كاسي دلَقهوة، ولاّحنا ماعندنا حقّ، جاهَيْجَل ودَا كلّ شي. آ الوالدَة، هيجل راه هو مول الدّيالكتيك، كاتعرفي انتي الدّيالكتيك، الدّيالكتيك هو عَندي عندك، هادي ديالي وهادي ديالك؛ ديالي، ديالك، ديالكتيك! ايوا شتي الفلسفة، وهي تلتفت إليّ.
ركّزت ذهني فيما تقوله، وجدتها على حقّ في سخريتها الرائعة. خاطبتني:
- مازال نزيدك، دابا أنا هاد العام دْرَسْت شويّا دكفلسفة، هل تعرف واحدا اسمه أوجست كونت؟ إذا نقلته إلى الفرنسية أصبح au just compte، أليس كذلك، إيوا الكوَنت مافيه فلسفة الكونت آسيدي خصُّو يكون فَالبَنك.
غريب أمر هذه البنت! كأنّها تعرف كلّ شيء!
- إيوا، زيدي، هاد الفلسفة جديدة.
- ألا تحبّ الجديد؟ أنتم أصحاب التجديد في كلّ شيء، اصْبار، اسمع هادي:
- لماذا لم يتزوّج سارتر بسيمون دوبوفوار؟
- لاأدري!
- لأنّها ماكاتعرفش تطبخ كسكسو!
ضحكتُ بصوت مرتفع، ضربتها فوق كتفها الأيمن ضربة خفيفة وأنا أقول:
- لَوْ كَان تْزَوّجْتيه انْت؟
- الله يلعن بوه، شيبانَي ودْهَص، وتاياكول الحلّوف.
ضحكت ضحكة أخرى وسألتها:
- هل تدرسون الفلسفة بشكل جيّد؟
- نعم، أستاذنا متمكّن يشرح كلّ شيء في عمق ودقّة.
- ولكن أنتم في شعبة العلوم ليست لكم علاقة بالفلسفة بمعناها الصحيح؟
-نضيّقو عليكم شويًّا.
عادت لسخريتها الجميلة، تذكّرتُ في وجهها صورة الصبّا، كنّا نتخاصم على برتقالة أو قطعة خبز، وكنت قادرا على المشادّاة بيني وبينها، إلاّ أنّني كنت أوثرها على نفسي، لأنّها كانت تحبّني حقّا. كيف استطاعت الحياة أن تفصل بيني وبين هذه

الأخت الجميلة؟ ربّما سأنفصل عنها أكثر، بل قد أصير غريبا بالنسبة إليها؟ فهي تفهم الفلسفة وأنا أفهم شيئا آخر ربّما قد لايكون هو هذه الفلسفة التي أدرسها فتسكنني حتّى العظم. سألتها:

- هل تعلّمت الطّبخ؟

- تعلّمت طبخ القلب!

أجابتها أمّي:

-سكتي، الله يعطيك كيّة.

سكتت وهي تقول:

- لعلّك ضيفنا هذه الليلة، سأهيئ لك طعاما شهيّا، سترى أنّ أختك امرأة صالحة، هل تعرف صديقا يتزوّجني؟

رجعت بمخيّلتي إلى عبد اللطيف، كأنّني قد اكتويت بناره مدى حياتي. قامت أختي الصغرى لتحضّر طعام العشاء، أخذتُ أتتبّع حركة الإبرة في يد أمّي، وشملني صمت رهيب:

أتناساكَ ثمّ تشدّني إليك أيّامي. أنتَ جزء منّي لايمكن أن يحيا إلاّ بداخلي، أنت قدَري فكيف أهرب منك إلى قدري؟ في قلبي جمر أكتوي به كلّما حاولت محوك من ذاكرتي وأعصابي، جمري أنت وأنت أنا فكيف أمحوك منّي؟ شبحك يطاردني في النور والظلمة، نبضكَ يتردّد في دمي ويسقيني كأس دمك المسفوح، هل أطرد ذاتي من ذاتي؟ أم أتبدّد في الفضاء؟ حين تستبدّ بي الطرق والمسالك أبعثك في داخلي فأتراجع، أتراجع إلى حزني، أنكفئ إلى قلبي وطفولتي في دروب زمننا الضائع.

لقَد خنتُك كما خانتك كلّ الأشياء من حولك، ماالفرق بيني وبين النحاس المغشوش؟ كنتَ متشبّثا بي فتخلّيت عنك في لحظة سوداء وَشَمَتْ صفحةَ كبدي. زمني الآن يلتهمني ويمحو معالمي كي أخونك خيانة أبديّة، أنا الآن في انهيار بشع. لو أنّ الأشياء تلبس ثوب الميلاد للبستُ كفني وتواريت كي أترك العالم كما هو في إهاب ورديّ يبتسم ابتسامة طفل في مهد أمّه. لو نسيتك لمتّ ميتة الكلاب.

جمعتني بعبد اللطيف أيّام جميلة كما حكيت. ومن أيّامنا أنّنا كنّا نقتسم الخبز ونصف الخبز في الثانوية البعيدة عن مدينتنا بما يناهز عشر كيلومترات. كنّا نخرج من دورنا القديمة في الخامسة صباحا، وشتاءُ فاس معروف ببرده ومطره، ولاثياب لنا تحمينا من قسوة الله. نخرج من دروبنا كخفافيشَ صباحية تريد أن تحلّق في الفضاء الرحب.

نسير في الطين والوحل إلى ماشاء الله، وندرس حصّة الصباح ثمّ نخرج إلى خلاء مضاعف يلتهمنا بمحنته. نتناول من محافظنا خبزا أو نصف الخبز، في وسط الخبز زبد أو بيض أو سمك رديء، نضع ذلك بيننا وناكل دون اقتسام. ثمّ نلتحق بالأقسام لنعود في الساعة السادسة إلى منازلنا البعيدة. نقطع الطريق وسط الظلمة والمطر، وندخل إلى بيوتنا كخراف كَواها الصّقيع، نشقّ الطريق إلى حياتنا في إصرار وألم كبيرين، كنّا نسير نحو يوم ينتظرنا لامحالة. جاء يومنا فَجُنَّ صاحبي، ألا أعلن جنوني أنا أيضا.

كنّا ناكل خبزا وسمكا رديئا ونحن سعداءُ بالدّنيا، كنّا نسير تَائهينَ في المستقبل. كانت هذه الكلمة ملاكا ثمّ تحوّلت إلى غول تتلوّن شتّى الألوان لتقتلك، تحوّلت إلى كلمة خراب. هل أكلنا خبزا ونصف خبز من أجل كلمة خرابَ؟

كان الربيع مهرجانا رائعا نصنعه من فقرنا. كانت الحقول تخضرّ فتتفاءل أنفسنا، وكانت شقائق النعمان تتوسّط المروج فتبدو أملا بين أيدينا. مع بداية سنابل الزرع تصفو أعينُنا فننظر إلى أفق أزرق دافئ كلَبَن أمّي. ننصت إلى هدوء الكون ونستلقي كيفما اتّفق، فتطلّ علينا سحابة ربيعية تبتسم لأوجهنا المتعبة، ثمّ ننسى فاقتنا ونغنّي أغنيات الأمل والمحبّة.

كانت أحبّ أغنية إلى عبد اللطيف أن يصيح ملء حنجرته بالفرنسية:

هذا زمن الحبّ
هذا زمن الأصدقاء والمغامرة
حين يذهب الزمن وياتي
لانفكّر في شيء بالرغم من جراحه التي قد تصيبنا.

فأصيح معه ويسمعنا الأفق البعيد.

جاءت أختي الكبرى، سلّمت عليّ. كان كلّ مابيني وبين هذه الأخت طيبوبة في طيبوبة. كانت جدّية وصارمة أكثر من اللازم، تميل إلى أن تكون تقليدية في قناعاتها وسلوكها. كنّا نذهب أحيانا إلى المسبح أنا وأختي التي تسخر منّي ومن الفلسفة فلا تذهب معنا، وكنّا نشاهد أكثر الأفلام التي ترد على مدينة فاس فتُحدث ضجّة بقصصها وأغانيها، فلا تشاطرنا أيّ شيء من ذلَك؛ كانت تفضّل أن ترتديَ جلباب أمّها فلا ترتدي الفساتين إلاّ لماما؛ ثمّ كانت تصلّي ولاتنقطع عن الصلاة وتقول للصغرى إنّها لابدّ من أن تدخل إلى جهنّم. وحين تجيبها أمّي بأنّ أمّة النبيّ لايمكن أن تدخل إلاّ إلى الجنّة لأنّه شفيعُها عند الله تردّ عليها:

- صلٍّ واقطَع، النّبي مايشفَع.

فأجدها على حقّ، ولكنّي قلّما صلّيت ولم أنقطع عن الصلاة! كانت هذه الأخت وسيمة، وكانت تفضّل أن تظلّ كما هي، على عكس الصغرى التي كانت تشتري أحيانا أحمر الشفاه، وتعنى بتسوية حاجبيها ووضع قلم الكُحل في عينيها.

لم أكن أميل إلى أختي الكبرى بقدر ماكنت أحبّ أختي الصغرى. ولكنّني كنت أحترمها، إذ لا أتذكّر أنّني تحدّثت إليها يوما عن ياسمين أو عن سعاد. بل كان كلّ ما يجمعني بها إنّما هو الأخوّة لا أقلّ ولا أكثر، فأعاملها كما لوكانت بيني وبينها حدود مفروضة علينا معا.

سلّمتْ عليّ وجلست بعيدا عنّي:

- كيف حالك؟

-بخير!

- وحال جدّتي؟

- بخير أيضا. مبارك مسعود.

- الله يبارك فيك، أنْتَرَى عندك إن شاء الله.

- إن شاء الله.

كنت أريد أن أسألها:

- هل تحبّين هذا الرجل الذي ستتزوّجينه؟ كيف التقيت به؟ هل ينسجم ذوقك مع ميوله؟ وهل ترتاحين إليه أكثر ممّا ترتاحين إلى الدّنيا؟ وهل ضمّك إلى صدره واستنشق رائحتك؟ وماهي الموسيقى والأغنيات المفضّلة لديه؟ وهل يحبّ الشعر والرقص وموج البحر؟ وأسئلة أخرى كهذه أو شبيهة بها... ولكنّي كنت أعرف بأنّ وجنتيها ستحمرّان دون أن تجيبني عن أيّ شيء من هذا الذي يشغلني فيفصل بيني وبينها!

كم كنت أودّ أن أفتح قلبي لهذه الأخت، ولكنّها كانت صارمة كأنّها تشبه أبي حين تَقَدَّم به العمر وأصابه الاختناق ثمّ أصبح منقبضا لايبتسم أو قلّما يبتسم.

ولكنّها كانت بالرغم من كلّ ذلك طيّبة إلى أبعد حدّ ممكن. تتسامح مع الصغرى، وتتحمّل مسؤوليات المنزل من طبخ وغسيل دونها. فيها من التضحية والإيثار أكثر ممّا فيها من الصرامة والجدّية، ولذلك كانت تفرض احترامها علينا جميعا.

- قالوا إنّه يعمل في (صفرو)؟

- نعم، في ضيعة كبيرة، مع الدّولة.

- من الضيعات التي كان يملكها المعمّرون؟

لم تجبني، بل اكتفت بانقباض شفتيها. لم تكن قد جاوزت الشهادة الابتدائية في دراستها، ولذلك لم تفهم كلامي.

- المهمّ، هل ستعيشين معه في (صفرو)؟

- سأعيش معه هناك، لأنّه يكتري منزلا وسط المدينة، كلّه زهور وخضرة كما يحكي.

- جميل، إذن علينا أن نبارك لك وندعو لك بالبنين والصحّة. خجلت من كلمة البنين، وانحنت برأسها إلى الأرض.

قمت من مكاني أريد الانصراف، فرفعت أمّي رأسها عن البذلة والإبرة:

- إلى أين؟

سأخرج إلى قنطرة الرصيف ثمّ أعود. كنت أريد أن أشتري علبة سجائر، وأن أتأمّل القنطرة في غياب عبد اللطيف وفي اندحار طفولتنا الجميلة.

- إيّاكَ ألاّ تعود، ستقضي عندنا كلّ هذا الأسبوع.

خرجت إلى الدّرب الضيّق، وجَدتُه فسيحاً رائعا أكثر من ذي قبل. كأنّي كنت أحسّ به بين أضلعي، تنفّست هواءه الرطب فملأت رئتيّ دون أن أشعر بأيّ ضيق أو اختناق. مررت بمنزل عبد اللطيف فامتلأت عيناي بدمع متحجّر، لم أقو على النظر إلى مدخل الباب، أسرعت الخطى كأنّ المنزل القديم قد أفزعني، حاولت محو صورة عبد اللطيف وقد حمل وصلةَ الخبز أو سطل الماء، ولكنّها سيطرت عليّ. هل نستطيع أن ندمّر أنفسنا؟ غير ممكن! لابدّ أنّنا سننتهي في هذا التدمير الأجوف!

وصلت إلى القنطرة، أشعلت سيجارة أولى وثانية، عادت إليّ مشاهد شَعبانةَ وعيد الفطر وهلال رمضان. كانت القنطرة قد بنيت بناء جديدا ذهبت معه حانوت مَحَمَّد صاحب الخَضر والفواكه الطريّة، لم يعد مكان العلف الذي نشتريه في عيد الأضحى في مكانه، مات (الحاج الحلو) بائع (الحرّاقية) وتهدّم دكّانه، بنيت القنطرة بناء أعوج، تشوّه فيها أنّها قنطرة، أصبحت طريقا عادية كالطرق، فقدت رونقها القديم، كأنّها كانت مشرقة وفقدت إشراقها، أصبحت باهتة تعاني من الوهن والعجز، انمحت أحجارها الجميلة بإسمنت صلب عنيد، كأنّها كانت تاريخا وأصبحت سطرا لامعنى له. كانت جزْءا من ياسمين ومن عبد اللطيف ثمّ انقلبت إلى زمن مكسّر. كلّ مافيها أنّها ممرّ إلى الخواء، لو لم يكن بعدها منزل جدّتي لقلت إنّها الخواء نفسه. ماأقسى أن تفقد الأشياء معانيها لتمارس وجودا فارغا. كنت غريبا فوق القنطرة التي شيَّدَتْ طفولتي وأملي، لم أجد أي شخص أعرفه أو أسلّم عليه، كان الناس أخشابا تسير، شعرت أنّني وحيد في عالم فارغ، كانت حركة السير مزدحمة، ولكنّها لم تكن تعني شيئا بالنسبة إلي، هل أنا غريب في ممرّ منّي وإليّ؟

هل فقدت جذوري وهويتي؟ أين سأعثر على ذاتي بعد اليوم؟ هل فقدت نفسي إلى الأبد؟ لابدّ أنّ هناك سوء تفاهم رهيب يفصلني عن الدّنيا! لو نشأت خارج هذه القنطرة لما كنت غريبا عنها إلى هذا الحدّ! من أين أتيت حتّى أحسّ بهذا الاختناق المدمّر؟ هل أذبح جدّتي؟ ولماذا أذبحها؟ أليست أعظم امرأة سكنتُ صدرَها وانسابت في دمائي؟ سأتبوّل على فلسفتي إن أنا تخلّيت عن ظُفرها! سأضيع بعدها في تفاهة مطلقة! فلماذا أخرج من صدرها وأنا أسكنه؟

أشعلت سيجارة ثالثة، ذهبت إلى المكان الذي انفجرت فيه قنبلة (الرصيف)، وجدته قد تحوّل إلى دكاكين متنافرة: أسلعة مهرّبة، أشرطة الفيديو، أشرطة الموسيقى: جيمس براون، تيناتارنر، فريد الأطرش، بوشعيب البيضاوي، فكّرت في جدّتي كيف يمكنها أن تستوعب هذه السوق اللقيطة التي توارت معها حوانيت الغلال والزهر والزيتون. استحضرت صورة المهندس الفرنسيّ الذي كنّا نتفرّج عليه وهو يخطّط لبناء القنطرة، تذكّرت أنّ عبد اللطيف كان قد رماه بقشرة برتقال لم تصبه، فلم يزد على أن رفع عينيه عن دفتره، وكان عبد اللطيف قد هرب، فضحك المهندس الأشقر قائلا:

-Salot!

- سألني عبد اللطيف بعد ذلك:

- هل رآني؟

- لا لم يرك .

- وهل أصبتُه؟

- وقعت القشرة فوق دفتره .

ضحك عبد اللطيف مواصلا كلامه:

- نصْراني ولَدْ نصراني!

أعرف اليوم أنّك هائم بين ألمك وصدقك، لايهمّ، المهمّ أنّك لم تغيّر وجهك بوجوه كثيرة. أضحك من قلبي المتألّم حين أتذكّر لعبة الخذاريف. كنتَ منتصرا باستمرار، كنتَ تراهن على أقصى مايمكن من ضربات مباشرة. نضع (التّسبال) في الأرض فتطوّح به بعيدا، نبحث عنه، ثمّ نجده فتضربه. كنّا نذهب إلى الخرّاط فيخرط لنا البرّيَّ والدّفْلى، نوعان من الخذاريف الرشيقة الرائعة، نخرطها بعشر فرنكات، لن نصنع الآن مثلها، لو فعلنا ذلك لعاد الزمن البريء. كنتَ ترمي بخذروفك فيسمع له رنين متردّد مازلت أجد صداه في أذنيّ، كان يدور باستمرار فلايكاد يتوقّف، ألا تدري السبب؟ كنتَ صادقا في اللعبة، كنتَ متحمّسا لكلّ ماترومه في جدّك وهزلك، حين تضحك تمارس الضحك من قلبك، وحين تبكي

تذرف الدّموع من كبدك. ماأروع ماكنت تريده وتبحث عنه في ذلك الزمن السحيق. نحن الآن في زمن غريب، تشوّهت الأشياء في أعيننا، صَهَرَنا التأرجحُ والضياع والتردّد، ولم يصهرك كذبنا فأصابك الجنون.

هل تذكر لوحة عبد العزيز، كانت منقوشة من قلبه. مسحها بالصلصال فبدت كامرأة عذراء، ثمّ وضعها في ركن من حيطان الكتّاب تصيبها الشمس فتيبس في سكينة وهدوء. أخذها إلى حضنه، ووضع إلى جانبه الأيمن صمغا وألوانا كنّا نشتريها من (السّي فضّول) في العطّارين، فنؤدّي ثمنها مرّة وناخذها بدون مقابل مرّات عديدة. ثمّ شرع عبد العزيز في الرسم والنقش والتلوين. رسم قبّة بالأحمر والأخضر، ووضع رمحا أصفر إلى جانبها الأيمن، وآخر إلى جانبها الأيسر. رسم تحت القبّة نوافذ متعدّدة زركشها بأشكال مختلفة فكانت فسيفساء فيها جزء من روحه وكيانه. وتحت النوافذ رسم صحنا، وجعل وسط الصحن نافورة رخامية خضراء رائعة. ثمّ كتب آيات مختلفة بخطّ ممشوق يتخطّف النظر. أدهشنا عبد العزيز بلوحته. حملها بعد العصر من يوم الخميس إلى منزله، صحبناه في نشوة وفرح، زغردت أمّه وهنّأها الجيران لأنّ عبد العزيز ختم القرآن. وُضعَت اللوحة في صدر البيت، وبدأ يفد الناس بعد المغرب يباركون لأبيه ويذكرون الله ثمّ ينتظرون قصع الكسكس. أكلنا وانتفخت بطوننا من كثرة الشّبع، خضر ولحم وزبيب أسود انتظم فوق القصع كأنّه قطع اللؤلؤ.

ما كان أحلى زغردة النساء في أيّامنا البسيطة!

رفعت أمّ عبد العزيز عقيرتها بالصلاة والسلام على النبيّ، وتحلّق الرجال في دائرة وقد اشتبكت أيدي بعضهم ببعض، يهزّون رؤوسهم: الله حيّ، الله حيّ، الله حيّ...

دخلتَ إلى الحلقة وأخذتَ في شطحك الرائع. تهتزّ من دمك ووجدانك، كأنّ الله قد سكن في عظمك، تقول في إيمان راقص ومتمكّن: الله حي... الله حيّ...

كان القمر في تلك الليلة أزرق مستديرا كموج البحر، كنّا نجد فيه حماسنا وطموحنا وقلبنا النابض، ثمّ انحطم القمر، داسوا قلوبنا حين جعلوا نوره المشرق ظلمة في أعيننا. هل تعرف أنّ لوحة عبد العزيز وقمرَ تلك الليلة وقلبَنا شيء واحد؟ ذهب كلّ شيء ياصاحبي، ذهب كلّ شيء!

رجعت إلى المنزل، وجدت أبي في (السّفلي) يتنفّس بصعوبة. سلّمت عليه، دعاني إلى أن أجلس بجانبه، سألته:

- ألا نصعد إلى فوق؟

- لا، لا، سنتعشّى هنا، ليست لي قدرة على الصعود، هنا أفضل!

- هل تعرف هذا الرّجل الذي سيتزوّج ابنتك؟
رفع يده في لامبالاة وهو يقول:
- لا، لا أعرفه؟
- إنّه يشتغل في صفرو؟
- يقولون ذلك، المهمّ أنّه سيتزوّجها!
أدركت أنّه لم يعد يبالي بالدّنيا، كأنّه قد فقد إرادته حين أصيب بالاختناق.
كانت أختي الكبرى أعزّ إلى قلبه من كلّ شيء، كان يحبّها ويحترمها، وقلّما صاح في وجهها كما كان يفعل معنا نحن. ثمّ كانت هي مهتمّة به قائمة عليه ولو لم يطلب منها ذلك. فكيف لايهتمّ بزواجها؟
- عيّط لاختك.
فهمت أنّه يعني الكبرى، ناديت:
- رابعة، رابعة...
نزلت في سرعة، قبّلت يده، خاطبها:
- حجَرة التيمّم والسّجّادة...
لم أره فيما سبق يتيمّم، كان يتوضأ لصلاة الفجر في أيّام البرد ويستدفئ بقراءة الفاتحة، الآن أصابه شيء أكثر من الاختناق. سألته:
- لماذا لاتتوضأ بماء دافئ؟
- لا أقدر، الماء الساخن يرجع بالبرد، حين يصيبني البرد أختنق أكثر.
فكّرت في ماضيه وقوّته، اقتنعت أنّ الدّنيا بدأت تدور على المؤمنين وأنّ أبي قد أخطأ زمنه إلى غير رجعة!
أحضرت أختي حجرة التيمّم، وصلّى أبي المغرب والعشاء وثلاث ركعات أخرى. لم يكن فيما مضى يخلط الصلاة بالصلاة، هل هو الاختناق أيضا؟ لو كان قد تحوّل من الجلد البلديّ إلى الجلد الرّوميّ لما أصابه هذا الذي أصابه.
تأمّلت صلاته، وجدتها قد اختلّت باختلال صحّته، يقرأ القرآن فيتقطّع بين حنجرته وشفتيه، تنحصر أنفاسه وسط الآيات أو عند رؤوسها فيشهق بها، هل سيموت في صلاته؟
نزلت أختي الصغرى، سألتها عن أمّي، أجابتني بأنّها لاترغب في الأكل.
جلسنا نتناول طعام العشاء في صمت. رابعة بطيئة الحركة كأنّها مرغمة على أن تاكل، أختي الصغرى لاتقوى على أن تسخر منّي، أبي يريد أن ينهي وجبته في أسرع وقت، وأنا أتظاهر بأنّني آكل بشهيّة.
قامت رابعة لجمع المائدة، وسألت أبي:

- هل نشرب الشاي؟
أجابها:
- اسألي أخاك.
قلت له:
- أريد أن أنام، الامتحانات قريبة، وسأبدأ غدا في مراجعة بعض المسائل.
- وفّقك الله، أظنّ أنّ هذه آخر سنة؟
- نعم.
وانصرفت. تبعتني أختي الصغرى، ماكدنا نصعد الدّرج حتّى خاطبتني:
- الامتحان، تراجع، هاي هاي، ستصنع صاروخا.
استدرت نحوها وابتسمت. كنت أحبّ هذه الأخت فعلا، وكنت أتمنّى أن يكون مستقبلها أفضل من مستقبلي. كأنّي أحبّ أن تظلّ ساخرة متفائلة جميلة، أخاف عليها من زمني، وأتمنّى ألاّ يصيبها الرّعب الذي أصابني.
سألتها:
- هل تحضّرين للباكلوريا بشكل جادّ؟ هل ستنجحين؟
- كيف لاتنجح أخت فيلسوف الزمان!
- وماذا ستدرسين فيما بعد؟
- أيّ شيء إلاّ الفلسفة!
- هذا أفضل، لن تفيدك الفلسفة.
دخلنا إلى الغرفة التي كانت فيها أمّي، وجدناها ماتزال منكّسة الرأس تحرّك إبرتها في صبر لاينتهي.
تأمّلت وجهها، وجدته قد بدأ يصفرّ ويتغضّن، عرفت أن الزّمن قد أكل منها ولم يعطها شيئا.
قلت لها:
- إنّ جدّتي تريد أن تعطيك (حقّك) من الزيت، ولكنّها تخاف أبي.
رفعت رأسها:
- أبوك لايكون في البيت إلاّ بعد المغرب.
كان زوج جدّتي يملك بعض الزيتون في قرية بعيدة، يأتيه في كلّ عام منه أربع قلاّت أو خمس، فلابدّ أن تمنحنا هذه الجدّة الطيّبة نصف الزيت أو ثلثه بعد أن ضاق أبي باختناقه، ولابدّ أن تعتبر هذا الزيت من حقّنا لأنّنا أبناؤها الذين لاتملك شيئا في الدّنيا غيرهم، ثمّ لابدّ من أن تتستّر على ذلك احتراما لكبرياء أبي وخيره القديم.
خاطبتُ أمّي:

- سآتيك غدا بالزيت .
أجابتني :
- الله يرضي عليك .
قالت أختي :
- إيوا ها الزيت، إيوا ضَحْكي شْويا .
لم تضحك أمّي، انحنت برأسها وَواصَلت خياطتها .
سمعت أبي يصعد الدّرج في بطء صحبة رابعة . قمت من مكاني أقصد الغرفة الصغرى في الفوقي، قامت أختي تقول :
-آالخوف، هادي هي الفلسفة اللّي قرّاوكم!
جلسنا في الغرفة نتحدّث، سألتني عن حالي مع سعاد، أخبرتها عن جنون عبد اللطيف، وعن لقائي بياسمين، وكيف أنكرتني في الدّار البيضاء، فكانت تعلّق في كلّ مرّة :
-أنت أحمق، اترك الدّنيا تمشي، مالك على هذه الحال التي لاحال لها!
فأقول مع نفسي :
غريب أمر هذه البنت، تعرف كلّ ما أعانيه، وتجد له الحلول الصحيحة دون أن تدرس أي فلسفة!
تقدّم بنا الليل وأنا أشكو لها، فتسمع منّي، وتنصت إليّ، وتتألّم لألمي، ثم تقترح عليّ الحلول الملائمة، دون أن يصيبها أيّ قنوط من كلامي المتشابك كخيوط العنكبوت .
غلبني النّوم، فغطّتني في عناية، ونامت في فراش آخر قبالتي .

غرفة بدون نجوم

ذهبت سعاد إلى طنجة، وعيّنت أستاذا للفلسفة في ثانوية الفارابي في الدّار البيضاء. هل يكون قدري هو هذه المدينة التي لفظت أكثر أهلها؟ ماعلاقة الفارابي بعين الذئاب؟

كنت فرحا وخائفا! ربّما سأعثر على ياسمين وقد استعادت إيمانها القديم فأتخلّى عن كفري بها، وربّما أجد عبد اللطيف قد رجع إلى زوجته وعمله وسكن في بيت بسيط كسائر الخلق فيستكين في نفسي هذا الألم الذي يبدّدني، وربّما يكون كلّ شيء قد ظلّ على ماهو عليه من تبعثر وثقوب فأسير على قلبي وأقول لاحول ولا قوّة إلاّ بالتمزّق والخوف.

كتب عليّ أن أنزل في (سيدي بليوط) فألاحظ أن الدّنيا التي عرفتها قد تغيّرت. اقتطعوا من (السيد) أرضا شاسعة، بنوا فندقا مانزل حدوده لم تحدّد بعد، حانات كثيرة وأبناك متراكبة وأناس هائمون في ازدحامهم وتقاطع بعضهم مع بعض. هل أصبح الإنسان شبكة مخبولة؟

نزلت من القطار، رأيت الناس يجرون نحو باب المحطّة، كأنّ الفجيعة ستصيبهم من أدبارهم، نحو ماذا يتسابقون؟ هل ستغرقهم لقمة الخبز؟ من سيسبق من؟ ربّما تكون المدينة منفتلة وهم يجرون نحو لاشيء؟ أين مركز هذه المدينة؟ يبدو أنّه لا مركز لها؟ الظاهر أنّها غرقت في قواديسها؟ أو إنّها طفت فوق هوائيات سطوحها؟

بحثت عن خابية الماء في (سيدي بليوط) فلم أجدها، كان عليّ أدخل إلى مقهى أو أشترَي ماء معدنيا كي أشرب. واصلت طريقي أسأل عن الفارابي، عرفت أنّه في الحبوس، ركبت سيارة الأجرة، وجدت المدير ينتظر أستاذا للتاريخ والجغرافية.

قدّمت له أوراقي، عرف أنّني جئت لأدرّس الفلسفة، نظر إليّ بعينين صدئتين قائلا:

- ستدرّس التاريخ!

- كيف؟

- تقرأ التاريخ في الكتب وتنقل ذلك إلى السبّورة!

- غير ممكن.

- لماذا؟

كدت أجيبه بأنّ في الأمر سوء تفاهم، وأنّ التاريخ الذي أعرفه هو التاريخ الذي يرويه أبي، وأنّ أبي الآن مريض مختنق، فكيف أنقل في السبّورة تاريخا لاأعرفه.

سيجيبني المدير بأنّ هذه القضية لاتهمّه، وأنّه يطبّق التعليمات، وأنّ الفلسفة شيء والواقع شيء آخر.

سألته:

- والجغرافية؟

- هذه مسألة بسيطة، تنظر في الخرائط، وتشرف على نقلها إلى الدّفاتر.

- أليس من الممكن أن أدرّس الفلسفة؟

نظر إليّ في استغراب وأجابني:

- الفلسفة؟ ربّما، ولكن بعد سنة أو سنتين.

أخذت منه استعمال الزمن والبرنامج، ثمّ انصرفت على أساس أن أبدأ عملي بعد يومين.

كان في الحبوس مكتبات كثيرة. ولكنّها لو جمعت في عمارة واحدة من هذه العمارات التي تزدحم بها المدينة لأصبحت مكتبة واحدة من طوابق مختلفة. الأمر لايعدو أن يكون هندسة معكوسة.

اشتريت كتابين للتاريخ، وثالثا للجغرافية.

أسرعت الخطى أبحث عن فندق آوي إليه.

كانت كلّ الفنادق مليئة بالمسافرين وعابري الطريق، وأنا أريد غرفة لمدّة شهر أو أكثر. لم أجد الغرفة إلاّ بصعوبة كبيرة. وحين سألت القائم على الفندق عن سبب هذا الازدحام المشوّه، ضحك وهو يقول:

- لايريدون المبيت لأكثر من ثلاثة أيّام!

- لماذا؟

- لأنهم مضطرّون إلى تخفيض ثمن الغرفة.

تأكدّت أن الفلسفة لاعلاقة لها بالواقع، وأنّني لابدّ من أن أدرّس الجغرافية أوّلا، ثمّ التاريخ إن أمكن، وأترك الفلسفة إلى الدّار الآخرة.

سألته :
- وأنتم، لماذا تقبلون الكراء بالشّهر؟
أجابني :
- لأنّه لانجوم لنا كما ترى!
- إذن القضية متعلّقة بأصحاب النجوم؟
سكت صاحب الفندق وسألني بعد أن رأى بطاقتي :
- أنت من فاس؟
- نعم.
- إيه، فاس ماشي هي الدّار البيضا!

في اليوم الموالي ذهبت إلى منزل مريم لأبحث عن عبد اللطيف، أخبرتني بأنّها سألت عنه في الجديدة مرّتين فلم تعثر له على أثر. فرحتُ لأنّها مازالت مرتبطة به، وأصابني قلق وخوف لأنّها لم تجده في مقرّ عمله.

عرفَتْ أنّي أصبحت أستاذا في الدّار البيضاء، وساورها نوع من الاضطراب والحيرة حين رأت إصراري على أنّي لابدّ من أن أجد صديقي في هذه المدينة المترامية.

أخبرتها أنّي لن أبحث عنه وحده، بل لابدّ من أن أطمئنّ على ياسمين أيضا، فأعرف مصيرها الذي تركته في مقهى الزهور، فأنا لايمكنني أن أبعثر أجزائي وأبدأ رحلة بدون أجزاء. هل رأيتم إنسانا يحيا بشكل مبعثر؟

شربت معها قهوة بالقرب من مقرّ عملها، وافترقنا دون أن نحدّد أي موعد بيننا. على أيّ شيء سنتواعد؟ ليست لدينا أي حقيقة ننطلق منها سوى كوننا نبحث عن المجهول. سنبحث إذن، ربّما نعثر في أحشاء هذه المدينة عن أمل بسيط ينقذنا من هذا الفزع الذي أصبح يطاردنا من الداخل؟

دخلت إلى الفندق تصفّحت كتاب التاريخ الأوّل، وجدته يحكي عن أصل الأرض وعمّا قبل المرحلة الأولى للإنسان، فتساءلت لماذا لايبحثون فيما بعد التاريخ؟ ابتسمت، وأخذت الكتاب الثاني، كان مشابها للأوّل، لأنّه يحكي زمنا مضى، وأنا أبحث عن زمن سياتي. قلتُ لعلّ الجغرافية أفضل؟

رأيت بعض الخرائط والصور، فهمت بسرعة أنّ الجغرافية تشبه لعبة الشّطرنج وأنّه لامحلّ لي في هذه اللعبة. عليّ أن أدرّس وأنام إلى أن تتبدّل الرُّقع والأزمنة ولو بعض الشيء!

استيقظت لأركب الحافلة إلى الفارابي، فحدّثت التلاميذ عن ابن خلدون وعن مفهوم الدّولة والأمّة والفرق الشائك بينهما. اعترض أحدهم بأنّ هذه المفاهيم قديمة،

أجبته بأنّه لااختلاف بين ما مضى وماسياتي، المهم أنّ الزمن يدور: من مات ماتْ، ومن عاشَ عاشْ، وكلّ ماهو آت آتْ. ضحك التلاميذ، أعجبوا بايقاع الجمل الثلاث، وعرفوا أنّم بصدد تاريخٍ جديد!

أمّا الجغرافية فأذكر أنّني قلت لهم في أوّل درس:

إنّ العالم يدور حول نفسه، وقد أصبح الإنسان
في الدّار البيضاء يدور حول نفسه أيضا،
فلعلّ الجغرافية هي أمّ العلوم؟

اندهش بعضهم، وضحك آخرون، ولم يفهم أكثرهم ماأقول.

سألني واحد منهم:

- أستاذ، وأنت، هل تدور حول نفسك؟

فكّرت قليلا ثمّ أجبته:

- أنا طارئ على الدّار البيضاء، ربّما سأدور حول نفسي بعد استقراري في هذه المدينة غير المستقرّة.

حين خرجنا إلى الساحة، رأيتهم قد تحلّقوا حول واحد منهم، يمثّل حركة الدّوران فقلت، لابدّ أنّهم يتوقّعون أنّهم سيدورون حول أنفسهم بعد سنوات التعب والدّراسة والقهر!

في الفندق كتبت رسالة لسعاد، أخبرتها أنّني لاأدرّس الفلسفة، وأنّي لم أبحث بعد عن عبد اللطيف، وأن ياسمين ماتزال تشغل بالي. أخبرتها أيضا أنّني أدرّس وأنام وأنتظر. ثمّ كتبت لها سطورا من محبّتنا.

في إجابتها، رسمَتْ رجلا وامرأة عاريين، يضمّ الرجل المرأة، وهي مستسلمة له في محبّة أبدية. لم تكتب شيئا في إجابتها غير اسمها بحروف وردية في أسفل الورقة. حين خرجت من الثانوية قلت، سألصق هذه اللوحة البسيطة في غرفتي، ثمّ أنتظر مجيء سعاد إلى الدّار البيضاء بعد سنتين! لابدّ من أن ننتظر وإلاّ سندور حول محور وهميّ!

في الدّرس الثاني خلطت بين التاريخ والجغرافية، فكّرت أنهما من الممكن أن يدرّسا دفعة واحدة، خاطبت التلاميذ:

- هل تعرفون لماذا اخترت أن أدرّسكم هذين العلمين بشكل مختلط؟

لم يجبني أيّ واحد منهم. واصلت كلامي:

- لأنّ أصل التاريخ هو الجغرافية. حين تتداخل الخرائط وتنقسم المواقع يبدأ التاريخ.

- لم نفهم!

- سأشرح لكم: هذه خريطة الهند، لو لم يكن غاندي لما بدأ تاريخها الحديث.
أحسست أنّهم لم يفهموا بشكل جيّد، أضفت:
- لم يكن غاندي يملك شيئا، كان يغزل ثيابه بنفسه، ويخيطها بيده، ولذلك أخرج الاستعمار ووحّد كلّ هذه الأرض كما ترون، لو كان قد اقتطع لنفسه جزءا منها، لما بدأ تاريخ الهند، أرأيتم:
- إنّ أصل التاريخ هو الخرائط والمواقع. أظنّكم الآن فهمتم؟
أجابوا جميعا:
- نعم فهمنا.
من ذلك اليوم وأنا أدرّس الأزمنة والمساحَات في تمازج تامّ لم أر بينه وبين الفلسفة أيّ تناقض.
في الامتحانات أقول مثلا:
- ما العلاقة بين المتر المربّع وحركات الاستقلال؟
أو:
- لخّص تاريخ الأبناك في خمسة أسطر.
أو:
- ناقش قول أحد الاقتصاديين البارزين: "إنّ نموّ الصّيد البحري ذو علاقة قوية بتاريخ الموانئ".
كانت أسئلتي من هذا النوع الذي لابدّ فيه من ربط العلاقات الغامضة بين الأشياء الواضحة.
مرّة سألتهم عن تاريخ مصانع الدّارالبيضاء، أجابوا جميعا مع بعض الاختلاف الجزئي:
- إنّه لاتاريخ لها حسب معنى التاريخ عند ابن خلدون، ولذلك فإنّها مهدّدة بالإفلاس!
اقتنعت بأنّني قد نجحت في مهمّتي، فكرّست نفسي للبحث عن عبد اللطيف وعن ياسمين.
أمّا ياسمين فلم أجدها، والظاهر أنّها هاجرت إلى مدينة أخرى، وأمّا عبد اللطيف فقد ركبت إلى الجديدة، وذهبت إلى مدرسة الأمل، فأخبروني أنّه لم يحضر إلى عمله إلاّ يوما واحدا ثمّ انصرف. ذهبت إلى درب فكتور هوجو، سألت جيرانه، أجابوني بأنّه منذ ماتت أمّه والبيت مسدود، وأنّ صاحب الدّار قد سجّل دعوى ضدّ عبد اللطيف يطالبه فيها أيضا بالقيمة الفعلية للكراء، لأنّ المحلّ اكتراه قبل سبع سنوات بخمسمائة درهم فقط.

حين أُخبرتُ بهذه الأمور التي يركب بعضها بعضا قلت: لابدّ أن تنهار الدّنيا بعد انهيار عبدَ اللطيف.

رجعت إلى الدّار البيضاء واستأنفت عملي، قلت للتلاميذ:

- هل تعرفون قيمة مابعد التاريخ؟

- لا.

- إن قيمة مابعد التاريخ تتجلّى في كونك ستبني التاريخ بناء صحيحا وشبه سليم إذا أردت. أمّا إذا تجاهلت مابعد التاريخ فإنّك لابدّ أن تعود إلى ماقبله. ستدور حول محور وهميّ!

أجاب كلّ التلاميذ:

- ما أشبه التاريخ بالفلسفة.

قلت لهم:

- إنّ الأصل في ذلك هو الجغرافية، أليست الجغرافية هي التي تقول: إنّ الأرض تدور وإنّ لها محورا تدور حوله؟

قالوا:

- نعم!

أجبت:

- إذن علينا أن نحدّد حدود الخرائط والمواقع، وأنّ نؤرخ تاريخنا، حتّى تكون لنا فلسفة لبناء الإنسان والعمارات بشكل متواز.

قال أحدهم:

- هذا غير ممكن!

- لماذا؟

- لأنّ أكثر الناس يسكنون تحت العمارات أو في العراء.

- هذه مسألة بسيطة، المهمّ هو أن يعيشوا من أجل شيء ما، وأن يكون هذا الذي يعيشون من أجله متحقّقا أو قريبا من أن يتحقّق. تتلخّص القضية العويصة في أنّ هؤلاء الذين يسكنون فوق، أو يتهافتون على الخرائط الفسيحة، قوم لاهمّ لهم إلاّ هذا التهافت. في حين أنّ الذين يسكنون تحت، أولا يسكنون، قوم لابدّ من أن يزاحموا القوم السابقين، فكيف نصنع في هذه الحال المدلهمّة التاريخ والجغرافية.

- أستاذ: أرى أنّ التاريخ والفلسفة والجغرافية أمور مختلطة لايمكن الفصل بينها؟

أجبته:

- لابدّ من ذلك، هذه مسألة أساسية، ولا مفرّ منها.

وانصرفت.

كان عليّ في ذلك اليوم أن أكتب رسالة لسعاد، وذلك لأنّ جوابها على رسالتي الأولى كان رائعا ومستفزّاً. فقد اختصرَتْ محبّتنا اختصارا جميلا ومجحفا. نعم: إنّ حديث القلب يتضمّن حديث الجسد، وكذلك قد يكون حديث الجسد متضمّنا لأشجان القلب وأحزانه واندحاراته، ولكنّ الصورة الواحدة لاتكفي للتعبير عن كلّ مايحرّك جسد الإنسان وقلبه. ثمّ مالها ولهذا النوع من الصور التي لاتكاد تجاوز حدود أنفها؟ أليس من الممكن أن ترسم مشاهد الناس وأجسادهم الضامرة؟ أليس في إمكانها أن تعثر في قلوب الآخرين على آلام وبتور كثيرة؟

أنا على يقين من أنّ هذه المحبّة التي ترسمها محبّة عابرة! عليها إن أرادت تدارك هذا الأمر أن تجعل هؤلاء الذين قد ترسمهم أناسا يحبّونها! لو رسمت طفلة تبكي، أو رجلا يجرّ عربة ثقيلة: فتكون حاله شبيهة بحيوان نافر. ولكن، ألا يتألّم الحيوان أيضا؟ إذن عليها أن ترسم الحيوان والإنسان. بل من الممكن أن ترسم حقول الزرع وهي تستسلم للريح والمطر، ثمّ تستقبل شمس الربيع وقمر أيّام الحصاد، دون أن يكون في ذلك أيّ خوف على أحاسيسها. أليس الإحساس بعد هذا وذاك سوى شيء دفين في أنفسنا نريد أن ننقله إلى الناس لأنّهم يخالفوننا فيه؟

كان عليها مثلا أن ترسل لي صورة حافلة هاربة وأنا أحاول اللحاق بها كي أذهب إلى عملي؟ أو أن ترسم كتابا ممزّقا وسط غرفة الفندق وأنا نائم إلى جانبه؟

إنّ غربتي الآن تفوق محبّتي، فلماذا تصرّ سعاد على المحبّة العارية؟ ألا آكل السمك الرديء في الدّار البيضاء، فلماذا لاترسمين أناسا ضائعين مثلي؟ لماذا لاتلوّنين لوحاتك بالأسود والرماديّ أيضا؟ أليست الألوان الحزينة جزءا منّا؟ هل تريدين أن تنفصلي عن غربتنا لتمارسي وجودك في فراغ؟

نعم: إنّني أحبّك محبّة مابعدها إلا اندحاري وسط هذه المدينة الرهيبة، ولكنّني أعتقد أنّ محبّتنا لايمكن أن تستمرّ إلا إذا استطعت أن تشعري بضياعي!

ستقولين إنّك في حاجة إلى من ينتشلك من حزنك أنت أيضا. قد يكون ذلك صحيحا، ولكنّني الآن وقد افترقنا لمدّة طويلة أحسّ أنّ اهتمامك الأساسيّ فيما ترسمين لايزيد عن أن يكون انعكاسا لذاتك ومشاعرك الخاصّة.

كانت سعاد من أسرة غنيّة وكنت من أسرة فقيرة، كانت تسكن المدينة الجديدة بعد أن تركها الفرنسيّون، فكنت أخاف أن تكون محبّتها لي محبّة تتسلّى بها إلى حين. ألا يمكن أن يكون هذا الفنّ الذي تدرسه مجرّد تسلية أيضا. لو عرفتُ أنّها ابتُليت به كما ابتليتُ بالفلسفة والتاريخ المخلوط بالجغرافية لتركت الدّار البيضاء والتَحقت بها مهما كان الثمن! سترين أنّني متردّد ومتناقض؛ قلت لك ألف مرّة إنّني غير قادر أن أختار مصيرا آخر غير هذا الذي أنا فيه من السمك الرديء والفندق الذي

لانجمة له. هل تستطيعين أن تعيشي معي بهذا الشكل؟ ربّما تتذكّرين سفرنا معا إلى هذه المدينة التي كتب عليّ أن أعيش تحت عماراتها وخلف مطاعمها؟ قلت لك تعالي معي لنزور زوجة عبد اللطيف فرفضت ذلك. وحين سألتك عن السبب قلت إنّك تكرهين المدن المسحوقة. لم تريدي الدخول معي وسط باب مرّاكش ودرب كناوة. نعم: إنّك قدّمت بعض التنازل حين زرنا معا منزل جدّتي. استخلصْت من سفرنا أنّني مخلص لجذوري وتربتي، رجعت وحدك إلى فاس، ثمّ رأيْت أنّني غيّرتُك من مجلاّت الصور الملوّنة إلى أن ترسمي عواطفك في نوع من الصدق الذي افتقرْت إليه فيما مضى. أليس في هذا مايكفي لتُقَدّمي بعض التنازل؟

أخاف أن تغيّري رأيك! ما الذي سيربطك بالتاريخ والجغرافيية المخلوطين؟ في هذا نوع من الحمق بالنسبة إليك. كتبت لك أنّني لا أدرّس الفلسفة. فأرسلت لي صورة عارية! لماذا لم تكلّفي نفسك عناء الأسئلة والبحث عن أصل الأشياء كما أفعل؟ إنّني أشعر باختناق وسط هذه الغرفة الرطبة التي أعيش فيها.

كان لسعاد أخت في طنجة، تزوّجَتْ رجلا يعمل في صناعة النسيج وفي أشياء أخرى لا أعرفها. المهمّ أنّه كان يسكن -كما تحكي سعاد- في منزل فخم وله سيارة أو سيارتان... إلخ وكانت سعاد تقطن في هذا المنزل الفخم. فما علاقة الفلسفة والبيض المسلوق بالسيارات الفاخرة؟

هل من الممكن أن تستمرّ محبّتنا لمجردّ أنّك ترسمين ذاتك؟ أظن أنّه قد حان الوقت لتعيدي حساباتك. تأمّلي حياتنا الماضية ومستقبلنا، سترين أنّنا التقينا صدفة فلابدّ أن ننتهي صدفة. ستجيبين كما أتوقّع: لماذا كانت هذه المحبّة بيننا؟ هل هي صدفة أيضا؟ فأقول لك في صراحة تامّة: إنّني بعد صدمتي في ياسمين، وضعت قلبي بين يديّ وقدمته لك في هذه الخيبة الكبيرة تفعلين به ماأردت ومالم تريدي. هكذا أصبحتُ الآن: أعرض رئتي، كبدي، صدري، لأومن بحقيقة واحدة أستردّ بها ثقتي القديمة! يبدو أن لاأصل لما أبحث عنه، ولكنّي ابتليت كما قلت لك بأن أبحث عن شيء ما، هل أوقف ذاتي؟ كيف أنسلخ من كياني؟

مازلت أردّد القصيدة الّتي سمعتها منك في منزل جدّتي، أصبحت أحفظها عن ظهر قلب، كأنّك أنت التي كتبت ذلك الشعر، إنّه الآن جزء منك لايمكن أن أتخلّى عنه. لقد صَحبت معي ديوان شعرك إلى هذه المدينة المليئة بالعمارات والسماسرة! تصوّري أنّني حاولت اكتراء منزل كيفما اتفق، ذهبت إلى سمسار تقليديّ، وجدت عنده آلة كاتبة، وفتاة في الثامنة عشرة، ثمّ مساعدا أو اثنين. سألته عن منزل صغير آوي إليه بعد التاريخ والجغرافية، أجابني:

- ألفان وخمسمائة درهم في الشهر، مقدّم ثلاثة أشهر، مائة في المائة لمكتبنا.

تذكّرت تاريخ أبي. قال لي ذات مرّة إنّ الناس كانوا يكترون في فاس السفلي كلّه، أو حتّى الفوقي بمقابل زهيد، قلّة زيت، مدّ قمح، شريطين من التين المجفّف. يتركون في العربون إناء من آنيتهم. هذا هو المهمّ، بساطة حياتهم، صدفتها المريحة. فرق كبير بين صدفتهم وصدفتنا. نحن وسط العمارات المتقاطعة والمتناسلة، ولايمكن أن ننام إلاّ إذا تخلّينا عن نصف حياتنا، بل عن حياتنا كلّها.

رجعت إلى غرفتي وانكمشت داخلها، ماذا ستفعلين برجل منكمش؟ أنا لاأملك إلا كتابا في التاريخ وآخر في الجغرافية، هل ستاكلين الزمن والخرائط؟

في غيابك أشعر أنّ الدّنيا تسحقني، تلفّني هذه الطرقات المتشابكة فلا أكاد أعثر فيها على شيَء يربطني إلى هذه المدينة الغريبة. لا أحد فيها يعرف أحدا، كلّ مافيها يدور حول نفسه، أرى الطريق يمتدّ أمامي دونما نهاية، ثمّ أصل إلى نهايته لأجد طريقا آخر يمتدّ بعده، سموّها الدّار البيضاء، لأنّها مدينة دائرة، أو إنها مدينة بيضاء كالبيضة، كأنّها تدور لتدور وانتهى الأمر.

وجدت لديك راحة من التعب الكبير الذي أصبت به، كم أتمنّى أن أرتاح فوق صدرك وأشكو لك غربتي، سأحبّك بالرغم من خوفي، سأواصل محبّتي القديمة بمحبّة جديدة وأحيا بأنفاسك وابتسامتك الجميلة.

وصلني جواب سعاد. كان مختصرا كجوابها الأوّل. رسمت امرأة وردية في لباس نومها، تاخذ بيد رجل نحيل أشعث، وتجري به وسط أشجار عالية تلفّهما من كلّ جانب. ثمّ كتبت سعاد تحت الرسم الذي رسمته:

لعنك الله! لم أر صعلوكا مثلك!

وكان تحت هاتين العبارتين إمضاؤها الأنيق!

لم أتلقّ في حياتي رسالة أجمل من هذه. كانت مختصرة كرسالتها السابقة، ولكنّها تؤكّد محبّة عميقة تسكن نفس هذه الفتاة التي تحوّلت عن الصور الملوّنة ومجلاّت الكلمات المتقاطعة إلى غير رجعة. الآن عليّ أن أستخفّ بضياعي فأمنحها كلّ قلبي وأواصل معها طريق الدّنيا والآخرة.

فكّرت أن أسافر إليها يوم الأحد، أراها وأقبّلها وأنسى الغرفة الضيّقة ليوم أو يومين. لن أركب القطار هذه المرّة، كأنّي أصبحت أخاف القطار! كان أبي يحبّ القطار، ويقول إنّه أحسن وسيلة للسفر، تتنقّل داخله كما تريد، لاتصاب فيه بقنوط السفر، تستلقي أو تجلس، المهمّ أنّك مسافر. ولكنّ الأب المسكين الذي سافر دون فائدة، أخذ يتشاءم من القطار بعد أن وجدوا فيه أمّ (الهادي) ميّتة. ثمّ إنّه حين أصيب بالاختناق عدل عن فكرة السفر أصلا.

سأركب إليها إذن. ذهبت إلى محطة (بْن جْدية)، سألت عن حافلة السفر التي تذهب إلى طنجة، أجابوني بأنّها خرجت في العَاشرة صباحا، اضطررت إلى أن أركب القطار، وصلت إلى طنجة في العاشرة ليلا، نزلت في الفندق الذي قضيت فيه عطلتي حين كنت أنوي السفر إلى إسبانيا، ذلك السّفر الذي لم يتمّ والذي سمّته أختي (باسبور حَدُّو طنجة).

استيقظت في الثامنة صباحا وبدأت أبحث عن الدّار الفخمة التي تقطنها سعاد. لم يكن البحث عسيرا، ثمّ إنّي بمجرّد أن وقفت أمام الباب الواسعِ، رأتني سعاد وهي تطلّ من الشرفة. ابتسمَتْ ابتسامة الفرح والمفاجأة، وأشارت إليّ بيدها كي أنتظر.

خرجَتْ بسرعة، كانت ترتدي فستانا منفتح الصدر وحذاء لامعا. سألتني:

- كيف وصلت؟

قبّلتها وأنا أجيب:

- بالقطار، بالقطار.

- أنت أحمق، وعملك؟

- سأرجع اليوم، في قطار السادسة.

- أنت رائع، هل تحبّني كلّ هذه المحبّة.

ضممتها إلى صدري، تنفّست رائحتها:

- أكثر، أكثر!

- كيف حالك؟

- بخير!

- والسمك الرديء؟

- لايهمّ، لايهمّ، دعيني الآن في حلمي.

نظرَتْ إليّ، ابتسمَتْ، مدَّت يدها إلى حقيبتها الصغيرة التي وضعَتْها فوق الطاولة، أخذَت منها صورتين. في الأولى كتاب مُغْبَرّ وعنكبوت، وفي الثانية خصلة شعر وخاتم.

- كيف أنت في هذه المدينة؟

- أرسم وأَنتظرك.

- ماذا تنتظرين منّي؟

- كلّ شيء، مستقبلنا، حياتنا الحالمة، أبناءنا؟

استحسنت فكرة الأبناء قائلا:

- كم تريدين من الأبناء؟
- سبعة، تسعة، كما تريد!
ضحكْتُ بصوت عال، وارتحتُ كثيرا لفرحها، خاطبتها:
- الدّار البيضاء صعبة.
- ستصبح سهلة حين نتزوّج! هل رأيتَ صديقَك؟
- لا، لم أره إلى الآن، بحثت عنه كثيرا وسأبحث، لابدّ أن أجده.
- لابدّ، لابدّ.
- ماذا تدرسين في المعهد؟
- يعجبني تاريخ الفنّ، وحياة الرسّامين، أناس بسطاء، يتألّمون ويفرحون، ثمّ يرسمون ذلك في لوحاتهم.
- والفلاسفة؟
- هؤلاء مساخيط!
وضحكَت.
- الآن تحوّلتُ عن الفلسفة إلى التاريخ، مارأيك؟
- المهمّ أن تقول ماتعتقد فعلا بأنّه صائب، لامكان للكذب في المعرفة!
- قد خلَطتُ التاريخ بالجغرافية؟
- جميل، ولكن حاول أن تحدّد المواقع بدقّة، لاتخلط بين الخرائط، ثمّ لاتنس الخرائط الخفيّة!

كأنّها تقول مالا أستطيع قوله، لابدّ أنّها تفوقني ذكاء، إحساسها بالأشياء إحساس مباشر، ربّما تكون الفلسفة قد قتلت جزءا من عواطفي، ربّما تكون قد جعتلني جافًا أكثر من اللازم، هل ستكون سعاد هي هذا الجزء الذي أبحث عنه في الدّنيا؟ هل ستكمل ماينقصني؟
- هل رسمْت لوحة جديدة؟
- رسمت في هذه المدّة ثلاث لوحات: الأولى امرأة جالسة في شاطئ البحر تتأمل جهة الشّمال، والثانية رجل ينظر إلى الأفق ويفكّر، والثالثة أطفال يلعبون وسط حقول الزرع.

انصرفنا من المقهى، نزلنا إلى الشاطئ، جلسنا وسط الرمل، وضممت خاصرتها بيدي. كانت بواخر الميناء تتراءى أمامي، منها مايعبر البحر، ومنها مايرسو جاثما كالجبل وسط الماء.

فكّرت: مالذي يمنعني الآن من السفر إلى إسبانيا. سألت سعاد:
- مارأيكِ في السفر؟

- إلى أين؟
- إلى الأندلس؟
- الآن؟ بعد أن اشتغلتَ بالتاريخ؟ غير ممكن، عليك أن ترجع إلى عملك، قلت لك إنّ لديك نسبة من الجنون.
- ما رأيك؟
- في ماذا؟
- في أن ألقي بنفسي وسط هذا الميناء، وأعبر البحر إلى الضفّة الأخرى؟
- ستغرق قبل أن تسبح، لن تلائمك إلاّ الفلسفة، درِّس التاريخ في صمت، وستتغيّر الجغرافية، سترى الخرائط متغيِّرة من تلقاء نفسها، ليست هذه أوّل مرّة تتبدّل فيها المواقع.
- وضياعي؟ وغربتي؟ ثمّ هذه التفاهة التي أشعر بها وأنا وسط مدينة غريبة بالنسبة إليّ؟ كيف أنشأ بين جدران ودروب كنت منها وسأصير إليها ثمّ أحس داخلها بغربة قاتلة؟
- ألا يمكن أن تكون الغربة جزءا منك تبرّره بغربة في الدّنيا؟
-لست مسؤولا، لست مسؤولا!
- طيِّب، وعن أيّ شيء أنت مسؤول؟ هل أنت ملاك نزل من السماء؟ لماذا تفترض في نفسك كلّ هذه البراءة؟
شعرت أنّها بدأت تفهمني أكثر ممّا أفهم نفسي. تصدمني بأسئلة غريبة. لماذا أتهرّب من مثل هذه الأسئلة؟ أليست المسألة سوء تفاهم بيني وبين الواقع؟ لماذا لا تكون الدّنيا على صواب؟
أشعلت سيجارة أمريكية مهرّبة، وتأمّلت باخرة فرنسية ترسو في الماء. وسألت سعاد:
- في كلامك مغالطة! لماذا تعمدين إلى الفصل بيني وبين الواقع؟ أنا لست سوى جزء منه، فلماَذا أُتّهم بغربتي؟
فكّرَت مليّا، نظرت إلى الأفق البعيد، ثمّ سألتني:
- لماذا تنظر إلى الدّنيا وكأنّك وحدك فيها؟ كيف يمكنك أن تلغي غيرك؟ لست إلاّ واحداً من أناس كثيرين، ضَع رأسك بين الرؤوس وامض في صمت.
حين سمعت كلمة الصمت، ضحكت وانفعلت، ثمّ صحت بأعلى صوتي وأنا أنظر إلى الميناء البعيد:
- لا، لن أصمت، سأتكلّم بأعلى صوتي، أليس لي الحقّ في الكلام؟
انتبه بعض الناس إليّ، كان الشاطئ الكبير شبه فارغ، لم يكن الموسم موسم صيف.

قصدني حارس من حراس الشاطئ، سألني:
- لماذا تصيح؟
- لأنّني أريد أن أصيح، هل تعرف قانونا يمنع الصياح في الشواطئ؟
تحوّل بنظره إلى سعاد وسألها:
- هل تعرفينه؟
- هذا زوجي!
- ولماذا يصيح، عليه أن يتكلّم في صمت!
سمعت كلمة الصمت مرّة ثانية، احمرّت وجنتاي، انتفخت عروقي، وخاطبته:
- هذا ليس شأنك، سأصيح اليوم وغدا، مارأيك؟ هل تحكمون على غضب الناس وانفعالاتهم.
اقترب منّي، أراد أن يشمّ أنفاسي، كان يريد أن يجدني سكران، لم يفلح في ذلك، نظر إلى المكان الذي كنت جالسا فيه إلى جانب سعاد، رأى علبة السجائر المهرّبة، صاح في وجهي:
- هادو شي قْنيبلات...
لم أفهم كلامَه، أراد أن يمسك بيدي:
- زيد، زيد...
- إلى أين؟ ماذا تريد؟
- قلت زيد، انت محشّش، وماحشمت من هاد الأجانب الّلي جاو لبلادنا، هادو جاو يرتاحو، ماجاوشاي باش يشوفو الفوضى والتصعليك.
قامت سعاد من مكانها، ابتسمت في وجهه وهي تقول:
- أنت خاطئ، ليس بين هذا الرجل وبين الحشيش أيّ علاقة.
- سنعرف ذلك، سنعرفه، زيد، زيد.
لم أتردّد في الذهاب معه، وصلنا إلى دائرة الشرطة، سألني شخص محمرّ العينين، كأنّه يتكلّم من بئر عميقة:
- مَالَكْ؟
- كنت في الشاطئ أنظر إلى البواخر والأرصفة!
- ماذا تقول؟
- أجابه الحارس:
- كان يتحشّش ويصيح!
- مزيان، إيوا، وهاد البنت؟
-قال لك مراتو!

- مزيان.
وسألها:
- انت مراتو؟
- خطيبته، سنتزوّج قريبا. . .
- ايوا، كنت كاتحشش حتّى انْت؟
ضحكت سعَاد، قال لها حارسَ الشاطئ:
- تأدّبي معا الشّاف!
قمعت ضحكتها بين أسنانها، وأجابت (الشاف):
- كنّا جالسَين نتأمّل الأفق ونتحدّث في المستقبل.
- وهذه العلبة؟
- هذه علبة سجائر.
- إيه. . . ولكنّها مهرّبة، وتستعمل في الحشيش.
- كان يدخّن السجائر.
- يدخّن السجائر ويصيح وسط الناس، يفسد سمعة البلاد، الشاطئ مليء بالأجانب.
- إيوا آسيدي، الله يسامح، هاد المرّة مايعاودش.
نظر إليها، ابتسم ابتسامة متكلّفة، وخاطبها:
-طيّب، سنسامحه هذه المرّة، من أجلك طبعا، ماسمك؟
- سعاد. . .
- لم يعجبني سؤاله.
- ستضمنينه أنت؟ لن يصيح مرّة أخرى.
ضحكت وهي تردّ عليه:
- نعم أضمنه، لن يصيح بعد اليوم!
خرجنا من دائرة الشرطة، كان عليّ أن أركب إلى الدّار البيضاء بأيّ ثمن. ذهبنا إلى محطّة القطار، كان قد أقلع قبل ربع ساعة، توجّهنا إلى حافلات السفر، أخبرونا أنّ آخر واحدة منها قد ذهبت في الرابعة. قرّرت أن أقضي ليلة الأحد في طنجة، وألاّ أحضر عملي يوم الإثنين.
أعجبت سعاد بالفكرة، وسألتني:
- ألا نشكر حارس الشاطئ؟
- نشكره، لولاه لما قضيت الليل معك.
-ستقضيه في الفندق.

- إذن سأظل وحدي في هذه المدينة، ربّما أعثر على حارس الليل هذه المرّة.
- لا، لن تعثر على أحد، ستذهب معي إلى منزل أختي، ثمّ ترجع لتنام في غرفة ضيّقة كعادتك.
- لاتنسي: غرفة بدون نجوم.
- دع عنك لعبة النجوم، هي لاتصلح لك، أنت مسخوط، تعال إلى منزل أختي.
-لا، لن أذهب معك، ستظلّين معي لبعض الوقت ثمّ تنصرفين.
- إلى أين سنذهب إذن؟
- إلى الشارع، الشارع الكبير، شارع محمّد الخامس.
- وبعد ذلك؟
- بعد ذلك، ناكل أيّ شيء، وننام كيفما اتّفق.
- وننتظر!
فهمت أنّها تعني زواجنا، أكّدت قولها:
- وننتظر!

قصدنا الشارع الكبير، وضعت يدي فوق كتفيها، وظللنا ننظر إلى الدّكاكين والمقاهي لأكثر من ساعتين، اشترَتْ بعض الألوان التي تستخدم في اللوحات الزيتية، أهديتُها عطرا وقميصا أبيض، قبّلتني عند مدخل المحلّ الذي اقتنيت منه القميص، ثمّ انصرفنا لأوصلها إلى المنزل. ودّعتني، ضممتها إليّ، همست في أذنها:
- إنّي أحبّك حقّا.

التقينا يوم الإثنين في السابعة والنصف. كان عليها أن تحضر دروسها في التاسعة، وكان عليّ أن أركب قطار العاشرة صباحا.

كان أبي يقول: إنّنا كنّا نشرب الشاي في القطار بشكل جماعيّ، وناكل أيضا بشكل جماعيّ، ولكنّني لاحظت أنّ القطار الذي ركبته من طنجة إلى الدّار البيضاء قطار صامت. لاأحد يكلّم أحدا، كلّ منّا يفكّر في شيء معيّن، متشابك ومشتّت، فلا نحن حاضرون ولانحن غائبون. هكذا نفكّر لنفكّر. كنت مشتّتا بين سعاد، وعبد اللطيف، وفاس التي يختنق فيها أبي، وياسمين التي مايزال لها حيّز في قلبي المتعب والمتفائل، وعملي الذي خلطت فيه بين أشياء لاحدود لها. لاحت لي طنجة عن بعد كصخرة ناتئة وسط بحرين يرتطمان بحافّاتها. فأيّ موقع لسعاد داخل هذه الصخرة. كنت في كلّ أمر أتجهّز للخيبة، أتوقّعها لأنّني أصبحت جزءا منها. أحبّ سعاد وأتوقّع أن أذوب في حضنها، ثمّ أخاف زمني.
سألت شخصا يركب إلى جانبي:

- هل اقتربنا من مدينة القصر؟

-لا أدري، لست من هذه المنطقة!

ارتددت إلى نفسي، أخذت من محفظة اشترتها لي سعاد من طنجة قصّةً كنت قد بدأت قراءتها في الدّار البيضاء، واصلت القراءة في تثاقل وقنوط يشبه قنوط القطار الذي أركبه. كانت القصّة تحكي علاقة بين رجل وامرأة انتهت بالزواج السعيد الذي يضمن مصلحة الطرفين ويحمي أهدافهما المخلصة. عدلت عن القصّة وأخرجت من محفظة سعاد لوحة رسمتها بالأسود والأبيض. كانت اللوحة أجمل ممّا أتصوّر: امرأة بملامح داكنة تحمل في ظهرها طفلا وتتهيأ لتحصد حقلا ممتدّا عبر الفضاء. لم أكد أترك اللوحة حتّى اقتربنا من ميناء الدّار البيضاء. ليس صدفة أن تكون محطّة القطار في ميناءَي طنجة والدّار البيضاء، لابدّ أن تكون هناك علاقة بين القطار والبواخر. بدأت أخلط بين الجغرافية والفلسفة، عليّ أن أنزل، ثمّ أتغذّى، وأنام قليلا، ستتّضح الأمور فيما بعد، لابدّ من أن أنتظر.

وضعت رجليّ فوق الرصيف، وجدت عبد اللطيف أمامي منتصبا كشخص خرافيّ لايمكن أن ينهار. وضع نظّارة سوداء اختفت معها ملامح عينيه؛ ترك لحيته تنمو فوق خدّيه بشكل عشوائي، وارتدى قميصا أبيض وسروالا واسعا أسود ذكّرني بالسراويل التي كان يلبسها والده في بعض الأعياد الدينية.

هل اختزل عبد اللطيف جنونه بأن تقمّص شخصية والده؟ كيف يمكن للإنسان أن ينكص إلى هذا الحدّ؟

وقفت أمامه، كدت أضمّه إلى صدري، فأحدّثه عن غربتي وألمي وبحثي عنه. لم أتمالك نفسي من الفرح حين اقتربت منه، ولكنّي لاحظت فتوره واستغرابه. ابتعدت عنه قليلا: هل هذا هو عبد اللطيف الذي أعرفه؟ كيف؟ عبد اللطيف لايمكن أن ينكرني، لابدّ أن أسلّم عليه، وليقع ما يقع. هل جنّ فعلا؟ أم أنّ في نفسه شيئا ما لم أفهمه بعد؟

تقدّمت نحوه من جديد، عرفني هذه المرّة، سألني.

- ماذا تريد؟

- ألم تعرفني؟

- لا، لم أعرفك!

- هل نسيت أيّامنا الجميلة؟

- لا، لم أنس شيئا، عن أيّ أيّام تتكلّم؟

- عن زمن مضى؟

- كلّ مامضى انتهى، والبقاء للّه وحده. المهمّ ماذا تريد الآن؟

- هل فقدت ذاكرتك؟

عبس في وجهي وهو يقول:

- لا، لمِ أفقد شيئا، ربّما تكون ذاكرتك هي المفقودة؟

- ألستَ عبد اللطيف؟

- بلى، أنا عبد اللطيف!

- هل نسيت؟ نشأنا معا، كنّا صديقين حميمين، كنّا نسكن بالقرب من قنطرة الرصيف.

- قلت لك: مامضى انتهى، والأمر للّه من قبل ومن بعد!

- نعم الأمر للّه، ولكن لاتنكرني إلى هذا الحدّ.

- أنا لاأنكر، أنا لاأعرفك!

- ولماذا أعرفك أنا؟

- هذا شأنك!

- والحلّ؟

- الحلّ أن تتركني لسفري!

-آه، ستسافر، إلى أين؟

- وفي ماذا يهمّك هذا السفر؟ لماذا تتدخّل فيما لايعنيك؟

- جميل، أنت لاتعنيني إذن؟ كيف؟ غير ممكن؟ هل وصل بك الجحود إلى هذا الحدّ؟

- من الأحسن أن تبتعد عن طريقي، أنت لاتصلح لي.

- طريقك؟ ماهي هذه الطريق؟

- عدتَ إلى مالايعنيك؟

- سأظلّ في هذا الذي لايعنيني، مارأيك؟

- أنت أحمق!

- ربّما، المهمّ أن ترجع إلى صوابك؟

- صوابي؟ ماهذا الصواب الذي تريده منّي؟

- أن ترجع إلى زوجتك وعملك، أن لاتنكرني كلّ هذا الإنكار؟

- زوجتي؟ أنا متزوّج! قلت: إنّك أحمق!

- وعملك؟

- وهل يهمّك أن تعرف عملي؟

- لا، أنا أريد عملك في مدرسة الأمل؟

- ومتى كنتُ في هذه المدرسة حتّى أعود إليها؟

- كنتَ فيها حين كنت معلّما؟
- أنا الآن أيضا معلّم، ولكنّه لاعلاقة لي بهذه المدرسة.

كنت في حواري معه كناطح صخرة؛ مالي ولكلّ هذه الأمور؟ لأترك الأشياء تسير على حالها. هذا صديق أنكرني، ومن منّا لاينكر الآخر في زمن الإنكار. ربّما يكون فقد ذاكرته إلى الأبد؟ ربّما يكون قد نكص إلى غير رجعة. وأنا؟ هل أنا على صواب؟ لماذا أفترض الوهم في الناس ولا أفترضه في نفسي؟ قلت له:

- ومريم، ماذا فعلت بها؟
- مريم؟ من مريم هاته؟
- زوجتك؟
- زوجتي اسمها خديجة، أنا لاأعرف امرأة اسمها مريم؟ ربّما اختلطت في ذهنك الأسماء!

فكّرت أنّ ذلك ممكن بالنسبة لمن خلط بين أشياء كثيرة قد حدّدت بدقّة عند كثير من الناس. ربّما يكون هذا الشخص مجرّد شخص اسمه عبد اللطيف، ثمّ أكون قد خلطت بينه وبين عبد اللطيف الذي عاشرته في التاريخ الغابر. كل شيء قد تغيّر إلى لاشيء، فلماذا لايتغيّر الإنسان؟ أليست المسألة لعبة خلط رهيبة.

- إذن أنت لاتعرفني؟
- نعم، لاأعرفك.

غادرت محطّة القطار، وتركت عبد اللطيف الذي لايعرفني ينتظر قطاره. خطرت لي فكرة زيارة مريم. ذهبت إليها بمحفظتي، لم تكن أمّها موجودة. رحّبت بي قائلة:

- هل عثرتَ على صديقك؟
- وجدته ولم أجده!

لم تكن تفهم ماأقول. سألتها:

- وأنت، ألم تعثري عليه؟
- عثرت على جزء منه!
- كيف؟
- وصلتني رسالة منه، وضع فيها ورقة طلاقي!
- إذن لم تعثري عليه؟

كنت أريد أن أتأكّد من أنّ عبد اللطيف الذي وجدته في محطّة القطار هو نفسه عبد اللطيف الذي طلّق مريم. أضفت:

- وجدته فلم يعرني أيّ اهتمام. هل هو نفسه الذي عرفته في طفولتي، أم أنّه شخص آخر؟

- إذن رأيتَه؟
- نعم، رأيته بلحية ولباس من الماضي البعيد!
- وهل أنت متأكّد أنّه هو؟
- هو؟ لا، هو وليس هو!
- أصبحت فيلسوفا حقيقيّا.
- لا، هذه ليست فلسفة، هذه أمور غريبة ومتشابكة لاأستطيع فهمها. إنسان تعيش معه كلّ حياتك، تحبّه كأقصى ماتكون المحبّة، تفقده في رحلة الدّنيا وتبحث عنه، ثمّ تجده ولاتجده، هذا منتهى الوهم. بماذا سأومن بعد عبد اللطيف؟
- وأين وجدتَه؟
- في محطة القطار!
- سافرتما معا؟
- جئت من طنجة، ووجدته ينتظر قطارا آخر في المحطّة.
- كنتَ في طنجة؟ كيف حال صاحبتك الجديدة؟
- بخير. بخير!
- هل ستتزوّجها؟
- نعم، في أقرب وقت.
- دعك من الماضي، عليك أن تهتمّ بنفسك.
- نعم، نعم، سأهتم بنفسي.

شربتُ فنجان قهوة، وحدّثتني مريم أنّها ستبني حياتها مع رجل يعمل في صناعة الزرابي. باعت دكّان أبيها وأسّست مع زوجها الجديد شركة صغيرة للزرابي. ودّعتها قائلا:

- الزرابي، جيّد، جيّد، صناعة بوه لايغلبوه!

ولكن، لماذا لم يفعل عبد اللطيف مافعلته مريم؟ ألم يكن أبوه بائع زراب في سوق الحايك؟ لماذا يرث منه جانبه (العيساوي) وينسى جانبه المضيء؟ لو صنعَ عبد اللطيف الزرابي التي كان يبيعها أبوه لاكتَسيتُ بها والتحفت؟ لماذا تسيز الدّنيا ضدّي؟ ربّما أكون أنا الذي أسير ضدّها؟ يبدو أنّ كلّ شيء قد اختلط بكلّ شيء؟

دخلت إلى غرفتي، وجدتها ضيّقة أكثر من ذي قبل، رميت بالمحفظة في ركن من أركانها المتقاربة، وخرجت أبحث في الفراغ عن طعام أملأ به بطني.

كانت المأكولات قد تشابهت لديّ إلى الحدّ الذي لم أعد أميّز فيه بين السمك الرديء واللحم البائت والبطاطس المقلية ألف مرّة. كنت قد اتخذت عادة أستلذّ بها

أيّ أكل، أضيف إليه بعض التوابل الحارّة كي يتغيّر طعمه، ينسلخ لساني وأضيف التوابل، لم أعد أستطيع الأكل دون ذلك. ثمّ إنّي أصبحت من جديد آكل السندويتش والهامبرغر! أستهلك أشياء فارغة وأملأ بطني وانتهى الأمر. هكذا كانت الدّار البيضاء بالنسبة إليّ، مجالا للفراغ رغم ازدحامها وتناقضاتها المفزعة.

أذهب إلى القسم وأرجع إلى الفندق الذي لانجمة له، ثمّ لاأجد أشلاء ذاتي إلاّ في الخرائط الموزّعة بدقّة لاتعكسها الخرائط المعلّقة على الحيطان، وفي الزمن المنسيّ عن عمد، والذي هو زمن أبي الذي اختنق.

بلغني خبر مرض موته، فذهبت إلى فاس لأعيش معه اختناقه المتمكّن، ولأجد من جديد أنّ كلّ شيء قد تبدّل. حتّى المولى إدريس الذي كان مجالا للفرح وانفتاح باب السماء أصبح خاليا من مواسمه الجميلة التي سكنت ذاكرتي، تحوّل إلى مكان تسكنه الجلابيب الملوّنة والتي لالون لها. في ما مضى كان يسكن قلوب الناس وكيانهم. أقسم أنّ لبن الأمّهات كان يتفجّر من بين جدرانه وأنّ رائحته الطيبة ما كانت لتكون إلاّ لنتنفّسها فتسكن صدورنا حتّى آخر الدّنيا.

دار (بريكة) أصبحت جزءا من فضاء غائم، وأبي يموت وهو يقول لي: إيّاك ألاّ تتزوّج هذه الفتاة التي تدرس الرّسم في طنجة.

شرفـة سعـاد

مات أبي، دفنته بعيدا عن الدّار البيضاء، وكنت كلّما أردت الترحّم عليه وقفت في باب (سيدي بليوط) فاسترجعت رحلة الأمل الذي كان يراوده في أن يشتري دكانا في باب مرّاكش، ويصبح جارا لصديقه (السّي المعطي).

هل بإمكاني الآن أن أتخذ صديقا واحدا في هذه المدينة؟ لاحظت أنّ كلّ إنسان فيها يسير ضدّ كل إنسان، ثمّ عرفت أنّ الأمر فيها لعبة متناسقة ينهزم فيها الناس وينتصرون، ياكلون أولا ياكلون. المهمّ هو هذه الحركة الدائبة التي لامصير لها. يعبرون أيامهم وهم مندهشون من فزعهم. أصبح الخوف من السقوط غولا تتربّص بهم، خَنَقهم خوفهم من الخوف فكاد كلّ منهم ياكل نفسه وهو يظنّ أنّه ياكل غيره.

سألني صاحب الفندق:

- هل ستقضي السنة عندنا؟

أجبته:

- لا أدري، ربّما أقضي كلّ عمري عندكم.

لم يجبني، أخذت المفتاح، وصعدت إلى غرفتي. كنت أفكّر في أنّ لعبة النجوم لعبة غريبة عنّي. أقصد نجوم الفنادق والحانات والخرائط الشاسعة. لم أتحوّل عن تدخين السجائر السوداء، وأعجبت بلعنة الفلسفة ولعبتها البسيطة. أصبحت أحمد الله على غرفة أستطيع أن ألجأ إليها كلّما ضقت بالفراغ الشاسع الذي التهم الناس والأشياء! ملأت غرفتي بكتب ومجلاّت وجرائد، علّقت في حيطانها الذابلة صورة سعاد ولوحاتها، وغرقت في عالم هارب من العالم، أو الحقيقةَ أقول:

إنّ العالم هو الذي يهرب منّي، يدمّرني، يريد أن يحوّلني إلى حشرة متفلسفة، لأنه تعوّد أن يحوّل كلّ شيء جميل إلى حشرة!

سكنت إلى تفاهتي بعد هذا الموت المختنق. وفكّرت في أن أنقل أمّي وأختي الصغرى إلى الدّار البيضاء، ثمّ تأكدّت من حمقي قبل أن تحدّثني به هذه الأخت. هل سنسكن جميعا في الغرفة الضيّقة؟ وهل ستاكل أمي الساندويتش؟

(لعن) الله الفارابي (لعنة) أبدية! ما الذي كان يحول بيني وبين أن أكون سمسارا أو قاطع طريق؟ كلّ شيء قد اعوجّ، فلماذا لا أكسّر رأسي أو أحوّلها إلى بطاطس؟

رجعت إلى الدّار البيضاء، وسألت تلامذتي:

هل يتدرّج تاريخ الإنسان صعدا أم يرجع إلى السقوط؟

أجابُوني في عبث رهيب:

يتحدّد ذلك حسب المواقع ياأستاذ.

كانت إجابتهم صحيحة، وعدت إلى المعادلة الصعبة، معادلة التاريخ والجغرافية:

إذا كان الإنسَان في مواقع الصعود، اتجه تاريخه إلى أعلى.

وإذا كان الإنسان في مواقع السقوط، اتجه تاريخه إلى أسفل.

جلست في مقهى رخيص أمام فندق (ريجنسي) وتساءلت عن العلاقة بين الفارابي وبين هذا الفندق الذي يكاد نجمه يصل إلى النجم القطبي، فلم أجد أيّ جواب لتساؤلي. الفارابي جزء من الماضي الغابر الذي لا وجود له، وريجنسي من الحاضر الصاعد إلى السماء، فلا علاقة إذن إلاّ أن تكون الفلسفة على خطأ ويكون نجم ريجنسي على صواب. (لعن) الله أفلاطون وأرسطو، ولأذهب إلى غرفتي أجترّ الماضي وألعن الدنيا التي جاءت بي إلى الدنيا. وأختي على صواب حين قرأت الكندي: الكَنَديّ نسبة إلى كَندا، والفارابي الفأرَبيّ نسبة إلى الفأر. أصبحت غرفتي الذابلة تتسّع، صَنعت منها ومن سعاد حلما لاأستَطيع أن أحيا إلاّ به، اختزلت زمني في كتاب أقرأه، أو لوحة أجد فيها جزءا من حلمي. لم يعد الحاضر يهمّني، سكنني الماضي والمستقبل حتّى العظم. كأنّني أريد أن أستعيد براءة الطفولة، فتنفلت منّي، وأحلم بها، ثم تنفلت وأحلم. هكذا أصبحت: خطّا حلزونيا يضيع في الماضي المنسي والمستقبل المؤجّل. هل أصبحت أحيا الزمن الميّت أم إنّني أنا الذي متّ ولم أعش حياتي بعد؟

سمعت الباب يطرق، اندهشت، لأنّه لم يسبق أن طرق بابي أيّ شخص فيما مضى. فتحت، وجدت عبد اللطيف منتصبا أمامي بلحيته السوداء وقامته المتجهّمة. ازدادت دهشتي، سلّمت عليه في فتور، لم يمدّ لي يده. قال: السلام عليكم، ودخل. تأمّل إليّ في عبوس، دعوته إلى أن يجلس فوق الكرسيّ الوحيد الموجود بالقرب من

(مكتبي)، فضّل أن يجلس على مخدّة كنت أضعها على الأرض أحيانا، ثمّ أستلقي على ظهري وأقرأ. كان سريري مقوّسا كأنّه حفرة.

سألته:

- كيف وصلت إليّ؟

- الوصول إليك سهل كشربة ماء!

- كنت أظنّ أنّني صعب للغاية؟

- أنت خاطئ!

- من الذي دلّك على هذا الجحر الضيّق في الدّار البيضاء؟

- جُحر؟ أنت كالثور الأبلق. وصلتُ إليك عن طريق مريم!

- هل رأيتها؟

- نعم رأيتها، أعطيتها حقّ طلاقها، وسألتها عنك.

- عجيب، أصبحت واضحا أكثر من اللازم.

- لابدّ من الوضوح. كيف حالك؟

- كما ترى، بخير، بخير. توفّي والدي، وأنا أدّرس الفلسفة... التاريخ... الجغ...

ثمّ سكتّ.

- ماذا تدرّس؟

- الجغرافية!

- جميل، جميل، هل تزوّجت؟

- سأتزوّج، قريبا، قريبا إن شاء الله.

- إنْ شاء الله.

- وأنت، ماذا تفعل؟

- أبيع الكتب!

- أين؟

- هنا وهناك. «نحن نَرزقُكم وإيّاهم».

- وهل تزوّجت؟

- لي طفلان اثنان: ياسين وعبد الله.

- وأين تسكن؟

- في مراّكش، بالقرب من جامع دكّالة.

- هل تشرب شيئا مّا؟

كان فوق الطاولة زجاجة كوكاكولا، أردته أن يأخذ كأسا أو كأسين، ولكنّه رفض قائلا:

- الشاي أفضل.

- إذن أطلب لك كأس شاي؟

- فيه خير، فيه خير.

قمت من مكاني، نزلت إلى (قاعة الاستقبال) في الفندق الرخيص، وطلبت من المرأة التي كانت تنظّف البيوت أن تحضّر لي كأسين من الشاي الأخضر، ثمّ رجعت إلى عبد اللطيف.

وجدته يتصفّح بعض كتبي. ما إن دخلت عليه حتّى فاجأني..

- أليست لديك نسخة من المصحف الكريم؟

أجبته في تلعثم:

-لا، لا، القرآن كما تعرف في صدورنا.

- ولكن لابدّ من قراءته. بإمكانك أن تستغني عن كثير من هذه الكتب، لافائدة منها، فيها كثير من الكلام المضلّل.

- لاضلال مع المعرفة؟

- قد يكون ذلك. ولكنّ المعرفة يجب أن تكون ملائمة للدين؟

- عن أيّ دين تتحدث؟

- عن الإسلام في صورته الحقيقية؟

- وماهي صورته الحقيقية؟

- هي الصورة المستوحاة من الكتاب والسنّة؟

- وهل تعرف أنت هذه الصورة؟

- المؤمن يرى بنور الله؟

- صحيح، ولكنّنا جميعا مؤمنون؟

- هذا صحيح، ولكنّ العصيان قد طغى على الأمّة حتّى أصبحت أمّة كافرة؟

- قد يكون ذلك، ولكن بأيّ حقّ تنصب نفسك حاكما في هذه القضية؟

فكّر مليّا، ثمّ أجابني:

- لأنّني صحيح الإسلام؟

- وأنا؟ ألست صحيح الإسلام؟

- هل تصلّي؟

-لا، لا أصلّي؟

- إذن أنت قريب من الكفر؟

- ربّما، ولكنّ مسألة الصلاة لاتعدو أن تكون كسلا منّي، وفي الدّنيا كما تعرف كسلاء ومجتهدون.

- لا، ليست المسألة كسلا واجتهادا، المسألة أكبر من ذلك، الصلاة عنوان الإيمان، إنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

- وما المنكر الذي أرتكبه؟

نظر إلى اللوحة التي أرسلتْها سعاد أوّل مرّة، لوحتها التي رسمت فيها رجلا وامرأة عاريين متعانقين، وقال:

- هذا الذي تعلّقه في الحائط منكر، هذا إثم كبير.

أجبته:

- ألم يخلق الله آدم وحوّاء بهذه الصورة؟

ولكنّنا لسنا على دين آدم وحوّاء، ديننا الإسلام كما تعرف.

- هذا صحيح، ولكنّ الإسلام ليس إلاّ صورة متطورة للأديان السابقة.

- نعم، ولكنّه آخر هذه الأديان، وأقربها إلى الله.

- صحيح، ولكنّ هذه الصورة التي ترى ليست سوى فنّ وإبداع إنسانيين، ثمّ إنّها حقيقة بشرية؟

- ولكنّ فيها خروجا عن الدّين.

بدا عبد اللطيف غريبا بالنسبة إليّ، لاحظت التغيّر الرهيب الذي طرأ عليه، أصبح غامضا أكثر ممّا كنت أتوقّع. أردت أن أحوّل الحديث إلى جهة أخرى، سألته عن أخيه: أجابني:

- لم أره من مدّة بعيدة، ولكنّه يزداد مع كلّ يوم كفرا، سيموت في كفره.

- ماذا يصنع الآن؟

- يصنع الذهب المغشوش!

- كيف؟

- لاأدري، ولكن من المؤكّد أنّ كلّ شيء يصنعه لابدّ أن يكون مغشوشا. لقد طلّق زوجته الأولى، عزيزة أمرته بذلك، هي الآن تسيطر عليه سيطرة تامّة، "إنّ كَيدكُنَّ عظيم". صدق الله العظيم.

- ألا يحلّ الزواج والطلاق؟

- لا، لا، يحلّ، ولكنّ الزوجات لابدّ أن يكنّ مؤمنات، وعزيزة هاته، بل وخديجة أيضا ضالّتان كافرتان.

- ومريم؟ لماذا طلّقتها؟

- لأنّها كافرة أيضا، امرأة تركب في السيارة مع رجل غريب لابدّ أن تكون كافرة!

- وإن كانت ابنة (السي المعطي)؟

- في الحديث "إيّاكم وخضراء الدّمن" وأنا أقول: "إيّاكم وشوك البساتين".

- إذن أصبحت رسولا أو كالرسول؟

أصابه ذعر كبير من سؤالي، احمرّت وجنتاه وهو يجيبني:

- أعوذ بالله، أعوذ بالله.

قام من مكانه قائلا: السلام عليكم، سأزورك مرّة أخرى. خلوت إلى نفسي، تساءلت:

هل كتب على عبد اللطيف أن يتحوّل من عصاب إلى عصاب؟ هل الإسلام الصحيح هو إسلام أبي أم إسلام عبد اللطيف، لابدّ أنّ في الأمر خللا مّا؟

قرأت فقرة أو فقرتين من "رسالة الغفران" ونمت داخل هواجسي وتناقضاتي الحادّة.

في حلمي بعبد اللطيف ذي اللحية السوداء والعينين المتجهّمتين انهيار كبير لحلمي!

عاشرته بريئا، وانسجمت معه مجنونا، ثمّ رثيت له في هذا العصاب الجديد الذي استبدّ به. هل عبد اللطيف هو عبد اللطيف أم أنّه صورة أخرى لانهيارنا المتمكّن؟

قد يكون وجد خلاصه في الله، ولكن: ماعلاقة الله بالسواد والظلمة؟ "الله نور السماوات والأرض"، فلماذا اختار عبد اللطيف أن يترك كلّ الألوان المشرقة ويدفن جسده في كفن أسود؟ من الذي صنع منه سجنا أبديّا وهوّة سحيقة؟ هل التَهَمته الدّنيا إلى هذا الحدّ الذي يتصلّب معه الجسد وتجفّ الروح فيغدو الإنسان آلة لخلق الكوابيس الضاغطة؟

رأيته في حلمي القديم إنسانا يحبّ كلّ شيء، ثمّ تحوّل بعد زمن إلى شيء يكره كلّ إنسان!

كيف يتحوّل هذا التحوّل الرهيب؟ أكاد أجزم أنّه لم يختر ذلك، يبدو أن ذاته قد انفلتت منه فامتلكها ملاك الموت وإله الظلمة. هل كتب علينا هذا الاستبداد الأبديّ الذي لا خلاص منه؟

أصبحت الآن أفزع من أن أحلم به. عبد اللطيف جزء منّي، يسكن صدري، يستبدّ بكياني، ثمّ يُبْتَر منّي بين زمن وآخر. هل ستتوزعني كلّ هذه الأزمنة المبتورة؟

ماذا سيتبقّى منّي حين أعيش البراءة والجنون والظلمة؟ يبدو أنّني سأضيع في هذه الغرفة الكريهة، سأتحوّل إلى حشرة سوداء لاضارّة ولانافعة، سأستلقي على قفاي وأتأمّل الدّنيا، ثمّ أقول: إنّها انتهت هذه النهاية الضّالّة؟

أخذت كتابا للغزالي، وجدته يقول : الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان . . . تساءلت عن علاقة الجنان بتجهّم العينين وبالسحنة الذابلة والقسوة، فلم أجد أيّ جواب لتساؤلي. عرفت بعد ذلك أنّ أبي كان مؤمنا حين آمن بسيدي بليوط ومولاي ادريس، ثمّ قضى حياته على أمل أن يكون له دكّان صغير في باب مرّاكش! قلت: إنّني لن أومن أكثر ممّا آمن أبي الذي اختنق وهو يبحث عن رزق أبنائه، لاداعي إذن إلى أن أتشبث بعبد اللطيف، سأقتله داخلي، وأنهي لعبة البراءة المغشوشة والظلمة الرهيبة. سيزورني هذه المرّة فأصارحه بأنّ زمننا قد انشطر وأنّ الجغرافية هي الكفيلة بأن تحلّ هذا المشكل العويص.

فأنا أفهم فيما أفهم أن عبد اللطيف لايمكن أن يؤمن بالفلسفة، ثمّ أفهم أيضا أنّني لن أتخلّى عن (لعنة) الفارابي والحلاّج، ولذلك فجغرافيتي هي جغرافية الفرح والمطر، أمّا جغرافية الموت فلاعلاقة لي بها. ربّما يكون الجنون أفضل من هذه الجغرافية الصفراء، سأعتذر له وأودّعه ثمّ أقول له: دعني في حمق المواقع، إنّه أفضل بكثير من حمق القبور! لن أفكّر فيك بعد اليوم، دعني أفكّر في غرفتي الضيّقة التي ملأتها سعاد بلوحاتها المتناقضة!

□ □ □

مرّت ثلاثة أشهر أو أربعة، ثمّ جاءتني سعاد إلى الدّار البيضاء تقول إنّ شخصا قد خطبها في طنجة. وهو شخص ضاحك صلب ومعافى وعابث، يملك مالا كثيرا لاتعرف سعاد مصدره، له سيارتان وداران، واحدة في جبل طنجة والثانية في شاطئ قريب منها، رآها أنيقة جميلة فأرادها أن تحمل منه طفلا أو اثنين ثمّ خطبها. فما رأيك؟

- لا رأي لي في هذه القضية!
- كيف؟
- كما تسمعين، لقد غُلبت على أمري حتّى لارأي لي في محبّتي!
- إذن، أنت تريد رأيي؟
- لابدّ من ذلك!
- عليكَ أن تخلّصني من هذا الشخص؟

- كيف؟
- بأن تتزوّجني في أقرب وقت ممكن؟
- سأفعل ذلك!
- متى؟
- حين أتهيأ لك!
- أريد وقتا محدّدا؟
- أنت تعرفين أنّني لاأملك إلاّ هذه اللعنة التي تطاردني؟
- أنت تعرف أنّني أحبّك في لعنتك؟

نظرت إلى لوحة من لوحاتها، كان في اللوحة عصفور ينقر من صخرة قطرات ماء، وفوق الصخرة سنابل خضراء متداخلة. أجبتها:

- هل سنلد أبناءنا بالفلسفة؟
- سنلدهما بالجغرافية.

ثمّ ضحكت وضمّتني إليها. قبّلتها، ذبت في شفتيها، وضعت رأسي بين نهديها وحكيت لها قصّة الوردة والنجم الحزين:

يحكى أنّ وردة جميلة سكنت بالقرب من ساقية عند جذع شجرة الصنوبر، فأحبّها نجم حزين كاد يسقط من كثرة ما أشعّ في سماء الخريف. كانت السماء المظلمة تتوقّع في كلّ يوم موت النجم الحزين، ولكنّها استغربت أمره حين ظلّ صامدا في حزنه وانطواء قلبه، وهو ينشد في كلّ يوم أغنية تقول:

أنا النجم الحزين الذي انطفأ قلبه
بين جوانحي نبضة للعشق والمحبّة
أخذت من الشمس دفئها
ومن حقول الزرع رقصة ورقصة
ولكنّي أكاد أسقط
أنا النجم الحزين كأنّي شمعة وسط الظلمة
أنا النجم الحزين كأنّي فتيل النور في سماء الخريف
أكاد أسقط
ولكنّي عشقت وردة عند جذع الشجرة
عشقت وردة سقتني من حمرتها الطرية
عشقت وردة سقتني من نورها الحالم
تواعَدتُ مع الوردة على أن نقيم حفلا بين الربيع والخريف
حدّثتها بأنّها ستلد منّي سنابل ترقص مع المطر

أنا النجم الحزين!

عشقَت الوردة النجم، ومنْ عشقها تماسك في سقوطه، استغربت السماء المظلمة صموده، ولَم يسقط النجم الحَزين.

ضممت سعاد إلى صدري، ونمت إلى جانبها في السرير الضيّق الذي لاأملك معه إلاّ لعنتي!

في الصباح ذهبنا إلى شاطئ عين الذّئاب، لم يعجبها أيّ مقهى من مقاهيه، ظللنا نتجوّل بمحاذاة البحر، كان الموج متّسخا، والشمس ضاغطة تثير الأعصاب. تحدّثنا عن أنّ هذه المدينة قد لا تلائمنا لما نريده من حياة بسيطة وقناعة. قلت لها:

- إنّك قد تتغيّرين؟

أجابتني:

- لن أتغيّر ياابن الكلب، لو كنت أتغيّر لتزوّجت رجل طنجة، مااللذي يربطني بك غير المحبّة؟

- لم أعد أثق في شيء!

- كلّ هذا الذي فعلتُ ولاتثق، ماذا تريد منّي؟

- أريد أن أضمّك إليّ وأموت فوق صدرك!

ضحكت:

- أمّا أنا فأريد أن أضمّك إليّ وأحيا، أليست الحياة أفضل من الموت؟

- بالتأكيد، ولكنّ الحياة انقلبت ضدّي؟

- لا، أنت الذي تنقلب ضدّها، لقد حارت معك هذه الحياة التي تخافها، لو كانت لديّ القدرة لقطعت رأسك ووضعت مكانها رأسا أخرى، رأسك من حديد!

- نعم، نعم، ولكنّ قلبي كصفحة السماء، ألا تؤمنين بذلك؟

- وأنت، لماذا لاتؤمن بمحبّتي، هل سأخونك أو أتخلّى عنك بعد كلّ هذه السنوات؟

- هذه المرّة سأكون أنا الخائن، أقصد أنّني أقابل خيانة بخيانة!

- تفعلها أيّها الصعلوك، تفعل أكثر منها، ولكنّي مستعدّة لك بما فيه الكفاية، لن يقع أيّ شيء من ذلك، سنحيا حياتنا في توافق تامّ، سترى، لن تحبّك امرأة كما أحببتك.

رجعنا إلى الفندق، كانت حوالتي في التعليم قد بدأت تُصرف، تغذّيت مع سعاد في مطعم أنيق، استرحنا قليلا، وصحبتها معي إلى سمسار وعدني بأنّه سيجد لي شقّة من ثلاث غرف بالقرب من الملعب الشّرفي.

كان السمسار عند وعده، ولكنّ الشقة كانت من غرفتين فقط. سألت سعاد عن رأيها، أجابتني:

- نبدأ في هذه ونبحث في المستقبل عن غيرها. إذا رزقنا سبعة أطفال نسكن في شقّة من سبع غرف، وإذا رزقنا عشرة نسكن في عمارة!

ضحكتُ لتفاؤلها وإقبالها على الحياة، أدّيت للسمسار أجره وثلاثة أشهر من الكراء، أمضيت له التعاقد، ثمّ سلّمني مفتاحا صغيرا ألج به مستقبلي الذي مايزال معلّقا بين السماء والأرض. قضت معي سعاد تسعة أيام في الدّار البيضاء. اشترينا سرير نوم جميل، وطاولة، وأربعة كراس، وخزانة، ثم بعض الآنية. كانت أيّامي القليلة مع سعاد في الدّار البيضاء سعادة اختلستُها من زمني الهارب. عرفت فيها أنّ المحبّة لايمكن أن تموت، وأنّنا نحن الذين نقتلها في كلّ لحظة. في زاوية ما من زوايا أنفسنا المظلمة ابتسامة تشبه ابتسامة الفجر، تحيط بنا أشياء رهيبة تدفن هذه الابتسامة، تقبرها فينا كي نبدو متكسّرين، ولكنّنا حين نستسلم لطمأنينتنا ويُظلّنا الحلم، نصبح كأناس قد ولدوا من جديد، قد ولدوا ولادة الخصب الورديّ، ننبعث كأنّنا دفء الشمس وحبّات المطر، تضحك أجسادنا المقهورة ويعانق كلّ واحد منّا الآخر عناق الفرح.

كانت سعاد في الدّار البيضاء بمثابة فرح أبديّ عشته كي ينتشلني من فزعي ولعنتي. كنت أذهب إلى العمل وأرجع فأجدها تنتظرني بابتسامة عذبة وظلال من المحبّة المطلقة، تحضّر أكلة بسيطة وتنصت إلى أغان حزينة ومتفائلة ثمّ تضمّني فأنسى دُنيا الدّار البيضاء وفضاءها الضاغط. نتحدّث لساعة أو ساعتين، ثمّ نجوب الشوارع وكأنّ العالم قد أصبح ملكا لنا، كأنه موقوف علينا نحن الاثنين، لاعالم بعد الدفء الذي بعثته سعاد في داخلي، أقبّلها وأنسى الحياة والموت، أتلاشى في لحظتي وأقول:

إنّ الله لابدّ أن يكون موجودا، وإنّ باب السماء قد انفتح!

نسيت قهر الغرفة الضيّقة، والسمك الرديء، واصفرار عبد اللطيف وتجهّمه. سألتني سعاد عنه، أجبتها بأنّ علاقتي به تتحدّد في كونها علاقة ماض بماض، لو كان قد ظلّ في جنونه لكان أحسن، أمّا وأنّه على هذا الشكل المتصلّب فإنّهَ يذكرنّي بالموت وبحفّار القبور.

- وماالذي نفّرك منه وهو كما تقول جزء منك لايمكن أن تتخلّى عنه مهما كان التّخلّي؟

- ما أقسى أن نحبّ ونكره في آن واحد. عبد اللطيف أصبح خشبا، وأنا أحبّ فيه روحه الطيّبة وبساطته. لقد أصبح غامضا بالنسبة إليّ، كأنّني لم أعرفه فيما مضى.

- المهمّ، هل استقرّت حاله؟

- لاأظنّ، ربّما هذا الذي يعيشه مجرّد وهم قاتل، ربّما تكون هذه آخر انتفاضة له قبل أن يعلن موته.

- أراك تكرهه؟

- أنا لايمكن أن أكره. كم تمنّيت أن يكون شخصا سويّا؛ الآن انقطع مابيننا، لن أبحث عنه بعد اليوم، سأتركه يتلاشى داخل نفسي، سأنساه مااستطعت.

كدت أنطق باسم ياسمين، أقول مثلا: سأنساه كما نسيت ياسمين، ولكنّي تذكّرت أنّ سعاد هي التي انتشلتني من خيبتي في محبّة كنت أريدها أن تكون أبديّة. محوت اسم ياسمين من شفتيّ، وسألت سعاد:

- هل الله خرافة؟

- لا، لا يمكن أن يكون كذلك!

- ولماذا يصرّ عبد اللطيف على أن يجعله حلما عصابيا؟

- ربّما لم يعرف الطريق إليه؟

- ربّما؟

- دعنا من ذلك، غداً سأسافر إلى طنجة، ماذا ستفعل أنت؟

- سأواصل لعنتي في الدّار البيضاء، سأدرّس الفلسفة وأحلم بك، ماذا ستفعلين مع هذا الذي يخطبك؟

- قلت لك إنّي رفضته، هل تريد أكثر من ذلك؟

- أريدك أنت؟

- عليك إذن بالحوليّ والسكّر، إيّاك أن تنسى الخاطبة، لابدّ أن تكون امرأة عجوزا، أليست هذه هي شروط الزواج الناجح؟

ابتسمت لروحها المرحة وأنا أقول:

- وسأشتري الحنّاء والتمر، وحزمة ورد من البلاستيك حتّى لا يذبل!

- مسخوط، عليك اللعنة.

دعوتها إلى أن نخرج، سرنا مسافة طويلة، كانت أعمدة المصابيح تتكسّر خلف الضباب، وكنت خائفا من أن تنفلت منّي لحظة المحبّة، قلت لسعاد:

- سأتزوجك خلال هذا الصيف.

لم تزد على أن قالت:

- سنرى هذا الزواج اللعين!

ضغطتُ على يدها، وقفنا تحت ظلال أشعّة خافتة مستكينة، سألتها:

- هل ستسكنين في هذا البيت الذي اكتريتُه؟

- سأسكن داخل قلبك، المهمّ أن نبدأ الطريق.

تيقّنت ألاّ قناعة لي بعد سعاد. لايمكن أن أعثر على امرأة أخرى تحبّني بهذا الشكل، سأكون ملعونا حقّا إذا لم أتزوّجها.

رجعنا إلى المنزل. انهمكت سعاد في إتمام لوحة كانت قد شرعت فيها قبل أن نترك الغرفة الذابلة، وانهمكتُ في تتبّع حركاتها الأنيقة. كانت تنظر إليّ بين حين وآخر، وترسم.

رسمت موجة عاتية بين ضفّتين، ثمّ رسمت بإزاء الموجة الرهيبة وردة منفتحة كأنّها تعترض انجراف البحر!

أصابني رعب كبير من لوحتها، لم أكد أنام تلك الليلة، عشت أحلاما متناقضة: كأنّني أسبح وسط البحر لأنتشل الوردة التي رسمتها سعاد، أو كأنّني غلبت على أمري وجرفتني الموجة العاتية لتلقي بي بعيدا عن الوردة وقد تمزّقت ورقاتها الجميلة. كانت سعاد نائمة كطفلة صغيرة، تركت الفراش وأخذت في قراءة (رواية) تتحدّث عن الجنس والمخدّرات والمال والعبث. يتلخّص أمرها في شخص (يحبّ) النساء ويوقع بهنّ ويوقعن به. يركب السيارات والطائرات، يشتغل مخبرا ومقامرا، يحارب الحشيش ويحاربه الحشيش، وفي لحظة موته عثر عليه مشنوقا ومختنقا بالكوكايين. تساءلت: من يوقع بمن في هذا النوع من (الروايات) الرائجة كرواج العَازل الجنسي؟

عدت إلى مكاني، وضعت رأسي بين يدي سعاد، كأنّي أحتمي بها من خوفي وفزعي.

□ □ □

حين وصلتُ إلى طنجة أرسلت لي خصلة صغيرة من شعرها في ظرف بريدي أنيق، ثمّ رسالة تدعوني فيها إلى مزيد من المحبّة والاهتمام بالمستقبل. لم أكن في حاجة إلى هذه الرسالة، فقد سكنَتْ سعاد كياني، ثمّ إنّي وطّنت نفسي بعد ذهابها على أن أقتصد ما أمكن، فأشتري بين حين وآخر بعض ماسنحتاج إليه في حياتنا اليومية.

اشتريت صحونا وكؤوسا وسكاكين وملاعق. وكنت أصرّ على أن يكون كلّ ما أقتنيه من ذلك أنيقا وجميلا، فيه شيء من بساطة سعاد وتفاؤلها.

فكّرت في أنّها لابدّ من أن ترسم. قلت إنّ شرفة البيت الذي اكتريته ملائمة لذلك. كانت الشرفة تطلّ على شارع منعزل هادئ. مصابيحه خافتة، لم يكد يُبنى

فيه سوى عمارتين صغيرتين أو ثلاث. اشتريت زجاجا وقضبان حديد، وطلبت من أحد تلامذتي أن يساعدني في أن نجعل من الشرفة مرسما يليق بزوجتي القادمة من طنجة. أحطنا الجهة التي تطل على الشارع الخافت بزجاج شفّاف، ثمّ وضعنا زجاجا رماديا في جانبي الشرفة، وأوصلنا سلك الكهرباء من داخل الغرفة التي ستتّخذها للجلوس والأصدقاء الذين قد نستقبلهم فيما سيأتي من زمننا البسيط.

اشتريت فرشات كثيرة وألوانا مختلفة يغلب عليها اللون الأخضر. كنت كلّما خطوت خطوة نحو هذا المستقبل المؤكد، أخبر سعاد بذلك فلا تزيد على أن تكتب إليّ:

أنت أكبر صعلوك في الدّنيا
أحبك!

فأبتسم وآخذ خصلة الشعر، أشمّها، أملأ منها صدري وأنام وقد تخلّصت من كلّ هواجسي القديمة.

أليست هذه امرأة خلّصتني من خيبتي وفزعي. ماذا أريد من الدنيا بعدها. لو توقّف الزمن في لحظتي هاته لما أعرت لحياتي أيّ اهتمام. ستكون هذه هي أكبر أمنية أتمنّاها: أن يتوقّف الزمن في لحظة محبّتي! لقد استولى عليّ الخوف من الزمن، فكيف لا أتمنّى أن يدعني في طمأنينتي بامرأة أعادت لحياتي معناها المنفلت؟ ستجلس سعاد في هذه الشرفة وسترسم البحر والورود وعيني طفل حالم بالمستقبل. سأقبّلها في كلّ يوم قبلة الفرح وأحدّثها بأنّ فزعي من الدّنيا قد تبدّد، وأنني قد عثرت على ذاتي اللعينة. سترتدي سعاد كسوة نومها الوردية، وتطبخ طعامي، وتسألني عن التاريخ المختلط بالخرائط، فأنتَشل من ضياعي ورداءتي. سأصيح من فرحتي بها: الآن وجدتها، الآن وجدتها:

هي وردة النجم الحزين
لن يسقط بعد اليوم
سيعانق الشفق ويغيب
في صدر سعاد سيغيب

□ □ □

في عطلة الربيع ذهبت إلى فاس. قصدت منزل جدّتي، أخبرتها بأنّني سأتزوّج سعاد، حاولَتْ أن تزغرد بحلقها المبحوح، ضحك زوجها الضرير وهو يقول:

- القرد الشّارف كيتعلّم الشّطيح.

أجبته :

-لا ، لا ، ليست عجوزا إلى هذا الحدّ، لو لم تكن قد تزوّجَتْك لخطَبْتُ لها شابًا يافعا .

قالت المسكينة :

- الله ياوليدي، مابقى غير الله .

- بعد سنين طويلة، بعد سنين طويلة إن شاء الله، سنخطب سعاد غدا .

- مبارك مسعود، مبارك مسعود .

وزغردت جدّتي!

قلت لزوجها :

- أرأيت، إنّها ماتزال شابّة .

ضحك وهو يقول :

- لو لم تكن شابّة لتزوّجتُ امرأة أخرى une troisième femme .

- ماذا يقول هذا النصراني الأعور؟

- لا يقول شيئا، حضّري لنا كأس شاي .

قامت من مكانها في تثاقل، شكّت إبرتها في المنديل الذي تطرّزه، وذهبت في حركة متفاوتة إلى مطبخها المتقادم كي تحضّر شايا لايمكن أن أشرب أحسن منه ماحييت .

حدّثتها بأنّني قد اكتريت منزلا بجانب الملعب الشرفيّ، وأنّني قد جهّزت لسعاد مرسما من زجاج شفّاف يطلّ على شارع هادئ، واتفقت معها على أن أخطبها في هذا الربيع، وأتزوّجها في بداية الصيف، ثمّ نذهب معا إلى الدّار البيضاء في شهر شتنبر .

- سيكون العرس في داري!

- في دارك إن شاء الله .

قبّلت رأسها، سلّمت على زوجها، ثمّ ذهبت إلى منزلنا أخبر أمّي بما فعلته وبما أنوي فعله .

سألتني أختي :

- من هذه المحظوظة التي ستتزوّج بفيلسوف الزمن؟

- هي التي حدّثتك عنها .

- من فيهما : القديمة أم الجديدة؟

- القديمة؟ القديمة ماتت في قلبي .

- ولكن، الجديد له جدّة والبالي لاتفرّط فيه.
- هي التي فرّطت في كما تعرفين.
- إيوا خويا، حتّى انت قضيتك قضية.
-قضيتي، أنا لاقضية لي.
-ايوا، هو هذا المشكل، خصّك شي قضية وخّا تكون بلا قضية.
- كيف؟
- لست أنا التي ستريك هذه المسائل، أنت أدرى منّي بها، مثلا، ترمي نفسك في البحر، تصعد إلى جبل زلاغ وتسقط منه على ظهرك، هذه مسائل معروفة، أمّا الفلسفة والحبّ والشعر، فإنّها تواش لاقيمة لها، نحن في زمن آخر.
سألتني أمّي عن سعاد، أين تسكن. ما اسم أبيها، ماذا تفعل؟
أجبتها أنّها ترسم، تصوّر اللوحات، فنّانة.
لم تفهم شيئا من ذلك.
شرحت أكثر:
- تستطيع سعاد أن ترسمك بيديها، دون آلة للتصوير!
استحسنت ذلك قائلة:
- بيديها، مزيان، هل تعمل مع الدّولة!
-لا، تعمل مع نفسها!
قالت أختي:
- يقصد أنّها حرّة حرية تامّة!
أجبتها:
-لا، لا، هذا غير ممكن.
خاطبتني أمي:
- المهمّ، هل تحبّك؟
- فوق المحبّة.
- ألا تعرفين أنّ ابنك هو قمر الزمان؟
نهرَتها أمّي قائلة:
- لسانها أكبر منها.
- إيوا جاتني الغيرة، حتّى أنا أريد أن أتزوّج.
أجابتها أمّي:
- ماكاينشي الرّجل اللّي يقبل عليك، معكازة ولسانك طرّاق!
- لا، لا، أختي فتاة طيّبة، هي لاتفعل ذلك إلاّ معي، كلّ ذلك من المحبّة، أليس كذلك؟

- لو كنت ماشي اختك، وكان تزوّجت بك!
- اسكت الله يمسخك، شفتي على عفريت.
- دعيها تتكلّم، يعجبني كلامها، أليست الآن طالبة في الجامعة، يجب أن تتكلّم، أن تقول أيّ شيء، لابدّ أن تعبّر عن وجودها، كلامها جميل.
- قلت لها ذلك، ولكنّها ماتزال تعتقد أنّني صغيرة، الله يخلّيك ويحفضك آخويا العزيز، أنت أعظم أخ في الدّنيا!
سألتني أمي:
- إذن تريد أن نخطبها؟
- نعم، نعم، في عطلة الربيع، ويكون العرس في بداية الصيف.
- السيد مزروب، مكوي، قتله الحبّ!
- اسكتي، هل اتفقتما على ذلك؟
- نعم اتفقنا.
بعد يومين من مجيئي إلى فاس، قدمت سعاد. التقينا، اشترينا خاتما وسوارين، ثمّ التقينا بعد يومين آخرين. أخبرتني أنّ الخطبة ستتأخّر، وذلك لأنّ خالا لها يوجد في المستشفى، فلا يليق بنا الفرح وأمّها حزينة.
قلت لها:
- سنسهر معا في دار جدّتي؟
- سنسهر معا في دار جدّتك!
اشتريت شموع الفرح، وباقة ورد ملوّنة بألوان الجنّة، وفاكهة وحلوى، وفستقا، وأشياء مختلفة كانت تقع عليها عيناي الفرحتان، ثمّ قصدنا منزل جدّتي.
سألتها:
- ماذا سناكل عندك هذه الليلة؟
انتقل إليها فرحي، أجابتني بسرعة:
- شواء وماتريدان.
أجابتها سعاد:
- الشّواء يكفي!
رحّبت بها جدّتي، قام الزوج الضرير من مكانه يريد الخروج قائلا:
- سأشتري الفاكهة.
طلبت منه أن يعود إلى مكانه:
- لدينا مايكفي، لاداعي أن تخرج.

قامت جدّتي، وضعت منديلا مطرّزا فوق طاولة الأكل، حضّرت الشاي، وجلست تحدّث سعاد.

ذهبتُ إلى الغرفة التي أمضيت فيها نصف عمري، جئت بالمزهرية التي أهدتنيها سعاد بعد أن كسّرت مزهريتي القديمة، وضعت فيها الورود، ملأتها بالماء إلى النصف أو أكثر، وأخذت أرتّب المائدة المطرّزة.

المزهرية في الوسط، والفاكهة في صحن كبير من الطين المنمّق، الحلوى المستديرة في صينية صغيرة من المعدن الذي يشبه الفضّة، ثمّ الفستق واللوز وحبّ اليقطين والجبن الأحمر في صحون صغيرة وزّعتها في جوانب المائدة كيفما اتفق.

سألتني جدّتي:

- أين الخاتم والأسورة؟

- في . . . . ، في الجيب الذي يجاور قلبي!

زغردت جدّتي، تلمّست الأسورة، وضعتها في معصم سعاد، أمرتني أن أضع الخاتم في إصبعها، زغردت، بكى زوجها الضرير من شدّة الفرح وهو يردّد:

- أنتَ أحبّ إليّ من عينيّ، أنت أحبّ إليّ من عينيّ!

كان فرح سعاد أكبر من كلّ فرح، رتّبتْ مع جدّتي قضبان الشواء، وضعتْها فوق النار، وزّعتْ خبز القمح الطريّ، وجلسنا ناكل في نهم أنيق.

حضّرت جدّتي شايا آخر، وأخذت تحدّث سعاد عن زواجها الأوّل وعرسها.

أحسّ زوجها الضرير بنوع من الضّيق، خاطبها في سخرية.

- المهمّ، تريدين أن تقولي إنّك كنت جميلة وابنة عائلة كبيرة.

- وما أزال جميلة، ولكنّك أعور.

- نعم، نعم La meilleure femme que j'ai connu.

- الله يقتلك معاهم، آ النصراني.

قلت لها:

- النصارى لايصلّون، ولايحفظون القرآن.

- ولماذا يتكلّم بهذه اللغة التي لا أفهمها. ألم يكن زوجي الأوّل يعرف الفرنسية والإسبانية والأنجليزية. لماذا لم يتكلّم بهذه الألسن؟

أجابها

- لأنّك كنت موكّلاه الساكتة والمسكوتة.

تعالت ضحكاتنا، وجدّتي تقول:

- انت غادي نوكّلك السّم.

طالت سهرتنا إلى مابعد الليل، ثمّ أوصلت سعاد إلى منزلها كي تاخذ حقيبة سفرها وترجع إلى طنجة.

الأسورة في يدها اليمنى، والخاتم في يدها اليسرى، وسيكون عرسنا في الصيف ولو تأخّرت الخطبة.

رجعت إلى الدّار البيضاء، أسهر في شرفة سعاد، وأمضي فيها أكثر أوقاتي، وأقول:

إنّ الدّنيا بدأت تستقيم، ستغدو أجمل ممّا كانت عليه،
ولن تغدر بي هذه المرّة!

سكنت جوارحي وأكثر آلامي، تيّقنت أنّ أبي لم يختنق هباء، وأن التاريخ الذي يحفظه وأدرّسه ليس عبثا أو خرافة.

كانت امتحانات آخر السنة قد اقتربت، طرحت على التلاميذ سؤالا واحدا هذه المرّة.

لماذا تتغيّر الدّنيا من حال إلى حال؟

فكان الجواب جوابا واحدا أيضا:

حين تتغيّر الحال تتغيّر الدّنيا!

فصل في تقطيع المفاصل

جلست في المقهى الرخيص أمام ريجنسي، طلبت عصير برتقال، وأخذت إحدى الجريدتين اللتين تعوّدت قراءتهما من زمن المحبّة البعيدة. في الجريدة عناوين كثيرة، ومن جملتها:

اقرأ هذا الخبر:

عثر في محطّة ابن جدية على جثّة فتاة في حقيبة. وقد حقّقت الشرطة في ذلك، وتبيّن من خلال الخبرة الطبّية، أنّ مفاصل الجثّة مفصولة عن بدنها، وأنّها لفتاة يرجّح أنّها لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها. هذا وإنّ الحقيبة التي وجدت فيها الجثّة والأطراف، كانت ضمن البضائع المهرّبة التي تاتي من شمال المغرب، وقد جاءت بها حافلة سفر قادمة من طنجة.

أصابتني نكسة الفزع، ارتعشت يدي بعصير البرتقال، ألقيت الجريدة فوق الطاولة، نظرت إلى حياة ريجنسي في خوف، وخرجت من المقهى في سرعة. كان النادل يصيح وأنا أجري. سمعت من بعيد شخصا يقول: كلّهم يفعلون ذلك، يشربون ويهربون!

أخذت سيارة أجرة، قلت للسائق:

- محطّة ابن جدية، ابن جدية.

نظر إليّ في استغراب، أكدّتُ كلامي:

-بسرعة من فضلك!

أجابني:

- ازرب تعطل!

لم أردّ عليه. انطويت داخل صمتي، تقلّصت في خوفي، أحسست أنّ جسدي قد فقد وزنه، كأنّ مقعد سيارة الأجرة موجود، وأنا، أنا لاوجود لي، تساءلت عن هويتي، قلت: إنّ الجاذبية التي تحملني قد تبدّدت إلى ما لانهاية.

نزلت، أو أنزلتني سيارة الأجرة، سألت السائق في بلاهة:

- هل وصلنا؟

أشار إلى المحطّة بإصبعه، قلت في صمت:

- نعم، وصلنا.

أعطيته عشرة دراهم، خاطبني في عنف:

- لايكفي، زد خمسة.

وقفت وسط المحطّة، ماذا سأفعل؟

اقتربت من شبّاك طنجة، سألت المكلّف بحجز التذاكر:

- هل حقّا وجدوا جثّة امرأة...

لم أكد أكمل سؤالي حتّى نظر إليّ بعينين فزعتين وهو يقول:

- واش حنا كنقطعوا لوراق ولاّ فالكوميسارية.

استدرت إلى الخلف، رأيت شرطيا ورجلا من القوات المساعدة، أجَلت عينيّ في المحطّة، لمحت رجال شرطة آخرين، وسيارة بيضاء كتب عليها باللون الأحمر: الأمن الوطني.

قلت: كان لابدّ أن تكتب هذه العبارة بالأخضر. ثم أدركت أنّني بدأت أهذي.

ماشأني بالجثث الموجودة والمفقودة؟ هل أنا مدرّس فلسفة أم حارس مقابر؟ ماهذه اللعنة الجديدة التي أصبت بها: اقرأ هذا الخبر، لاتقرأ هذا الخبر؟ أليست الدّنيا أخبارا تقرأ ولا تقرأ؟ لم أنم تلك الليلة، اشتريت جريدة الصباح التي توزّع في الليل، قرأت بقية الخبر:

> تأكد لدى الشرطة أن الجثّة الموجودة في حافلة طنجة، كانت قد خنقت بسلك من النحاس، وأنّه تمّ فصل مفاصلها عن بدنها حتّى لاتتبيّن معالم الجريمة.

جلست في مرسم سعاد، دخّنت حتّى اختنقت رئتاي، في الصباح ذهبت إلى عملي وأنا أحاول أن أتخلّص من الخبر الذي لايعنيني! ماكدت أصل إلى القسم حتّى سألت التلميذ الذي ساعدني في تركيب زجاج الشرفة:

– ما هي العلاقة الممكنة بين النموّ الديمغرافي وتطوّر الجريمة؟

أجابني:

- العلاقة بسيطة يا أستاذ: في النموّ الديمغرافي خطر على الأمن!

أقنعني جوابه، وشرحت لهم درسا عن اقتصاد إيطاليا المتفاوت بين الشّمال والجنوب.

في فترة الاستراحة قرّرت أن أركب إلى طنجة، وألتقي بسعاد، ثمّ أناقش معها خبر الجثّة التي لاتعنيني من قريب ومن بعيد! خرجت من المدرسة، قصدت محطّة ابن جدية وسافرت إلى سعاد. وصلت إلى طنجة في الثانية عشرة ليلا. أسرعت نحو الفندق الذي كنت سأسافر منه إلى الأندلس، دخلت إلى الغرفة رقم اثنين، ولم أنم في تلك الليلة أيضا.

كانت الغرفة رقم اثنين متّسخة، كأنّهم لم يكنسوها، ثمّ إنّها كانت مظلمة، فيها نافذة واحدة لاتطلّ على شيء، ستارة النافذة سوداء فظيعة، وعلى بعد متر أو مترين منها بني سور يحجب الشمس عن كلّ الغرف الواقعة في هذه الجهة. في السقف مصباح صغير منقّط بوسخ الذباب والفراشات المحترقة. وتوجد إلى اليمين طاولة متقادمة فارغة، فيها صندوق شبه مكسّر، فتحته، وجدت فيه جريدة إسبانية تغيّر لونها، كانت صورة فرانكو بزيّه العسكريّ وملامحه القاسية صورة مفزعة، كان يدشّن متحفا وطنيا للنحت. تراءت لي خلف قبّعته امرأة أندلسية عارية الصدر تحمل العلم الإسباني. قلت: إنّ الشخص الذي نحت هذه المرأة مبدع كبير!

حاولت أن أقرأ الجريدة، أتهجّاها لأقتل النوم الذي لم يسعفني، كان المصباح المزعج حاجزا بيني وبين الحروف الإسبانية، ازداد انزعاجي وتوتّري، لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، كأنّ الليل لم يبدأ بعد.

لم أحمل معي من الدّار البيضاء إلى طنجة شيئا سوى محفظتي، هي انتقلت معي في هذه اللعنة الجديدة، فتحتها، كأنّي أريد أن أختبئ فيها من الليل والأرق.

كان فيها كتاب عن الحلاّج، وفرض وجّهته لتلامذتي بقصد تصحيحه ومناقشته.

لم أهتمّ بالكتاب لأنّه لايمكن قراءته في الغرفة رقم اثنين. ولذلك أخذت الفروض كي أتصفّحها وأنظر في الإجابات التي قد تكون مختلفة.

كان السؤال الموجّه متفرّعا إلى مشكلتين اثنتين:

1- ماهي علاقة تطوّر الفلاحة في المغرب بتاريخ الجفاف؟

2- تحدّث عن تاريخ النموّ الاقتصادي في المغرب، في علاقته بالهجرة القروية...

صنّفت الأوراق، أعدت تصنيفها، نظرت فيها مليّا، فكانت الأجوبة على الشكل التالي:

- السؤال الأوّل:

أ- فئة أجابت بأنّ الفلاحة لم تتطوّر في المغرب إذا قسنا هذا التطوّر المزعوم بالنموّ

الديمغرافي. ودليلها على ذلك أنّ الناس كانوا ياكلون فيما مضى أحسن ممّا ياكلون اليوم، ويتمّ ذلك بأثمنة رخيصة يستطيعها الفقراء والأغنياء على حدّ سواء!

ب- فئة اعتبرت الجفاف جفافا حقيقيا يتلخّص في عدم نزول الأمطار، ولذلك فإنّ الذي تطوّر إنّما هو السدود التي تحتكر قطرة المطر، وليس الفلاحة التي يقصد منها إلى الرّخاء وارتفاع البؤس والغلاء!

جـ- فئة ثالثة ترى أن الجفاف المقصود في السؤال جفاف مجازيّ مفاده أنّ الفلاحة تطوّرت، ولكنّ تطوّرها يؤدّي دائما إلى هذا الذي نسمّيه جفافاً، وهو في الأصل احتكار وتنعّم يزيد عن حدوده القصوى في جهة، وجفاف ومحل في جهات!

السؤال الثاني:

اتّفق كلّ التلاميذ على أنّه: لولا توفّر اليد العاملة الرخيصة، والتي لاتستفيد شيئا من عملها، لما تمّ هذا الذي نسمّيه نموّا اقتصاديا!

نظرت إلى المصباح، وجدته مزعجا حقّا، نظرت في ساعتي، كانت تشير إلى الثانية صباحا.

جمعت أوراقي، وضعتها في المحفظة وخرجت. ذهبت إلى الحيّ الذي تقطن فيه سعاد، وقفت أمام منزل أختها. كان الشارع نائما، يغطّ في ظلمته، أصوات الصراصير تتبدّد في الفضاء البعيد. رفعت عينيّ إلى غرفتها، لم يكن أيّ أثر يوحي بأنّها موجودة. اقتربت من الباب، حاولت أن أطرقه، لم أستطع، كنت متخاذلا في محبّتي، أحسست أنّني مختنق في صمت الليل، أردت أن أصيح باسمها، لم تسعفني حنجرتي، كأنّها كانت مبحوحة، التقطت أحجارا صغيرة، أخذت أرميها نحو النافذة، أرميها كيفما اتفق، كنت خائفا، سيطر عليّ اضطراب متمكّن، قلت: سأسقط هنا أو أراها هذه الليلة!

انزويت إلى شجرة أمام المنزل، جلست، ووضعت رأسي فوق ركبتيّ أنتظر الصباح.

مرّت سيارة أولى، وثانية، شعرت بحشرة صغيرة تتسلّق حذائي، أبعدتها، وأخذت أعدّ من واحد إلى ألف، ثمّ أعيد. أصابتني رعشة البرد، ذهب نومي، قمت من مكاني، ظللت أذهب وأرجع من أوّل الشارع إلى آخره ولاأكاد أحوّل عينيّ عن الشرفة وباب المنزل، أحسست بألم في رقبتي، بدأ رأسي يطنّ بأصوات غريبة، كأنّه أخذ يتحوّل إلى قطعة من خشب، لمست جبهتي، شعرت أنّ سائلا رخوا يجري داخلها. قلت: لابدّ أن أتماسك، لن أسقط، سأرى سعاد.

كانت أشعّة الشمس الطالعة كإبر تؤلم عينيّ المحمرّتين، أغمض جفنيّ قليلا، ثمّ أخاف السقوط فأفتحهما، وحين أولي ظهري للأشعة المزعجة، تلتفح رقبتي، فأضع إحدى يديّ فوقها، وأتلمّس ألمي.

لاحظت أنّ شخصا ما قد خرج، ركب سيارة بجانب المنزل، وانطلق بسرعة. جريت وراء السيارة، أشرت بكلتا يديّ، أردت أن ينتبه إليّ، أن أقول له أيّ شيء، استدار نحو اليمين، وتركني. رجعت، اقتربت من الباب، تماسكت قليلا، ضغطت على الجرس، انتظرت قليلا، ثمّ ضغطت مرّة ثانية. سمعت صوت نافذة تنفتح فوق رأسي، أطلّت منها امرأة تقارب الثلاثين، سألتني:

- من؟

تلعثمت، لم أجد أي جواب لسؤالها، تركتها تنظر إلي بعض الوقت، كأنّني كنت أريد أن تعيد سؤالها في شكل آخر:

- صباح الخير، من أنت؟

- أنا، صباح الخير، أبحث عن سعاد؟

- سعاد؟ غير موجودة، ذهبت إلى فاس، من أنت؟

- إلى فاس؟ أنا؟ أنا أستاذ الفلسفة...

- أستاذ؟

- نعم، أستاذ، في الدّار البيضاء؟

- إيه... انتظر.

نزلت إليّ، فتحت الباب، استغربت حالي، سلّمت عليّ.

- ذهبت إلى فاس قبل أربعة أيّام، تفضّل، ألم تخبرك بذلك؟

- لا، لم تخبرني، كنت في الدّار البيضاء!

- إيه، تفضّل...

- هل أنت متيقّنة من أنّها في فاس؟

- لابدّ أن تكون في فاس، لقد أوصلها زوجي إلى المحطّة بسيارته، لماذا تسأل عنها كلّ هذا السؤال؟

ابتسَمَتْ، ظنّت أنّ الأمر يتعلّق بالمحبّة والغيرة. تظاهرتُ بأنّني لم أفهم، قلت في بلاهة:

- إذن سأجدها في فاس؟

ضحكت:

- نعم، ستجدها في فاس، ألا تتفضّل؟

- لا، لا، مرّة أخرى، حين آتي معها.

- إن شاء الله.

سلّمت عليها في حركة مضطربة، وخرجت إلى الشارع الكبير أحاول أن أركب سيارة أجرة.

وصلت إلى الفندق، أخذت محفظتي، أصابني فزع مرعب من الغرفة رقم اثنين، خفت أن أنظر إلى ستارتها السوداء، أدّيت ثمن الليلة التي لم أنمها، وخرجت أجري إلى قطار الساعة التاسعة.

□ □ □

لم أجد سعاد في فاس! هل أنت التي فصلوا مفاصلها عن بدنها أم أنا الذي ذبحوني واقفا ولن أسقط. أرسلوك مقطّعه في حقيبة مهربّة! كان بإمكاني أن ألبسك ثوبا ملائكيا وأرقص معك وسط السماء. كيف عرفوا فيك سرّ الأشياء الجميلة ففصلوك عنّي. هل أرادوا تثبيتي في الزمن الميّت؟ قد أنقَذْتني مَن كلّ شوائبي ولملَمْت أشلائي، وذبحوك! قد ظفروا بي هذه المرّة لأنّك الروح التي انسابت داخل جسميَ الباهت وعبثي وقتلوها قتلة الدّناءة. لن أفعل شيئا بعدك، سألوكُ أسئلتي الحزينة وأسقط في صمتي الذابل، سأعاود لحظاتك الجميلة وأحيا بها. قطّعوا أوصالي وأوصالك ورموا بنا وسط المحطّات. ماذا سأنتظر بعدك؟ هل بعد محبّتك محبّة أخرى؟ أنت أقصى مايمكن أن أومن به في زمن الكفر واللعنة! ماذا بعدك وأنت التي أنقذتني من كلّ أوهامي وتفاهتي؟ سأقيس زمني الآن بالتفاهة، سأسكن عَبثي وصمتي وأترك أشلائي لمهبّ الريح! هذه هي حريتي التافهة في زمن لا لحظة فيه للحرية. قد عاودني خوفي وفزعي وسكنتني رهبة آثمة. كيف أحيا خارج الفزع وقد رأيتك جميلة رائعة ثمّ تُذبَحين؟ في قلبي ستسكنين، لن أتخلّى عنك مهما كانت الغواية. قد اختزلت كلّ عمري فيك، وسأعيش بعمري المقطّع، أنت دمي ومحبّتي، أنت إيماني وكفري، فبماذا أومن بعدك. قد ذبحوك فوق صدري فعاودتني الرهبة التي نسيتها معك. لن أرهب رهبتي بعدك، ماذا سأفعل بتفاهتي، ستنمو داخلي كلّ الأشياء العفنة، ستتناسل وتعبق بالنتانة. كنت صفائي الذي أنشدُه مدى حياتي، فيك عرفت الجسد ونبض القلب، فيك هيّأت للحياة حياة، والآن أتهيّأ للموت. أصبحت قطعة من خشب، لن أعثر على امرأة بعدك، أنت كلّ النساء، بل كلّ النساء أنت. ذبحوا مفاصلك ومفاصلي ورمونا في محطّات البنزين والعربات المتنقّلة.

هل أزعجهم أنّك ترسمين لوحات جميلة كابتسامة الفجر؟ سأحيا في الشرفة الزجاجية، سأعبد لوحاتك وأنتظر باب السماء أن تنفتح! قد قتلوك ولن يقتلوا محبّتي، لن يذبحوا قلبيَ، سأموت من محبّتك، لن أموت في تفاهتي، سأرسم ابتسامتَك بين عينيّ، وأسافر في الدّنيا محمّلا بفزعي وأقول: إنّني أحببت امرأة انفتحت عنها باب السماء وذبحوها، سأصنع من روحها تمثالا من عبير الفجر، لن يدنّسوا دمها، سترقص لوحاتها بين أبواب المدن ودروبها العتيقة، لن تقتل في المحطّات، سينبعث من كلّ لوحة فجر جديد وسنبلة، ستَنبُتُ الورود في فضاءاتها، سأسقيها من كياني، سأصنع منها قوس غمام يطوّق عنقي. هذه امرأة وجدت فيها ذاتي وفصلوها عنّي، ليتهم فصلوا ذاتي عن ذاتي وتركوني في تفاهتي، سأتبلّد وأحيا في صمت دنيء وأسكت. أمّا وقد ذبحوها ذبح اللعنة فإنّي قد تقطّعت في احتراقي.
هل سأواصل الطريق بمفاصل مقطوعة؟ ماذا سيحدث بعد هذا الذي حدث؟ لن أحبّ بعد اليوم أو أكره، قد أصبحت ذاتي خارج ذاتي، وانهارت داخلي كلّ الأشياء الجميلة. لاسفر بعد اليوم، سأجلس أمام ريجنسي، وأقول:
ماذا ستفعل حياة ريجينسي بابن خلدون؟ لاحاجة بها إليه، لاحاجَة بها إليه!

خاتـم قلبـي

حين تيقّنت من أنّ الخبر الذي ورد في الجريدتين اللتين تعودّت قراءتهما في أوّل شبابي خبر يعنيني ويقتل عشقي الأخير، ذهبت إلى الفندق الرخيص الذي قضيت فيه ماينآهز سنة دراسية وعطلة صيفية، أخبرت صاحبه أنّني رحلت، وأنّني ربّما أعود إلى غرفة الفئران، وأنّ لي صديقا قديما سيبحث عنّي. فإذا وجدني راحلا أعطيتَه من فضلك هذا العنوان، وإذا وجدني ساكنا عندكم فلا حاجة بكم لذلك.

كان صاحب الفندق قد تعوّد استغرابي، ولذلك فإنّه لم يستغرب لحالي هذه المرّة.

سألني :

- أين تسكن الآن؟

أجبته :

- بالقرب من الملعب الشرفي، أقصد ملعب محمّد الخامس!

تظاهر بأنه قد فهم، والحقيقة أنّه لم يفهم ممّا أقول شيئا.

خاطبني :

- هل سوّيت كلّ حسابك؟

- نعم، سوّيته.

- تركتَ لدينا صندوقين، فيهما بعض كتبك، هل ستاخذها؟

- لا حاجة بي إليها، هل تحتفظون بها؟

- ماذا سنفعل بها، احْنا اقْرينا وسَالينا!

وضحك.

- سأرجع لآخذها غدا.

سلّمت عليه بحركة مهذّبة. وابتسمت ابتسامة حزينة تنبىء بموت قلبي، ثمّ انصرفت.

كنت أحسّ أنّ شبحا ما يطاردني، يتقدّمني أحيانا، يقطع طريقي، يخنقني داخل صدري، يسير عن يميني، يلفّني، يتحوّل جهة اليسار، يسير خلفي. لعلّه شبح سعاد، عرفني وحيدا في الدّار البيضاء فامتزج بخطواتي المهزومة. هل كتب عليّ أن أحيا مع الأشباح؟ ماذا فعلت في الدنيا حتّى أعيش كلّ هذه الغربة؟

أليس كلّ ذنبي أنّني مزجت التاريخ بهذا العلم البئيس الذي يسمونه الجغرافية؟ لَيْتَهُم سموّها الجغرافانية فاختلطت من ذاتها وأراحوني. أليس ابن خلدون هو الذي علّمني هذا التمازج الرائع؟ فهل يتّهمون ابن خلدون أيضا؟

يطاردني الشبح وأنا أفكّر: هل يريد منّي أن أنتقم؟ أن آخذ بثأري وثأره؟ ممّن؟ ربّما أكون مسؤولا عن مقتل سعاد من حيث لاأدري؟ لماذا شجّعتها على أن تدرس الرّسم؟ ألم يكن بالإمكان أن تقتصر على قراءة المجلاّت الملوّنة وتحيا في سكينة؟ لماذا جعلتها تغامر بحياتها؟

يختفي الشبح ويظهر، لاأدري هل يفارقني أم يسكن داخلي، أصبح جزءا منّي. كأنّني أنا الذي قُتلتُ وأصبحتُ شبحا يطلب أن يثأر للشبح. صرت وسط الدّار البيضاء مطارداَ، كأنّ جزءا منّي يريد أن يدمّر جزءا. انبعثت سعاد من كياني، تريدني أن أحبّها ميّتة مقطّعة مفصولة. لا، سعاد لم تمت، في شرفتها سينبعث كلّ شيء، في شرفتها ستحيا كلّ المعاني الرائعة.

جلست في المقهى الرخيص، شربت قهوة سوداء، وقلت: في هذا الموسم سأفصل التاريخ عن الجغرافية وأنظر إلى ماذا ستؤول الأمور. ستؤول لاشكّ إلى ما كانت عليه قبل أن تبدأ رحلة عشقي وموتي. هكذا أنا أبدأ وأنتهي لأبدأ. ولكنّني في هذه المرّة لن أحبّ ولن أكره، سأصبح كشيء يتحرك دون معنى، لن أخاف عبثي بعد اليوم، سأجعل من الأشباح أناسا وأصدقاء أسكن إليهم ويسكنون إليّ، ثمّ أمضي: لا رأيت ولاسمعت ولا ذُبحتْ محبّتي مرتين. سيكون كلّ شيء على مايرام في الوقت الذي لا يرام فيه إلاّ هذا الشبح الذي أصبح عزيزا عليّ، يطالب بثأري وثأره ويسكنني وأسكنه. وماذا سأفعل بالدّنيا في وقت فقدت فيه الدّنيا. ماشأني أنا بالأسلعة المهرّبة؟ لماذا يكتب عليّ أن أذبح وسطها؟ هل أنا الذي هرّبتها حتّى تحكم عليّ هذا الحكم القاتل؟ بعد وقت قصير سيقولون: إنّك أنت الذي ذبحت سعاد. . . .

ماكادت هذه الجملة الأخيرة تدور في رأسي حتّى وقف أمامي شخصان اثنان. الأوّل على يمين الطاولة والثاني في يسارها. واحد منهما بدين كأنّه خرتيت أوديك روميّ، والثاني طويل القامة نحيف.

سألني الأوّل، وكانت رائحة الخمر تفوح من جسده:

- أنت عمر؟
- نعم أنا عمر.
- أنت الذي كنت تسكن في فندق بباب مرّاكش؟
- نعم.
- هذه صورتك؟
- نعم صورتي كما ترى!
تكلّم النحيف:
- يسخر منّا، يظنّ أنّنا لانرى ونسمع!
- هيّا، قم!
- إلى أين؟
- إلى حيث سترى!
- إلى أين؟
- عند أمّك، قم أو سنجرّك!
- من أنتما؟
- نحن من نحن، هذا لايهمّك، عندنا أمر بالقبض عليك!
حين سمعت كلمة القبض، قمت من مكاني في صمت، واستسلمت لأنّني لاأملك غير الاستسلام.
انتبه إليّ شخص كان يجلس بجانبي وينصت، لم يعرني بعد أن سمع القبض أيّ اهتمام، انشغل عنّي بشرب الكوكاكولا. حملوني في سيارة سوداء، ذهبوا بي بعيدا، أدخلوني إلى غرفة مظلمة. مرّ يوم أو يومان. أخرجوني، وجدت شخصين لم يسبق لي أن رأيتهما.
كان خاتم سعاد بيد أحدهما وأسورتها بيد الثاني.
- هل تعرف هذا الخاتم؟
- نعم هو خاتم قلبي!
صفعني الثاني قائلا:
- تكلّم بلغة واضحة، هل تعرف هذه الأسورة؟
- نعم هي أسورة محبّتي!
صفعني الأوّل:
- نريد إجابات صحيحة!
- قد أجبتكما!
- من هي المرأة التي كانت تضع هذا الخاتم في إصبعها؟

- هي سعاد، امرأة أردت أن أتزوجها!
- وماذا فعلت بها حين رفضت ذلك؟
- لم أفعل بها شيئا، وجدتها مقطّعة في حافلة السفر . . .
- وداخل حقيبة؟ أليس كذلك؟
- نعم داخل حقيبة . . .
- ومن الذي قطّعها؟
- لاأدري!
- كلّكم هكذا، ترتكبون الجرائم الكبرى وتدّعون أنّكم ملائكة! أنت الذي ذبحتها!
- كيف؟
- هذا مانسأل عنه، أمّا الذبح فثابت بالنسبة إليك.
- أحبّها حتّى الموت وأذبحها؟
ضحكا معا، ولكمني الذي يوجد الى اليمين:
- كلّكم تحبّون، كلكم تموتون حبّا، هل تعرف أنّ المحبّة تقتل؟
- إذن ماذا تريدون منّا، أن نكره؟
- هذا لايهمّ، المهمّ أن تذكر لنا أداة الجريمة ومكانها!
- والطريقة التي تمّت بها!
- لستُ مجرما، ولايمكن أن أكون كذلك.
- ربّما نكون نحن المجرمين؟
- هذا لايهمّني!
- لايهمّك، انتظر، سترى، سنخرج منك الزيت الأسود.
رجعت إلى الغرفة المظلمة، قضيت فيها مايفوق أربعة أيّام، وخرجت إلى [الحوار].
كان الحوار شفّافا هذه المرّة:
- بما أنّك صاحب الأسورة والخاتم، وبما أنّك صاحب سعاد، وبما أنّك كنت في طنجة، إذن فالجريمة ثابتة وأنت مرتكبها، حذار من أن تنكر ذلك، لأنّ جزاء النكران النكران، اذهب إلى منزلك، وسنحقّق معك في الوقت الذي سنحتاجك فيه.
خرجت إلى عالم لاأكاد أعرفه. أنا في الدّار البيضاء ولست فيها، ماهذه المنطقة، عربات، حيوانات، مساكن كثيرة متلاصقة ومتّسخة، حافلات من العهد القديم، نساء ورجال يتصايحون، مطاعم صغيرة رديئة الشكل، أطفال يجرون في كلّ الجهات، اصطدمت بامرأة ترتدي جلبابا أصفر، اعتذرت لها، وواصلت طريقي

في خوف رهيب، رأيت حافلة تحمل رقم 13 واقفة بالقرب من مزبلة، ركبتها، تذكرت أنّني لاأملك ثمن الركوب، اقتربت من الجابي، سألته:

- إلى أين ستذهبون؟

- إلى المدينة!

أيّ مدينة هذه التي سأذهب إليها، أنا لاأعرف أين أوجد.

- هل من الممكن أن لا أؤدي ثمن الرّكوب؟

اندهش، رمقني بنظرة ساخرة، ثمّ احتقرني لأنّ ثيابي كانت رثّة وعينيّ محمرّتين كقطعة رئة.

سمعني رجل من الخلف، قال له:

- قَطِّع جُوج!

- شكرا.

جلست إلى جانبه، سألته؟

- أين نحن؟

- في الدّنيا!

- أقصد في أيّ مدينة؟

- انْتَ برّاني؟

- لا أدري، هل نحن في الدّار البيضاء؟

- لا، نحن في سطات.

ضحك الجابي!

فهمت أنّهما يسخران منّي، سكتّ، أخذت أنتبه إلى الطريق، رأيت أنّها منحدرة صاعدة ملتوية.

في الجغرافية التي خلطتها بالتاريخ أنّ الدّار البيضاء وما جاورها سهول وحقول من الزرع وأرض مستوية، فأين أوجد؟

بدأت أتعرّف على معالم المدينة، رأيت كنيسة تلوح عن بعد، ثمّ مئذنة، رأيت البحر، أنا إذن في طنجة. قلت للرّجل الذي بجانبي:

- نحن في طنجة!

ضحك، وضحك معه الجابي، قال الرجل:

- انْت مطورً، والله ايلا عْرفْتيها...

اضطربت بشكل غريب، احمرّت وجنتاي، وضعت يدي في جيبي، وجدت ورقة نقدية، أخرجتها: عشرة دراهم!

- خذ ثمن الرّكوب.

- قلتَ إنّك لاتملك مالا .
- ظننت ذلك ، خذ!
تناول الورقة ، وضعها في جيبه وسكت .
- كم ثمن الركوب؟
- عشرة دراهم ، أليس كذلك؟
أجابه الجابي :
- عشرة دراهم .
لم أجد بدّاً من أن أصمت صمتا رهيبا ، إذا تكلّمت فسأصفع الذي بجانبي وأبصق في وجه الذي أمامي داخل هذا الشباك الحقير ، سيفعلان الشيء نفسه ، ربّما يضاف إليهم أشخاص آخرون ، سأفقد إرادتي إلى مالانهاية ، سأتّهم بالجنون ، عليّ أن أصمت ، في كلامي لعنة أبدية ، لن أتكلّم بعد اليوم ، وكيف سأدرّس التاريخ المفصول عن الجغرافية؟ سأدرّسه بحركاتي ، أليست الحركات لغة كسائر اللغات؟ ربّما تكون أخطر!
وصلنا إلى المحطّة ، وجدت نفسي في السوق الخارجيّ ، أي (السوق دَبرًا) . إنّني في طنجة ، تأكدت من هذا الأمر ، وقرّرت أن أبحث عن سعاد ولو كانت ميّتة مقطّعة مفصولة .
ذهبتُ إلى منزل أختها ، قالوا إنّها رحلت ، إلى أين؟ إلى فاس! هل كتب عليّ التلف بين المدن؟ أين سأجدها في فاس؟
لعنت الشيطان الذي أوهمني أنّ سعاد ماتزال حيّة ، آلمني الجوع ، تذكّرت أنّني لا أملك إلاّ العشرة دراهم التي أخذها منّي صاحب التذكرة ، قصدت (السوق الدّاخل) ، كان لي فيه شخص أعرفه في فاس القديمة ، ذهبت إليه في حانوته الصغيرة ، كان يبيع الأحْذية ، سلّمت عليه ، نظر إليّ في نوع من التساؤل والإشفاق :
- هل بإمكانك أن تعطيني مائة درهم حتّى أعود إلى طنجة في المرّة القادمة!
- وأين أنت اليوم؟ ألم تزل في فاس؟
- لا ، أنا في الدّار البيضاء .
- ماذا تفعل هناك؟
- أستاذ ، أدرّس الفلسفة!
- الفلسفة؟
دعاني إلى أن أجلس فوق كرسيّ بباب الحانوت ، وأخذ يشكو حاله :
- نحن في طنجة لا حركة عندنا داخل العام ، ترانا ننتظر الصيف لنعيش به كلّ السنة ، انظر أمامك ، الحركة واقفة . . .

تركته يحكي جدبه وجفاف وأيّامه. قمت من مكاني، نزلت إلى الشاطىء، كانت شمس ذلك اليوم دافئة، سرت فوق الرمل بملابسي، لم يكن موسم السباحة قد بدأ، كان البحر هادئا، وجدت بعض السواح قد استلقوا في الرمل، ذهبت إلى المكان الذي كنت أجلس فيه مع سعاد، استلقيت على قفاي، نظرت إلى السماء، تراءت لي سحابة بيضاء تشبه ناقة أو جبلا منحنيا، أصابني ألم في يدي، لمستها، نظرت في ساعتي، وجدتها متوقّفة:

- سأبيعها!

حرّكت يدي قليلا، شغّلت الساعة، بعتها، أكلت فولا مطحونا، حمدت الله، وركبت القطار في أدنى درجاته. وصلت إلى فاس، أسرعت خطاي المضطربة، قصدت منزل جدّتي، ما كدت أقبّل رأسها حتّى أجهشتُ في البكاء.

- قتلوها ياجدّتي، ذبحوها أمامي عينيّ، ذبحوا سعاد. أخذَتْ إليها رأسي، وضعتْه فوق صدرها، ضمّتني إليها، وهي تقرأ القرآن بصوت عال.

بكى زوجها الضرير، كانت عيناه تذرفان دمعا صادقا، اطمأنّت نفسي، اتّجه ألمي إلى العمق، قمت من مكاني، غسلت وجهي، مسحته، كانت رائحة المنديل طيّبة كأنّها رائحة الجنّة.

- أين ثيابك؟ حقيبتك؟

- لم أحمل معي شيئا!

- ومن أين أتيت؟

- من طنجة، كنتُ في طنجة!

- وسعاد؟

- ذبحوها، وضعوها في حقيبة، وأرسلوها مع السّلع المهرّبة!

- إلى أين ؟

- إلى الدّار البيضاء!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ، قُوم، قوم آوليدي بدّل عليك هاد لحوايج...

قامت من مكانها في تثاقل، اتكأت إلى الأرض قليلا، أخذت مفتاحا صغيرا من فوق الدّولاب، أعطتني قميصا أبيض وجلبابا، ثمّ منديلا من القطن الطّريّ.

- قم لتستحمّ، وسأحضّر لك عشاء فخما.

ذهبت إلى حمّام المولى إدريس، كان الماء دافئا ينساب فوق جسمي المتعب كرحمة أبديّة، حركة الناس هي هي، لم تتغيّر في شيء، القِباب أصبحت من البلاستيك، كانت فيما مضى من الخشب، سألني الطّياب:

- هل أحكّ ظهرك؟
- لا، شكرا، املأ لي بعض الماء.
حمل إليّ سطلين أو ثلاثة وتحوّل عنّي إلى شخص آخر.
ظللت أصبّ الماء الدافئ فوق كتفيّ، شعرت بطمأنينة غريبة، كأنّني أرمّم جسمي، هل تهاويت إلى هذا الحدّ؟ أليست الطريق أمامي لأبحث عن شيء معيّن في هذا العالم الفسيح؟ نعم قد قتلوها، فلأستمرّ، لأكن في محبّتها ولوحاتها الجميلة.
اغتسلت، توضّأت، وخرجت إلى (الجلسة) أرتاح قليلا وأمسح جسمي الدّافئ.
وجدت جدّتي نائمة، زوجها ينتظرني، وطاولة صغيرة مرتّبة ومغطّاة بمنديل أنيق في ركن من الغرفة التي كانت تضمّني في أيّام الصبا الرائعة.
أكلت في نهم، غسلت فمي، ونمت كمن لم ير النوم في حياته!
في الصباح، ذهبت إلى منزلنا المتقادم، وجدت أمّي في حال من الوحدة التي أخذت تسيطر عليها بعد موت أبي. لم تسخر منّي أختي هذه المرّة، أصبحت تدرك أنّ ألمي أكبر منّي، نظرت إليّ في حزن صامت، ثمّ خاطبتني:
- أنا التي سَتَبْحَثُ لك عن المحبّة في هذا الزمن!
- لم يعد قلبي يحتمل ذلك، أصبحت فارغا من كلّ العواطف الجميلة.
- زمن لعين.
- نعم زمن لعين.
- أين دفنوا سعاد؟
- لا أدري، لم أرها بعد ليلة فرحي بها، وضعَتْ خاتم قلبي في إصبعها، ثمّ قتلوها!
- هل أنت متأكّد ممّا تقول؟
- الآن يتهمونني بجريمتهم!
- غير ممكن؟
- جاؤوا إليّ في الدّار البيضاء، وحملوني إلى طنجة، ثمّ تركوني هناك متّهما بالقتل؟
- أنت لا يمكن أن تقتل؟
- من سيقنعهم بذلك؟
- سيقنعهم؟ أنت الذي ستقنعهم!
- كيف؟
- بصمودك، بأن تظلّ في مكانك الذي تعوّدته!

- إنّني الآن لا أستطيع أن أصمد، أنا منهار، لقد اقتربت نهايتي.
-لا، لايمكن، ستعيش مائة سنة.
أرادت أن تضحك، ولكنّها لاحظت عبوسي وتجهّمي، فأردفت:
- لابدّ من أن تصمد، ليس لك أيّ اختيار آخر.
- سأختار انهياري هذه المرّة، سأختار نهايتي!
- أراك متشائما أكثر من اللازم؟
- وماذا تتوقّعين منّي غير التشاؤم؟ قد مات الفرح في قلبي، هل سأجد محبّة جديدة أعيش من أجلها؟ لن أجد شيئا، لن أجد شيئا.
- وعملك؟
- عملي؟ ليس على ماأريده، أنا أريد التاريخ والجغرافية، وأنت ترين أنّهما مفصولان.
خاطبتني أمّي:
- اتقّ الله ياولدي، اتّق الله..
توجّهت بالكلام لأختي:
- قد اتّقيته، هيّئي لنا كأس قهوة.
شربت كأس القهوة، وشددت الرّحال نحو الدّارالبيضاء. جلست في شرفة سعاد، أخذت فرشاتها وصباغتها ورسمت ثلاث نساء: واحدة منهن ملفّعة بالسواد، والثانية بجلباب مغربيّ أزرق، وبينهما رسمت واحدة عارية جميلة كأنّها نزلت من السماء.
رنّ جرس الباب، تركت مرسم محبّتي وفتحت. وجدت عبد اللطيف أمامي بعين واحدة.
تشاءمت من مشهده، دعوته إلى أن يدخل، جلسنا معا وسط الغرفة الصغيرة، سألته:
- ماذا وقع؟
- "قل لن يصيبنا إلاّ ماكتب الله لنا".
- صحيح، ولكن كيف ذهبت عينك؟
- أصابني مرض عضال، ربّما ستذهب عيني الثانية!
فهمت أنّ زمنا أعور بدأ يصيبنا في أعيننا، وسألته:
- وهل ذهبت إلى الطبيب؟
- نعم، ولكنّه لم يفهم شيئا، وأنت، كيف حالك، الآن أحسن من ذي قبل؟
- نعم، أحسن، أحسن...

- وزوجتك، أين هي؟
- زوجتي؟ أنا لم أتزوّج بعد.
- والمرأة التي كانت معك؟
- سعاد؟ إيه، هذه ليست زوجتي، هذه امرأة أحببتها وسأظلّ أحبّها.
- هذا حرام!
- إنّها ماتت.
- ماتت؟ كيف؟ متى؟
- ماتت كما يموت الناس، قتلت في محطّة المسافرين.
- قتلت؟
- نعم، ذبحوها!
- ذبحوها؟
- وفصلوا مفاصلها عن بدنها!
- لاحول ولاقوّة إلاّ بالله.
- واتّهموني بقتلها!
- غير ممكن، هذا حمق، جنون، غير معقول.
- هذا هو الواقع، مارأيك؟
- رأيي، هؤلاء، كفّار، شياطين، جزاؤهم جهنّم.
- جهنّم، إيه... كيف حال أخيك؟
- لم أره من خمس سنوات.
- وماذا يفعل الآن؟
- لاأدري، ربّما سيبيع قبر أمّه ليبني فوقه عمارة.
- سيفعل ذلك، سيفعله.
ضحك عبد اللطيف، وضحكت:
- وأين سنُدفَن؟
- عند الله، عند الله. قل لي: كيف اتّهموك بهذه المرأة؟
- وجدوا خاتمي وأسورتي في يدها... أطلقوني، وسيعودون إليّ، إنّني أنتظرهم في كلّ لحظة، سيقولون هذه المرّة إنّهم وجدوا قلبي عندها. لن يتركوني لحزني، لاحقّ لنا حتّى في أن نحزن، الحزن شيء مرفوض في إطار القانون، لابدّ من أن تفرح ببؤسك، أن تنتشي بمأساتك، أنت متّهم إن لم تفعل ذلك.
ينظر إليّ عبد اللطيف، ويكاد لايصدّق، ولكنّه يتذكّر بين لحظة وأخرى حمقه وأخاه وجنونه فيصدّقني فيما أقول. قمت من مكاني، حضّرت كأس شاي وجلست

إلى عبد اللطيف نتحدّث عن ماضينا البعيد ونضحك. حدّثته عن خطبته الخرساء وعن صياحه في مدينة فاس: أيّها الناس اسمعوا عو... وعوا.... عو.... وعن خمر الرئيس؛ فيضحك عبد اللطيف ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ويحدثني عن المولى إدريس وعن ليلتنا في (مدرسة) النجارين، وعن (الجّامعية)، فأضحك... ونشرب الشاي.

قضى عندي الليل، صلّى العشاء، وصلّى الفجر، وخرج ليركب قطار السادسة صباحا إلى مرّاكش.

استيقظت في الساعة العاشرة، وجدت فوق الطاولة رسالة مختصرة يدعوني فيها عبد اللطيف إلى زيارة مرّاكش. دخلت إلى شرفة سعاد، ورسمت رجلا أعور. لم أجد أيّ شبه بينه وبين زوج جدّتي الذي كانت له عينان جميلتان وأصبح ضريرا. تشاءمت من الصورة، ونظرت إلى (سقاية النجّارين) التي رسمتها سعاد في مباراة التخرّج من المعهد. لاحظت أنّها رسمت الباب التي كانت بجانب السقاية إلى النصف، كيف حدست سعاد أنّ المدرسة تحوّلت إلى مركز للشرطة؟ لماذا رسمت نصف الباب دون النصف الآخر؟ هل تشوّهت الباب إلى هذا الحدّ الذي انقسمت معه إلى قسمين، أحدهما ظاهر والآخر خفيّ؟ ربّما تكون لهذا الحدس قد قتلت؟ بل ربّما كان لها حدس آخر قد قتلوه فيها؟ اتّهموني أنا إذن حتّى يتهموا هذا الحدس الرائع؟ لايهمّ، لايهمّ، لابدّ أن أجلس في هذه الشرفة وأنتظر.

تراءى لي شبحها يرقص بين مصابيح الشارع الذي أطلّ عليه، كان جمالها يتسامى حين ترقص سعاد، ترى حركتها متموّجة مع خصلات شعرها المنسرح، وحين تضمّك تضمّك الدنيا، حين تشملك بذراعيها ويديها تكاد توقفك عن أن تسمع، تصبح وحدها نغمات منسجمة ومتناسقة، تجد فيها مقطوعة شعرية تسبح بك في الفضاء الرحب، سعاد رؤيا وحلم للاستكانة والفرح. الآن سافر عبد اللطيف إلى مراكش وتركني وحدي أبحث داخل ذاتي عن محبّة واحدة أقتنع بها كي أواصل هذه الحياة التي لاتريد أن تواصلني. هل هي الحياة احتارت معي أم أنا الذي احترت معها؟ ألست واهما في كلّ ماعشته؟ أليست الدّنيا هي الواهمة؟ ماالذي انقطع بيني وبين الأيام حتّى أصير إلى التفاهة باستمرار؟ هل أنا الذي أستحق أن أحيا أم أنّ الزمن هو الذي لايستحق أن أعيشه في انسجام وطمأنينة؟ قد عفت الدّنيا وعافتني فلماذا هذا الإصرار على العيش في كراهية؟

الأمر كلّ الأمر أن أسقط من هذه الشرفة فأعيش الراحة الكبرى. أليس كلّ شيء يؤول إلى الموت؟ المهمّ بالنسبة إليّ أن تكون نهايتي في محبّتي، سأواصل هذا الاختيار الذي كتب عليّ، والبقية لاتهمّ.

تأملت صور النساء التي رسمتُها، أعجبتني المرأة العارية، كأنّها سعاد تماما.
يبدو أنّها قد سكنتني إلى ما لانهاية، لن أتخلّص منها أبدا، ثمّ إنّه لا رغبة لي في أن أتناسى امرأة امتزجت بدمائي، أنا مفتون بها في الحياة والموت، سأحبّها من جديد، وسيملأ شبحها عليّ كياني، ثمّ أستمرّ في هذا الاختيار الصعب الذي يجعلني لا أنا من المُدِّ ولا أنا من قاعه. كلّ شيء يهون إزاء محبّة سعاد، كلّ شيء يهون.

عدت إلى التدخين بكثرة بعد ماكدت أقلع عنه أيام فرحي بسعاد، بل راودتني فكرة السّكر مرّات متعدّدة، وسكرت، أردت أن أقتل محبّتي في الخمر، كانت الدّنيا مليئة بالبرد والمطر، وكنت مليئا بشقائي، لم أستطع أن أتخلّص من بؤسي الذي سكنني وسكنته، لبست حزني ودخلت إلى حانة رديئة، رأيت قنّينات الخمر أمامي حمراء وصفراء قد تتحوّل إلى بيضاء وبرتقالية وسوداء، شربت من كلّ لون، تقيّأت، وخرجت إلى الشارع مرّة أصيح ومرّة أهمس: أيّها النّاس إنّ كلّ الألوان قد صارت إلى كلّ الألوان، الخمر واحدة والشرب واحد فأين باب الوفاء، أيّها الناس قد ذُبح قلبي فكيف أعيش. ظللت أردّد هذه الكلمات، أجوب الشوارع والدروب، وأنا أَصيح وأهمس وأتقيأ، وصلت إلى منزلي، استلقيت فوق السرير، وقضيت الليل بملابسي وحذائي.

لم أدر كم ساعة نمت، سمعت جرس الباب، فتحت، وجدت أختي، ضممتها إلى صدريَ وأخذت أبكي، بكت معي، شملنا بعض الصمت، قالت في إصرار:

- ستتزوّج، سأزوّجك، وستعيش في سلام وانتهى الأمر.
- كيف حال أمّي؟
- بخير، مريضة وتسأل عنك، قلت لك ستتزوّج؟
- نعم، إن شاء الله!
- إنّك تنتحر؟
- لا، لا أنتحر، بل أعيش انتحاري!
- عدت إلى كلامك الغامض، هل نمت بحذائك؟ قم، قم، آ السكايري الخانز!

ما أروعها حين تسخر منّي، كأنّ ابتسامتها أمل سيشعّ في مكان ما من أيامي المتوقّعة.

- إلى أين سنذهب؟
- سنجلس في مقهى جميل ونتحدّث في كلّ شيء.

ذهبنا إلى شاطئ عين (الذّئاب)، وجلسنا في مقهى الأفق. جاء النادل، طلبت أختي كأس برتقال، وطلبت قهوة سوداء. كان كأس البرتقال فيما يبدو شهيّا؛ ولكن كأس القهوة ينقصه شيء معيّن. صحت في النادل:

- ماهذه القهوة؟

- مالها؟ آش خاصّها؟

فكّرت في المسألة فلم أكد أجد جوابا، ثمّ لاأدري كيف ضحكت ضحكة عالية أثارت انتباه الناس، وأنا أقول:

- هذه فاترة، لاحارّة ولاباردة!

ضحكت أختي، ضحك الناس، والنادل أيضا ضحك؛ شربت القهوة، ونسيت أختي والعالم من حولي، نظرت إلى الأفق البعيد، لم تسعني أشعة الشمس المنعكسة في ضعف واستكانة فوق صفحة الماء الأزرق، كان موج البحر يستلقي على صخور الشاطئ في وهن واسترخاء، وكنت أحلم بالماضي الذي استولى عليّ من كلّ جانب، تراءت لي صورة سعاد، كانت عارية تماما، تسبح وسط الموج، تداعبه، تاخذ بكفيّها حفنة ماء وتلقيها على شعرها ونهديها، تستلقي على ظهرها، تنظر إلى السماء، ثمّ تعود لتغرق وتطفو كأنّها سمكة بيضاء تسبح في أحواض الجنّة. ماذا يضير لو سبحتُ معها؟ هل أستطيع أن أنزع ثيابي وأتعرى كما فعلت سعاد؟ لقد كانت أكثر منّي جرأة وشجاعة! لماذا تركتها تواجه وحدها مصيرنا المؤلم؟ يبدو أنّني جبان أكثر ممّا أتصوّر؟ لماذا أخلص في محبّتها ولا أخلص لمصيرها؟ كان عليّ أن أمزّق معها حتّى آخر رمق؟

وقف عند رأسي شخصان اثنان، لم يسبق لي أن رأيتهما. قال لي أحدهما:

- هل أنت صاحب سعاد؟

نظرت إليه أختي، سألها:

- وأنت ماذا تفعلين معه هنا؟

أجبته:

- هذه أختي!

- آه، أختك... قد يكون ذلك... ورقة التعريف...

أجابته:

تركتها في حقيبتي، لم أتعوّد أن أحمل معي بطاقة التعريف....

- هذا شأنك، كيف نعرف نحن أنّك أخته؟

وجّهتُ إليه الكلام:

- والحلّ؟

- الحلّ أن تذهبا معنا، نحن شرطة الأخلاق...

- جميل، لم أكن أعرف أنّ للأخلاق شرطة، الأولى أن تسمّى شرطة انعدام الأخلاق.

ضحكت أختي، صفعها صاحبه، استنكر الناس ذلك، قمت من مقعدي، فهمت أنّني جبان، بكت أختي، وذهبنا مع شرطة الأخلاق إلى سراديبهم المظلمة. أطلقوا سراح أختي واحْتفظوا بي مدّة طويلة نسيت معها أين كنت، ولماذا جئت، وماهو مصيري. كنت في ضيافتهم شخصا مغلوبا على أمره، يواجه قضايا متشابكة لاحول له فيها ولا قوة، ماذا أفعل بنفسي وسط خيبة المحبّة وخيبة العالم؟ أين تتحدّد مسؤوليتي في أيّام تتدهور باستمرار؟ هل أنا الذي أتدهور أم أنّ الدّنيا أصبحت تجرفني معها إلى مصير لاقرارَ له؟ أين إرادتي وسط كلّ هذا الذي وقع، يبدو أنّ ذاتي قد تشظّت إلى أقصى حدّ ممكن، ماذا أرمّم فيها كي أختار ما أريد؟ يبدو أنّ زمن الاختيار قد ولّى إلى غير رجعة!

لفظني مخفر الشرطة، كنت متّسخا، أشعث الرأس، كأنّي خرجت من قبر مليء بالحشرات. سرت في عجالة، أحسست أنّ شخصا ما يتبعني، يراقبني، يقطع عليّ طريقي، لم أقْو على النظر إليه، أسرعت الخطى، ركبت سيارة أجرة. خاطبني الشبح الذي لم أنظر إليه:

- لن تفلت من أيدينا، نحن لك بالمرصاد...

خاطبت صاحب السيارة:

- الملعب الشرفي من فضلك.

- غادي تشوف الماتش؟

- لا، لا، الكرة لاتهمّني.

- وماذا ستفعل في الملعب؟

- أسكن فيه...

نظر إليّ في استغراب:

- تسكن فيه، في مرمى اليمين أو في مرمى اليسار، لعلّك في كرة السلّة...

- أسكن بالقرب منه.

- لم تكن معي نقود. وقفنا عند باب العمارة، طلبت منه أن ينتظر، وصعدت الدّرج في سرعة.

وجدت أمّي في المنزل، سلّمت عليها، لاحظت أنّها كئيبة جدّا، قصدت الغرفة الثانية، فتحت الدولاب، ونزلت إلى سائق التاكسي، شكرته ثمّ رجعت إلى أمّي.

وجدتها تبكي، وتلعن الدّنيا التي ابْتُليتُ بها، ثمّ تحمد الله، وتقرأ اللطيف في نفسها. سألتها عن أختي، أجابتني بأنّها خَرجت لقضاء بعض المآرب.

جلست بالقرب منها، قبّلت يدها وأجهشت بالبكاء. اختلطت أدمعي بتقبيل يديها. كانت تبكي وتقول: لاتخف، رضى الوالدين معك، ستنفرج الغمّة.

سألتها عن جدّتي، أجابتني بأنّها مريضة جدّاً: ولكنّها تريد زيارتك، ثمّ إنّها تريد زيارة السعداني!

- ماذا ستفعل مع السعداني؟
- يريد أن يبيع الدّار . . .
- أيّ دار؟
- دارَها!
- كيف يبيعها؟
- يقول: : إنّ له حقّ البيع ولجدّتك حقّ الشفعة!
- ألم يبع لها السفلي؟
- باع لها الحقّ في أن تسكن. . .
- ماذا سيبيع، أليست الدّار وقفا؟
- استولى عليها بالشّرْعْ والقانونْ. . .
- أيّ شرْع؟ آه، فهمت، القانون المزوّر، وهذا السعيدي، أما يزال حيّا؟
- لفعَة بسبْعْ ريوس. . .
- وكيف ستقطعه جدّتي؟
- لن تقطع منه شيئا، سيقطعها ويقطعنا معها.

جاء إلى ذهني مشهد سعاد، والخاتم، وأسورة المحبّة، وفظاعة الزمن، أخذت أشرد في متاهات نفسي، كيف أستطيع مواجهة السعيدي وقد عجز أبي عن مواجهته؟ أليست ابنته هي السبب في جنون عبد اللطيف؟ ماذا سأفعل معه وأنا على هذه الحال من الاضطراب والانهيار؟ أما يزال بي رمق للمواجهة؟ هل سأترك له جدّتي وزوجها الضرير كي ياكلهما من جديد؟ لماذا لايتركهما يموتان في راحَتهما؟ لعلّه يفكّر في أنّهما لو ماتا لما حصل على شيء؟ وهو، هل سيخلد في الدّنيا؟ يريد لابنته أن ترث كلّ شيء؟ ألا يكفيها ماهي فيه من نعمة وغشّ؟ ربّما يريد لابنته غشّا متوالدا تحقّق به ما لم يستطع هو تحقيقه في حياته الدّنيا. . . لو كان يستطيع السعيدي أن يحوّل الآخرة إلى بهتان لما تردّد في ذلك.

دخلت إلى الحمّام، تطهّرت من ماء بارد، لبست ثيابا بيضاء، خرجت لأجلس إلى أمّي. كأنّي لم أفلح في الجلوس إليها قبل اليوم:

- رحم الله أباك، كان يحبّ الدّار البيضاء محبّة كبيرة. . .
- نعم، كان يحبّها، ولكنّها تغيّرت كثيرا، لو رآها اليوم ما أحبّها.
- كلّ شيء تغيّر يابنيّ، كلّ شيء تغيّر.

- وأنا، لماذا لم أتغيّر؟

قالت أختي من المطبخ:

- لأنّك فيلسوف الزمان والمكان. . . .

- أنت هنا أيتها الفأرة. . .

- جاءَت قبل قليل، وهي تطبخ لنا الطعام، لقد أصبحت طبّاخة ماهرة.

قمت إليها وأنا أقول:

- إذن بإمكانك أن تطبخي في الأعراس والأفراح.

ضحكت بصوت عال وهي تجيبني:

- الحمد لله على سلامتك. . .

فهمت أنّها لم تخبر أمي بما وقع، سألتها:

- ماذا حكيت لها؟

- أخبرتها أنّك في سفر، عند صديقك في مرّاكش.

- ممتاز، عجيب، أنت رائعة. . . ماذا فعلت مع أصحاب الضيافة؟

- أطلقوني بعد أخذ وردّ، أطلقوني بعَد أن تأكّدوا من أنّني أختك التي لاتُضاهَى. . . . وحين سألتهم عنك، قالوا: إنّ الأمر لايعنيني، هذا أمر يخصّ الأمن، ولا علاقة له بالأخوة. حبست دموعي في عيني وانصرفت، كم كنت أتمنّى أن أبقى معك، ماذا سيقع، لاشيء، (موتة وحدة كاينة)!

- ماذا تطبخين، أنا جائع جداً، تعرفين أنّهم يكرمون الناس كثيرا في دار الضيّافة. . .

- نعم يكرمونهم. أطبخ لحما بالبطاطس. . .

- أنا لا آكل البطاطس. . . .

- ستاكل البطاطس. . . .

- لن آكل البطاطس.

ضحكت، ضحكت، وجلسنا إلى مائدة الغذاء.

□ □ □

رجعت أمّي إلى فاس، وبقيت أختي في الدّار البيضاء، تؤنسني في غربتي وضياعي، وتبحث عن عمل ملائم قد لايوافق مزاجها المرح، ولكنّه لابدّ من أن يوافق الإجازة التي أخذتها من كلية العلوم، تخصّص البيولوجيا.

كان شبح سعاد يسكنني حتّى العظم، وكانت تهمة قتلها شبحا آخر يستبدّ بأنفاسي. شبح سعاد عالم فسيح من الذكريات الرائعة؛ والتهمة الملفّقة عالم من

الرّعب والفزع. كم مرّة ارتحت من رعبي في لوحاتها الجميلة، وكم مرّة خنقني الفزع فجعل منّي إنسانا كسيحا أتساءل باستمرار: هل أنا هو أنا، أم أنّ شخصا مّا بداخلي هو الذي يسير إلى ما أريده وما لاأريده. سعاد صنعت منّي إنسانا يختار ويتصرّف وفق إرادته، وشبح الفزع صنع منّي شيئا يُتصرَّف به. كم كانت الأشياء ستكون جميلة لو لم تقتل هذه المرأة. ما أروع المشاهد التي كانت سترسمها في سعادتها وطمأنينتها! كانت ستشتهر، ثمّ تقيم معارض متعدّدة، وتكتب عنها الجرائد:

أقامت سعاد معرضا للوحاتها الحالمة في قاعة النادرة بالدّار البيضاء، زاره مغاربة وأجانب، وارتاحوا كثيرا لمشاهد الأفق البعيد، ولحمرة الشفق، ولشجر النخيل يتراقص في مدينة مرّاكش، لزرقة السماء، وموج البحر، وخضرة الحقول، وأطفال المساكين فوق ظهور أمّهاتهم وبين أحضانهنّ، رجال ونساء يفرحون في الأعراس والمواسم... علّق ناقد كبير حضر المعرض: سأسمّي هذه اللوحات: رسم الأمل!

ولكنّ الجرائد كتبت:

عثر على جثّة مقطّعة في حافلة ركّاب محمّلة بالبضائع المهربّة.

فكيف لايطاردني شبح الرعب ويصطرع في داخلي مع شبح المحبّة والبراءة؟ يبدو أنّ كلّ شيء جميل قد تحوّل إلى شبح، وأنّ الرّعب أصبح حقيقة تطاردنا من الدّاخل. هل سيستمرّ الأمر على ماهو عليه؟

في هذه الفترة التي اتّهموني فيها بقتل سعاد تخلّيت عن أن أخلط التاريخ بالجغرافية، ثمّ تخلّيت أيضا عن الفلسفة. استسلمت للدروس المرسومة في المقرّر استسلاما تامّا، لم أعد أناقش، كما أنّ التلاميذ لم يعودوا يسألون، أصبح الدرس جافّا متوتّرا يملأ الأعصاب بدلا من أن يملأ العقل والوجدان، تساوت الخرائط بالنسبة إليّ، كما أنّ الأحداث أصبحت فاترة وكأنّها لم تكن معارك حضارية كبرى خاضها السابقون من أجل سعادة الإنسان وهويته وبقائه، نسيت ابن خلدون نسيانا تامّا، كما نسيت غاندي ومحمد الخامس، وكلّ هؤلاء الذين تعلّمت منهم أنّ التاريخ هو الإنسان. أقول باختصار: إنّني أصبحت أدرّس تاريخ الأشياء! ماالغرابة في ذلك: الأشباح تطاردني وأنا شيء لايمكن أن يفهم إلاّ الأشياء مثله. ألم أقل لسعاد يوما: إنّنا سنصبح خشبا أو كالخشب، فعاتبتني على ذلك واتّهمتني بالتشاؤم.

مرّة ثار في وجهي أحد التلاميذ قائلا:

- نحن لانريد هذا التاريخ الذي تدرّسنا، إنّنا نريد تاريخا حيّا ناطقا بالأحداث. نعرف من خلاله حياة الناس وآلامهم...

أجبته:

- إنّنا ندرس مقرّرا لابدّ من أن نتمّه.

احتجّ:

- نحن لايهمّنا المقرّر، يهمّنا أن نعرف الدّنيا لنعرف أنفسنا!

- هذا شيء غير ممكن.

- لماذا؟

- لأنّني أنا نفسي لاأعرف نفسي، وفاقد الشيء كما تعرف لايمكن أن يعطيَه.

- والحلّ؟

- الحلّ يكمن في أن ندرس الموجود ونحتفظ بالمعدوم لأنفسنا. ضحك التلاميذ، فهموا أنّ كلامي ضرب من العبث، وفهمت أنّني كدت أعود إلى خلط التاريخ بالفلسفة، درت نحو السبورة وكتبت:

درس الجغرافية:

التربة في سهول تادلة

(عن مجلة جمعية تربية الخيول - جماعة تيسة)

كتبت في السبورة (النصّ) المأخوذ عن هذه (المجلّة)، قرأته، قرأه تلميذان اثنان، أردت شرحه، لم أجد فيه ما أشرح، والغريب في الأمر أنّ الكلام الوارد في هذا الكلام ذيّل بأسئلة من جملتها:

- ادرس الخصائص الفنّية للنّص.

قلت للتلاميذ: احفظوا هذا (الدرس)، فستمتحنون فيه في المستقبل. نظرت إلى التلميذ الذي احتجّ ضدّ دروس التاريخ، لاحظته متوتّرا ممتعضا. في آخر الحصّة ناديت عليه، سألته:

- هل تريد دراسة التاريخ الحقيقي؟

- نعم!

- كم عمر أبيك؟

- لاعمر له، بالتقدير، أكثر من ستّين سنة!

- إذن عليك أن تتحدثّ إليه، سيروي لك التاريخ الصحيح.

من ذلك اليوم أصبح التلميذ المحتجّ بصدد تاريخين اثنين: تاريخ المدرسة، وتاريخ الأبوّة. أليس هناك من سبيل لتوحيد الأمرين؟ يبدو أنّ أشياء كثيرة لابدّ من أن تتغيّر.

□ □ □

جاءت إليّ مريم تستدعيني لاحتفالها بمولود رزقته من زوجها الثاني، سألتني عن حالي، أجبتها بأنّها ليست على مايرام. حدّثتها بأنّني سقطت في كآبة ليس لها قرار.

- لماذا لاتتزوّج؟

- لأنّني لن أتزوّج!

- هل حالي أحسن من حالك؟ وصديقك، ألم يتزوّج هو الآخر؟

- لقد وجد كلّ منكما حلاً يرضيه، أمّا أنا فقد احترت مع الحياة واحتارت معي، آخذها من هذه الجهة فتأخذني من الجهة المخالفة، لو كانت لديك أخت لتزوّجتها. . .

ضحكت تقول:

- آسيدي نجبروها لك، غير آمر. . . .

لم تتغيّر مريم، كانت امرأة أصيلة، لقد أخطأ عبد اللطيف الطريق إلى أشياء كثيرة حين فرّط في محبّتها.

- هل يشبهك طفلك؟

- إيوا لابدّا، احْنا راه بيضاوة. . .

- ومشروع الزرابي؟

- الحمد للّه، ناكلو ونشربو والرحيم الله. كيف داير مع الفلسافة؟

- بخير، أدرّس وأنام. . .

- ايوا احمد الله، واحد آخُر راه مايجبر شي حتّى ينعس!

- صحيح، ولكنّني أحسّ بفراغ رهيب داخلي، ثمّ إنّني لاأبحث عن النوم، إنّني أبحث عن ذاتي، ماذا سأفعل بعد أن قُتلَت محبّتي.

أصابها حزن ودهشة. كادت تبكَي:

- عليك أن تخرج من كآبتك، ليست سعاد هي نهاية الدّنيا.

- أعرف ذلك، ولكنّني أصبحت أخاف أكثر من اللازم، أشعر أنّ إرادتي قد انهارت داخلي، ثمّ إنّني سئمت المحبّة وسئمت الدّنيا.

- الله يهديك آسيدي، راه ماطاحتشي السما، الدنيا كلّها هاكدا، مرّه ليلَك ومرّة عليك، ايلا امشات سعاد تجي سعاد.

- صحيح، ولكنّهم الآن يتّهمونني بقتلها.

- كيفاش، ابوا هادي خْرافة، كيف داروا؟

- والله لا أدري، يقولون إنّهم وجدوا خاتمي وأسورتي في يدها المقطوعة!

- خاتمَك، أنت لايمكن أن تقتل، وماذا فعلوا معك؟

- يحقّقون معي!

- عليهم أن يحققوا مع أنفسهم، أنت لايمكن أن تقتل.
- هل أقتل ذاتي؟ هل أذبح محبتي وأفصل أطرافي عن جسدي. إنني أكاد أصاب بالحمق حين أفكر في هذا الموت الشنيع، أكاد أجنّ حين أتذكر بأنني متهم في سعاد.

قمت من مكاني وسط الغرفة الصغيرة، دخلت إلى الشرفة، أخذت لوحة من لوحات سعاد وأهديتها لمريم؛ كان في اللوحة طفل صغير يبتسم.

نظرت مريم إلى مشهد الطفل، سألتني: هل سعاد هي صاحبة الرّسم، أجبتها بأنّها كانت تتمنّى أن تلد منّي طفلين اثنين، بنتا وولدا، قالت مريم:
- لك الحقّ أن تكتئب.

ابتسَمَتْ في حزن داكن، ودعتني على أساس أن نلتقي في حفلها.

سئمت فرحي وحزني، فكيف أحضر في فرح مريم. لم أعد أميّز الضحك والبكاء، صار كلّ شيء بالنسبة إليّ يدعو إلى الضحك، أو يدعو إلى البكاء. فإمّا أن تكون الدّنيا كلّ الدّنيا عبثا، أو أن تكون كلّها حزنا. تساوت مظاهرها في رأيي. ماذا تريدون من إنسان ياكل الساندويتش وياكل الساندويتش، يشرب القهوة ويشرب القهوة، ينظر إلى هذه المرأة وهذه المرأة فلا يفرّق بينهما. كلّ النساء ككلّ النساء، وكلّ المقاهي ككلّ المقاهي، فماذا أفعل بالحزن والفرح! إنّني قد أضحك فأكون كمن يبكي، وقد أبكي فأكون كمن يضحك. قد تكون هذه الكآبة لعنة جديدة أصابتني، لايهمّ، أظنّ أنّني صرت جزءا من لعنتي، سأشتري باقة ورد وأذهب إلى فرح مريم.

ركبت الحافلة رقم 79 وذهبت إلى حيّ الأميرات حيث العمارة التي تسكنها مريم.

لم أكن أعرف زوجها فيما مضى، قدّمتني له قائلة:
- صديقنا الفيلسوف.

ابتسم زوجها، دعاني إلى الجلوس في الغرفة الكبيرة، أجلستني مريم وسط الناس، تضحك وتقول: هذا صاحبي الفاسي، أعرفه قبل أن أعرف هذا الزوج المسخوط، وأحبّه، أما هذا البيضاوي الأصكع فلا أحبه، لا أعرف كيف قبلت الزواج منه. ثمّ يضحك زوجها الذي دخل إلى قلبي أوّل مارأيته. كان إنسانا طيّبا ومتّزنا. يدعوك منظره إلى أن تحترمه قبل أن يتحدّث إليك. يبدو أنّه من هؤلاء الذين نسمّيهم بيضاوة الاحرار، ونحن نقصد بهم أصلاء هذه المدينة التي أحببتها وكرهتها. إنّك لاتملك إلاّ أن تحبّ الدّار البيضاء وتكرهها في آن واحد.

جلست إلى جانبه، رحّب بي قائلا:
- أهلا بابن المولى إدريس، مريم تحبّك كثيرا.

شكرته وأنا أتلعثم في داخلي: إنّها جزء رائع من طفولتي فكيف لا أحبّ ابنة (السيّ المعطي).

- قال لي إنّك أستاذ، مَاذا تدرّس؟
- أدرّس الفلسفة.
- الفلسفة، الفلسفة علم جميل، ولكنّها لاتصلح لهذا الزمن؟
- صحيح، لا تصلح لهذا الزمن.
- كنت أتمنّى أن أكون مثلك، ولكنّ الأيّام صعبة، تحتاج إلى العمل أكثر ممّا تحتاج للتفكير؟
- نعم، هي كذلك.
- درست في فرنسا، درست الفنون الجميلة، كنت سأحضّر دكتوراه في السينما، ولكني فضّلت الرجوع إلى المغرب، مات الوالد، ترك مشاكل كثيرة، كان عليّ أن أحلّ المشاكل، وضحك.

ضحكت معه وفكّرت في أنّ الإنسان حين يكون بسيطا يستطيع أن يحلّ مشاكل الدّنيا، ولكنّه حين يبتلى بلعنة الفكر لايستطيع أن يفعل شيئا إزاء أتفه المشاكل، أليست مشاكل الفكر مشاكل عويصة؟

- اشتغلت في وزارة الصناعة التقليدية، في الرباط، لم تعجبني حياة الرباط. أنشأت هذه الشركة مع مريم، شركة للزرابي، نحن في الدّار البيضاء نحبّ الزرابي، الزرابي رائجة عندنا، مارأيك؟
- رأيي؟ رأيي أنّ الزربية جميلة، المهمّ أن لايدخلها الغشّ؟
- لا، لا، هذا بالنسبة إليّ غير ممكن، تعرف أنّ المشاكل التي تركها والدي كلّها بسبب عدم الغشّ، كان يبيع الزيت، الزيت البَلدي، وكان هامش الربح قليلا، وكان يبيعه بلديا صافيا، ويبيع العسل، يأتيه من الصويرة فلا يخلطه، يبيعه كما هو، رائحة الشيح تفوح منه، لم يربح شيئا، ترك ديونا كثيرة، كان قد ربح في الزمن القديم، بعت دارنا، وبعت أرضا في (عين برجة)، كانت هي سبب الربح، رحم الله والدي، ترك ديونا وترك كنزا. هؤلاء القدماء، حكماء أكثر ممّا تتصوّر؟
- نعم، حكماء، فلسفتهم فاقت كلّ فلسفة، تصوّر أنّ جدّتي امرأة عجوز، زوجها ضرير، وتخوض صراعا عاتيا من أجل أن تظلّ في منزل الوقف الذي تركه جدّها.
- هؤلاء أناس لايمكن أن نجد اليوم مثلهم.
- نعم، لايمكن أن نجد مثلهم، رحم الله (السّي المعطي) كان صديقا لوالدي.
- رحمه الله، وأبوك، أما يزال على قيد الحياة؟

- لا، توفيّ في فاس، كان يبيع الجلد البلدي، ترك دارا لوالدتي، رحمه الله.
- الدّار أهمّ شيء يتركه هؤلاء القدماء، الدّار أهمّ شيء.

خرجت مريم في ثوب عرسها، كان فرحي بها فرحا عارما، وكانت تبتسم، ثغرها كالأقحوان، ومشيتها أنيقة مختالة، في نهديها نخوة وكبرياء، وفيهما نشوة الفرح.

نظرت إليها فعرفت أنّ (السّي المعطي) أعطى جزءا من ذاته أو قل كلّ ذاته كي تكبر هذه البنت في نخوتها. لو كان (السّي المعطي) حيّا ورأى ابنته تتّهم بالخيانة لقتل عبد اللطيف.

ربّما تكون مريم قد أخّرت حفل عرسها حتّى تلد، لتثبت لنفسها أنّها جديرة بالزواج والولادة في آن واحد.

أسورتي والكلاب

حين حصلت أختي على العمل واستقرّت معي في الدار البيضاء، أقلعت عن الشرب، ولم أعد أدخّن إلاّ لماما. أصبحت أعنى بمظهري، وأنظّم أيّامي قليلا قليلا. زرنا مريم مرّات متعدّدة، وزارتنا هي أيضا صحبة زوجها وطفلها الصغير الذي سمّته (عزيز). كانت تصرّ حين تجتمع بأختي على أن تثير مشكل زواجي، فأجيبها بأنّ أختي أولى بأن تتزوّج وتتركني لأشباحي ولوحاتي.

في إحدى زياراتها أثير مشكل زواج أختي بشكل جدّي. خاطبني زوج مريم قائلا:

- سأزوّجها أخي.

فهمت أنّ زيارات مريم لم تكن بريئة، كما أنّ استدعاءها لنا عدّة مرّات للعشاء في منزلها لايخلو من بعض السرّ. ألم يحضر أخو زوجها هذا عدّة مرّات هذا العشاء المقصود؟ ضروريّ أنّ أختي تعرّفت عليه، وأنّهما اتّفقا على الزواج قبل أن أُخْبَرَ به. كان فؤاد - وهذا هو اسمه- يعمل مهندسا في شركة للإسمنت، وكان لطيفا فيما بدا لي، إلاّ أنّني لاحظت بأنّه أنيق أكثر من اللازم، ربطات عنق بنفسجية ووردية وزرقاء سوداء، أقمصة بيضاء صقيلة، أحذية واطئة وبذلات سوداء لامعة، ثمّ له نظّارات خضراء مذهّبة الإطار، رجل أنيق جدّا، ومن طبعي وتربيتي أنّني لاأميل إلى هذا النوع من الأناقة المفرطة. أجبت زوج مريم:

- جميل، جيّد، ولكن، لابدّ من أن توافق هذه المسخوطة التي تطوّرت في الدّار البيضاء.

فهموا جميعا أنّ الأمر لايحتاج إلى أخذ وردّ، وأنّ هذا النوع من العلاقات لايمكن أن يفوتني، ثمّ قرّروا أن تكون الخطبة والعرس دفعة واحدة في فصل الصيف.

ودّعنا مريم وزوجها، وسألت أختي:

- هل تحبّين هذا الرجل؟

- إنّه مهذّب جدّاً .
- قلت لك : هل تحبّينه؟
ضحكَت قليلا ثمّ أجابتني :
- ألم تقل إنّ عهد المحبّة قد انقضى!
- نعم، ولكن ماذا ستفعلين به؟ وهو : ألا يميل إليك؟
- لا ، لا ، ليس الأمر كما تفهم، تعرّفت عليه عند مريم، وخرجنا معا عدّة مرّات، ميوله تلائمني، وذوقي يعجبه، المهمّ أنّنا نستطيع أن نعيش معا وأن نكوّن أسرة، هل لديك اعتراض على ماأقول.
- لا ، ليس لديّ أيّ اعتراض.
ثمّ سكتّ، فهمت أنّ زمني بدأ يجاوزني، وأنّ أحلامي مع سعاد قد ذرتها الريّاح. قد تقادَمْتُ أكثر من اللازم، الحياة متطوّرة إلى الأسوإ أو إلى الأحسن وأنا في مكاني، أحيا مع الأشباح ولا أبدي حراكا، أختي على حقّ فيما تفعل، ألم تخب حياة عبد اللطيف مع مريم؟ وأنا، ألم تخب حياتي مرّتين، أنا على خطأ، أنا على خطأ، سأتزوّج، ثمّ أمحو هذا الماضي اللعين الذي أعتبره جميلا.

□ □ □

جاءت أسرتي من فاس. أختي الكبرى وزوجها وطفلاها، جدّتي وزوجها الضرير، ثمّ أمّي التي تأخّرت عن هؤلاء لتحمل معها بعض المآرب من فاس إلى الدّار البيضاء: ماءالورد والزهر، الزيتون الحامض والليمون المخلّل، اللوز الرّيفيّ، البرقوق البلدي، شمع المولى إدريس، حنّاء مرّاكش، تمر مولاي علي الشريف، كحل العينين، وغير ذلك، ممّا لايمكن أن يوجد في الدّار البيضاء إلاّ إذا كان من فاس أو من إحدى جهاتها المختلفة.
كنّا نتهيّأ لخطبة أختي وعرسها، وكانت الدّار البيضاء متلألئة من فرحي. كان السكن الذي أسكنه ضيّقا، ولكنّه اتّسع داخل قلبي. جدّتي وزوجها الضرير ينامان في سرير ماء، وأنا وأمّي وأختي ننام في الغرفة التي كنت سأتّخذها مع سعاد لاستقبال بعض الأصدقاء إذا كان لنا أصدقاء.
ننشغل في النهار بالتحضير للفرح، ونحكي في الليل حكايات الطفولة والزمن القديم، ثمّ نناقش بين حين وآخر مشكل السعيدي الذي لاحلّ له. أحسست خلال هذه المدّة بفرح نسيته منذ مدّة طويلة. كان الدفء يملأني، وكاد شعوري بالخوف يفارقني. كنت أرتاح كثيرا حين أجلس مع جدّتي في شرفة سعاد فنتذكّر معا ليلة

فرحي بالمحبّة التي انفلتت منّي، لو لم يكن الزمن قد انقلب ضدّي لكانت سعاد الآن في حضني، ولكان لي منها طفل جميل كالذي رسَمَتْه في يوم ما وكَتَبتْ تحته: ابتسامة. كانت مريم تزورنا كلّ يوم، وكانت أختي الكبرى تقضي معنا مجمل النهار، وتقضي الليل في فندق صغير مع زوجها وطفليها. حدّثت هذه الأخت بأنّ قلب الإنسان يسع كلّ شيء، ولكنّها كانت دائما تميل إلى الانطواء على نفسها، فتضع بينها وبين الآخرين كثيرا من الحواجز التي تفصلك عنها، فتحسّ بطيبوبتها عن بعد، وتتركها لهذا الانطواء الذي يكتسي لديها نوعا من القوّة المرنة والصلابة الليّنة. فضّلت الفندق لأنّها تريد أن تسير بحسب برنامج لاشكّ أنّه كان دقيقا ومحكما. ثمّ إنّ من الحواجز أيضا زوجها الذي تريده أن يظلّ صهرا قريبا من أسرتها وبعيدا عنها في الوقت نفسه.

كان بإمكانها أن تنام في المكان الذي تنام فيه جدّتي، وأن نجتمع نحن في الغرفة الثانية ونضع لطفليها مكانا خاصّا بين أحضاننا، وتسير أيّام الفرح في شيء من الفوضى والعواطف المتداخلة. ولكنّ أمّي كانت تقول:

- خلّيوْها علَى خاطرْها، هاديك ديما هاكْداك.

تسمّيها أختي الصغرى (للاّ بَرْماجَة)، ولكنّها لم تقْوَ في يوم من الأيام على أن تسخر منها أو تتجرّأ على أن تناديها بهذا الاسم. كانت تحبّها وتحترمها، تنتقد سلوكها المستقيم وتعجب به لأنّها لاتستطيعه.

تأتي إلينا هذه الأخت فتعين أمّي في تحضير حلوى الفرح، وتصرّ على أن يوضع كلّ نوع منها في علبة كبيرة من الورق المقوّى، مرتّبا طبقة طبقة، وبين كلّ طبقة ورق أبيض شفّاف يحافظ على نكهة الحلوى ومذاقها. أختي الصغرى تبتسم لهذا الترتيب وتندهش لدقّته، كأنّها تعرف أنّها لاتستطيعه.

تكلّفها أمّي بأن تحضّر طعام الغذاء فتطبخ أيّ شيء وناكل ذلك الذي تطبخه في نهم ولذّة فتقول أختي الصغرى:

- الله يعطيك الصحة آختي!

وتجيبها الكبرى:

- بالصحة والراحة!

ثمّ لاتزيد على ذلك.

تامر طفليها بأن يجلسا في مكان معيّن فيفعلان ذلك دون أيّ شعور بالخوف أو الضغط. تطلب منهما ذلك في هدوء فيستجيبان لها في طواعية.

لم تكن تكلّم زوجها إلاّ لماما. يتحدّث هو في كلّ شيء فتنظر إليه بين حين وآخر دون أن تشاركه الحديث. كانت تميل إلى الإنصات أكثر ممّا تميل إلى الكلام.

لم يكن زوجها ثرثارا، كان يتكلّم في موضوعات شتّى، بنوع من الاختصار والتركيز، حديثه سطحيّ في أغلب الأحيان، ولكنّه شيّق ومفيد. يتحدّث في السياسة فلا يتجاوز المجلس البلدي والغرف الفلاحية، لايعرف من مشاكل الفلسطينيين إلاّ كونهم أخرجوا من ديارهم من طرف اليهود. يكره الشيوعية كراهية مطلقة، ويحقد على أهل الغرب لأنهم ينحازون إلى إسرائيل. يحبّ العرب والمسلمين ويتمنّى تقدّمهم في الصناعة والفلاحة حتّى يستعيدوا مجدَهم القديم.

لم تكن أختي تناقشه. تظلّ صامتة تنصت إليه في إعجاب كبير، تهزّ رأسها كأنّها تؤكّد صحّة مايقول. كان لديه مذياع صغير يحمله معه أينما حلّ وارتحل، يظلّ يقلّبه في شتّى الجهات كأنّه يريد أخبار الدّنيا برمّتها.

تحدّدت علاقتي به منذ الأيّام الأولى التي تزوّج فيها أختي على أساس من الاحترام الفاتر، كنت أكتفي حين ألتقي به بأن أستمع إليه وأبتسم لكلّ رأي يقوله. وكان يرتاح إلى ذلك كثيرا. كأنّه كان يحسّ داخله بأنّ أفكاره لاتحتاج إلى نقاش، لأنّها من قبيل الأخبار البسيطة والمتداولة. ولكنّه كان يريد أن يتأكد من كونها أفكارا صحيحة، ولذلك يردّدها عليّ كلّما لقيني بنفس التركيز والاختصار: أمريكا تكره العرب وتراعي مصالحها، إسرائيل تريد الهلال الخصيب وأرض الميعاد، روسيا تصارع الرأسمالية بطرق غير مباشرة وفي مناطق بعيدة عنها، اليابان تقدّمت وهي النموذج الذي يصحّ اتّباعه، أنجلترا شاخت أكثر من اللازم، فرنسا لاتقوى على اللحاق بألمانيا، إفريقيا ابتليت بمآسٍ لاتكاد تنتهي حتّى تبتلى بمآسٍ جديدة، وقدَر المسلمين هو التشتت والتفرقة.

يتلخّص العالم لديه في هذه العناوين الكبرى، ثمّ تصبح هذه العناوين أثناء النقاش أفكارا جزئية ومرتّبة في خانات جاهزة وطيّعة. كنت أستغرب بساطته في وقت أعرف فيه أنّ العالم متشابك أكثر من اللازم. وكنت معجبا بطيبوبته وانسجامه مع ذاته، كأنّني لاأستطيع أن أحيا مثله في سكينة وهدوء وأمضي في الدنيا لاعين رأت ولا أذن سمعت. لماذا أنا هكذا أكسّر ذاتي بأفكار لاحدّ لها؟ لقد أصبحت هذه الأفكار تاكلني من داخلي، هل رأيتم إنسانا تأكله أفكاره. أليس بإمكاني أن أعيش حياتي في بساطة تامّة، آكل عدسا ولا تاكلني أفكاري. يبدو أنّني قد فقدت ذاتي إلى غير رجعة؟ هل أنا مسؤول عن ذلك؟ ربّما يكون العكس هو الصحيح، أي أنّني أنا البسيط في هذا العالم الذي أصبح علبة سوداء. لماذا غدا لكل شيء خلفيات وخبايا مستترة؟ أليست أفكار زوج أختي أفكارا خاطئة في مجملها؟ ألم تُصنع كي نصدّقها فنجهل الحقائق الكامنة خلفها؟ يتلخّص العالم في أن هناك أناسا قليلين يفهمون كلّ شيء، وأنّ هناك أناسا كثيرين لايفهمون شيئا. وأنا وزوج أختي من هؤلاء الذين

لايفهمون شيئا. هو يقول: إنّ الصراع حول القدس صراع دينيّ، وأنا أعتقد أنّه صراع مادّي وإيديولوجيّ. هو يقول: إنّه بين العرب وإسرائيل، وأنا أقول: إنّه بين الشيوعية والرأسمالية. قد يصحّ هذا وذاك، ولكن في المستوى السطحيّ للأشياء.

ألست بسيطا إذن؟ أليس العالم معقّدا ومتشابكا أكثر من اللازم؟

مرّت أيّام ونحن نحضّر لعرس أختي، وكنت فرحا بأهلي في الدّار البيضاء، لا أكاد أبرح منزلي إلاّ لأقضي بعض مآربهم وأعود. تهيّأنا للفرح إذن، وكنت وليّ أمر أختي، سألبس لباسا من الحرير الأبيض، وأرتدي طربوشا أحمر وبلغة صفراء، أستقبل العدول وأعقد قران هذه الأخت التي ستسخر منّي حين تراني بهذا اللباس الذي أصرّت أمّي على أن تحضره معها من مدينة فاس قبل يومين من يوم الجمعة الذي سيكون فيه عرس أختي، والذي كنت سأرتدي فيه جلبابا اشترته أمّي من سوق (الحايك) الموجود قبالة الباب الكبرى للمولى إدريس.

قبل يوم من ذلك اليوم الذي سأفرح فيه بأختي، ذهبت مع جدّتي إلى السعيدي. بحثنا عنه في درب السلطان فلم نجده. سألنا جيرانه القدماء فأرشدونا إلى أنّه أصبح يمتلك فيلا فاخرة في عين الذئاب. ركبنا الحافلة رقم 67 ونزلنا بمحطّة قرب فندق النصر! كنت أمسك بيد جدّتي، أخاف في كلّ حين أن تسقط في هذه المدينة التي لم ترها سوى مرّة واحدة مع جدّي الذي كان يعشق الارتحال وحده ويتركها في مدينة فاس ليعود إليها بعد أن ينتهي ارتحاله. أحسست أنّ خوفي عليها يشملها من كلّ جهة. وضعت يدي اليسرى فوق كتفها وأمسكت يدها اليمنى بيدي، قطعت بها الطريق إلى فيلا السعيدي، رنّ الجرس، سمعنا صوت كلبين اثنين، خافت جدّتي، ضغطت على كتفها كي تتماسك، ووقفنا ننتظر. فتحت الباب ابنته، كنت أعرفها حقّ المعرفة. سألتنا: ماذا نريد؟ أجبت بأنّنا نريد أباها. كانت مساحيق وجهها شتاتا من الألوان، بدأ الإرهاق يتسرّب إلى سحنتها، شعرها مصبوغ بالأصفر، وفي يدها سيجارة مشتعلة. نظرت إلينا في استغراب، كأنّها تسألنا: من نكون؟ أجبتها بأنّنا من مدينة فاس، جئنا لنناقش أباها في دار موقوفة يدّعي أنها في ملكه.

لم تكد تفهم من كلامي شيئا، أمرتنا أن ننتظر، وأغلقت الباب في وجهنا. مرّ من الوقت مايناهز نصف ساعة. أصاب جدّتي العياء فجلست فوق عتبة صغيرة في باب الفيلا. عاد صوت الكلاب إلى النباح، فهمت أن شخصا ما قادم. فتحت الباب امرأة يظهر أنها خادمة، أمرتنا بالدخول. قطعنا الطريق المؤدي إلى داخل الفيلا، وجدنا السعيدي جالسا في أريكة بصحن الدّار. نظّارته اصطبغت بالأخضر أكثر من اللازم. قلت: إنّه يوشك أن يصاب بالعمى، سلّمنا عليه، مدّ يده لجدّتي وهو يقول:

- مَرْحْبا بالفاسية دْيانّا، مرحبا، هذا نهار كبير . . .
- الله يبارك فيك آسّي السعداني . . .
- ايوا كيف جْرا، عمّرك ماجيتي للدّار البيضا .
- ايوا كلّ شي مع المكتاب .
- الصّحة بخير؟
- الشّي تيعدّي، وانتَ كيدرتي .

أخذ العياء من السعيدي مأخذه، وبدت شيخوخته أكثر من سنّه، يتنفّس بصعوبة، يتلعثم كي ينطق كلامه الموزون بدقّة فائقة، لم يبق منه إلاّ تحايله الذي تنطق به عيناه اللامعتان أكثر من اللازم .

قرّب إليه الصينية التي وُضعت بين يديه، ملأ أربعة كؤوس من الشاي، عرفت أنّ ابنته ستشاركنا هذه الجلسة المخاتله، مدّ كأس الشاي لجدّتي قائلا :

- زارتنا البركة، مَرْحبا ببنت مولاي ادريس، إيوا كيدَاير فاس؟
- الحالة حالة الله آسّي السعداني، الشي صعاب بزّاف .
- إيوا حمدو الله اللّي مازالين فداك المدينة، هاديك مدينة البركة! احْنا هْنا عايشين فجهَنّم، العافية فكلّشي الله يحضرّ السّلاَمَة .

نظرت جدّتي إلى الحيطان، جالت بعينيها في بعض أثاث البيت، التفتت نحوي، وابتسمت في وجه السعيدي .

فهمها فهما مضاعفا وهو يقول :

- دابا احْنا هنا كتشوف القبّة بيضا كيسحابك سيّد، والله ما عندي ايلا سَبْعَا دلمليون ديال الضريبة ولا عرفتشي كيف ماش ندير!

لم أستطع أن أخفي سخريتي منه، ضحكت، نظر إليّ في عبوس، ابتلعت سخريتي، وانتبهت إلى ابنته في فستان أصفر فاقع يبين عن صدرها إلى ثدييها المندفعين في بعض السمنة .

خاطبتُ جدّتي :

- هل عَرفْت هذه السيدة؟هذه زوجة أحمد، أحمد أخي صديقي عبد اللطيف .
- كاتعرف آللاّ العزيزة صحاب الضريبة، ماكاين غَير خلّص، إيلا عولّوا على شي واحد الله يحضرّ السلامة .

خاطبتني عزيزة :

- نسيت، وكنت أقول إنّي رأيتك، الآن عرفت، فعلا، أنت صديق عبد اللطيف، هل تراه الآن؟

تركت السعيدي لجدّتي واتّجهت إلى عزيزة:

- كـلّ شـي تـيـخـلّـصـو الـلـه آسّـي السعداني، خصّ غير الصّبر.
- مـا بقى صبـر آللاّ، مـا بقـى صبـر، الدّنيا غاديا وكاتصعاب!
- إيوا شنقولو حْنا؟
- انتوما حمدوا الله، ما عندكوم مطرقة فالراس، واكلين وناعسين.
- لا واه، عندنا شي مطيرقة، خصّك تفكّها معانا الله يخلّيلك هاد الغزاله من بنت، تبارك الله عليها، ولدْتي وعرفتي اشْنو تولد، الله يحفظها.
- إيوا للاّ بسم الله، احْنا ما هربنا لكوم من حقّ.
- قالوا نّا بغيتي تبيع الدّار.
- إيّه، شفعوا منّي إيلا بغيتوا!
- اشماش نشفعوا، نشفعوا ديانّا؟
- ولاّت دابا ديا لكوم، ملّي كانت خربة كانت ديالي، ومن اللّي ولاّت دار ولاّت ديالكوم، آنعلو الشيطان، غير إيمّا خويوا ولاّ شريوا.
- آش ماش نخويوا، وفين غادي نمشيوا آسيدي؟
- هادا شُغْلكوم، اعطا الله دْيورْ الكْرا، كْريوا بحال الناس! أنا راني طلقت الدارد فالبيعْ، راها عند ربْعَة ديال السّماسْرية.
- اشحال سْواتْ؟
- سْوات آللاّ خمسطاش!
- خمسطاش؟
- لا، لم أره من مدّة طويلة، أظنّ أنّه الآن في مرّاكش.
- من الأحسن ألاّ تراه، ماذا ستفعل بإنسان أحمق...
- لا، لم يكن أحمق، كان مريضا.
- مريض بحسد أخيه، الدّنيا أرزاق، لماذا الحقد، كان مجنونا بنعمة أخيه.

حدجتُ صدرها بنظرة لا معنى لها، سألتها:

- وكيف حال السّي أحمد؟
- بخير، الآن تحوّل إلى صناعة العطور، يبيعها في المغرب ويصدّرها.
- جميل، وصحّته؟
- بخير، بخير.
- والأبناء؟

نظرت إليّ في تحدّ وغطرسة لأنّها تعرف أنّ له أبناء من خديجة، وسألتني:

- عن أيّ أبناء تتحدّث، خديجة طلّقها من زمن بعيد، لم تعد له أيّ علاقة بأبنائها، أبناء النحس، من الفقر وإلى الفقر، تصوّر أنّ أحدهم أقام دعوى ضدّه، يدّعي أنّ معمل النحاس في ملك أمّه!
- والنّتيجة؟
- النتيجة أنّه خرج صفر اليدين، الله يجعل البركة فالمخزن.

سكتُّ لبعض الوقت، ثم خاطبتها:

- إيّه، خمسطاش لمليون!
- إيوا ولكاغيط، عندك كاغيطها؟
- من اللّي يكون البيع نحضّروا الكاغيط، واش غادي نشريوا الشكيمة قبل العَوْدْ؟
- لا، العَوْد هو اللّوْل.
- ايوا شقولتي، غادي تشفَعْ؟
- لا السّي السّعداني، ماعندي باش نشفع شاي، آنا ما بقالي غير الرحيل لمولانا، خمّم غير انْتا، الدّنيا راها دايزه باللّي فيها ...
- العُمُر بيَد الله، احْنا دابا تنْهضروا فالبيع وَالشّرا، كاين شي فلوس؟
- لاَ سي السعداني، كاين الله.
- لا إله إلاّ هو، ايوا فاين هاد راجلك اللّي كان خدّام مْعا فْرانسا؟
- عايشين بالبركة وحامدين الله.
- ايوا هي ماكان شاي؟
- عْلَى هاد القيبال ما كاين والو، هادشّي مَجْهَدْ علينا.
- ايوا لَلْ فوقاش غادْ تخويوا؟
- قريب يْنَشاء الله.
- خصّنا شي حاجة معقولة، ماشي كلّ مرّة غادي نكولوا ينشاء الله، حتّى لاين، المحال آ للاّ مطلوب، باغينو الناس، إمّا خودوه ولاّ خلّيوه لغيركم.
- لا، غادي نخويوا آسّي السعداني، اعطينا غير شويا دلوقت، راحنا خاويين، ولكن لاَبدّا نجبرو فاين ما شنسكنو بعدا.
- وابنتك؟
- من؟ جميلة؟ الحمد لله، تدرس وتكبر.
- هل تعرفين أن عبد اللطيف تزوّج؟
- هذا شخص لا علاقة لنا به، كنّا وكنتم، وصرنا وصرتم، الآن انتهى ما بيننا، دفن أمّه فدفنّاه معها.

لم أكن أحقد عليها بقدر ما كنت أرثي لحالها، هل يستطيع الإنسان أن يتنكّر للدّنيا والناس كي يعيش وحده؟ لابدّ أنّ العطر الذي يصنعه أحمد عطر مزوّر، هل يستطيع من نشأ في الزور أن يتغيّر؟ خلل العالم يزداد فيزداد خلل الناس معه، مصير الدنيا إلى الخلل!

- أليس عبد اللطيف عمّ ابنتك؟
- لا يا سيدي، ستر الله بيني وبينه، لماذا لا يكون عمّ الآخرين؟ عَمّ ابنتي أحمق؟ ايوا انتهت الدنيا. قل له إذا رأيته، عنداك يظنّ الظّنون، كلّ شي مكتوب في اسمي واسم ابنتي، وعليه أن يفسّر ذلك لتلك المرأة، لتلك المصيبة، حكموا لها في المحكمة بالنفقة، ايوا تبعّاد منّا.
- النفقة؟
- نعم، النفقة، خمسمائة درهم في الشهر، هذا الذي كان زوجها فيما مضى، والآن هو زوجي، يعمل في شركتي بألفي درهم!
- العطر الذي يصنعه أحمد عطر مزوّر؟
- ماذا تقول؟

- هَدَا شغالكم آللاّ، ماشي أنا اللّي غادي نقلبلّكوم عال السكنى، بَحْثوا على راسكم، الخير موجود، خاصّ غير يَمّاهم.
- إيوا يَمّاهُم فَاش بقاتْ...
- واقيلا نعطيوكم حتّى لفلوس، شوفوا واش تاكلوا وتنعسوا والصلاة عانّبي.
- لا، ماشي هَاكْدا، احْنا عينينا عطيناهم فالخدمة، وهاد الدّار، ديال جْدودنا، واش غادي نْبْداوْ نشريوْا ديورنا، هادْ شي راك عارْفو، َما نحتاجوشي نعاودو الخرافة من جديد.
- شوف آللاّ، انت مازالَه عايشة فيَّام زمان، الله يخلّيك، طوي عْليَ لْهضْرا، كاين شي فلوس هو هاداك، ما كاين فلوس هنْينا.
- لا شيء، لا شيء!

فكّرت أنّ أحمد أخذ في التراجع، وأنّه أصبح يضيّع نفسه أكثر مما يضيّع غيره، كيف استولت عليه هذه الأفعى بعد أن استولى على كلّ من اعترض طريقه؟
- خَصّك تقول لصاحبك، رَا الدّنيا تَدُورْ، البارَحْ البارَحْ، واليومْ اليومْ!
- صحيح، تدور وتدور، ولكن لماذا تدور على عبد اللطيف وحده؟
- وهي انت من جهتو؟
- إنك لا تفهمين ما أقول، أنا من جهة الجميع، لك الحقّ وللآخرين حقوق، لماذا تريدين السيطرة على الدّنيا والآخرة؟
- آسيدي، أنا ربّي عْطاني، الآخرون لا يهمّونني، الدّنيا هي هادي، شي عطاه الله وشي حرمو الله!
- ممكن، ممكن، ولكن لماذا تاخذون ما منحه الله للآخرين؟
- نحن لا ناخذ شيئا، نتمتّع بمالنا، هذا حقّنا.

تركنا السعيدي وابنته، لم نشرب شايهما، ولا وصلنا معهما إلى حلّ، سواء فيما تعلّق بدار جدّتي أو فيما يخصّ القضايا الشائكة التي أثارتها ابنته في وجهي. سلّمنا عليهما وخرجنا إلى الباب. لم أكن أفطن إلى الكلاب؛ انقضّت على جدّتي تريد أن تلتهمها، لاذت المسكينة بجلبابها، تكوّرت داخله، انكمشت، انثنت فيه، ضمّت رجليها إلى يديها واستسلمت، لم تصح، أصابها صمت وفزع رهيبان، تصوّرت أنها ستستغيث، أخذها كلب من رأسها، وظلّ الثاني يلفّ ويدور حول رجليها وبطنها، كان الثاني كلبة بأثداء سوداء متحشّفة. أصابني السعار من داخلي، لن تنهش الكلاب جدّتي، هذه أعظم امرأة يعرفها تاريخي، فيها تكمن جغرافيتي،

سأموت في تقاطيع جلبابها، بين ثدييها الرائعين سأموت، تكوّرت في معطفي وأخذت أركل في شتّى الجهات، أضرب بيديّ ورجليّ كيفما اتّفق، ضممت جدّتي إلى صدري، قبّلت رأسها، اطمأنت إليّ كأنها لم تلدني إلا في يوم الكلاب، اكتسبت من طمأنينتها قوّة غريبة، صرت أحوزها إلى جانبي وأركل وأضرب. سال دمي وسالت دماء الكلاب، المهم ألا تصاب جدتي بأذاهم. كلاب نجسة، سأتنجّس معها وتبقى جدّتي طاهرة كما ولدتها أمّها. كانت الكلاب قوية عليّ، وكانت مسعورة تريد قتل جدّتي واغتيالي، ازداد الهلع داخلي، أصابني في قفاي، كلب ياخذ بجلباب جدّتي، يريد أن يجرّها كي يكنس بها وسخه، وآخر يقترب منّي ويبتعد، يريد أن تنغرس أنيابه الصدئة في لحمي وشراييني. نزعت عنّي معطفي، لففت به يدي اليسرى، ابتعدت عن جدّتي قليلا، صوّبت رجلي اليمنى إلى الكلب الذي أراد نهشي، اصطكّ فكّاه، ابتعد، أخذ يصيح من خبثه، كشّر، خرج بخار وخم من أسنانه وفمه، ازددت تراجعا، اتجهت نحو الكلب الأوّل، جررته من ذيله، دارَ نحوي، عضّني في فخذي، ظلّت جدّتي مكوّرة في مكانها، لم تبد حراكا، جاء السعيدي، جاءت ابنته، هربت الكلاب، اتّجهت إلى صاحب الكلاب، بصقت في وجهه، صفعتني ابنته، ركلتها في بطنها، انثنت إلى الأرض تلوّت، جاءت الكلاب، لم تستطع الاقتراب منّي، رأتني أسبّ صاحبها، خافت على نفسها، اكتفت بأن تصيح من بعيد، رجعت نحو جدّتي أخذت بيدها، قامت نحوي، ضمّتني إليها، كأنّها لم تكن ساقطة، قالت لي في عنف متمكّن، لايهمّ، لايهمّ، لابدّ أن ينجب الكلب كلبا مثله، هيّا، سنذهب الآن، لن ياخد داري ولو عضّ أذنه! لعنته لعنة أبديّة وانصرفت مع جدّتي نستعدّ لفرح أختي الذي سيكون غدا.

كانت عضّة الكلب غائرة في فخذي. قالت جدّتي إنّ عضّة الكلب تداوى بالحرمل، اشترينا من باب مراكش دواء الكلاب، دقّته جدّتي، خلطته بزيت الزيتون، وضعته فوق النار لوقت قصير، ملأت منه فخذي، كنت أشعر بألم فظيع أخذ يتبدّد مع كلّ لمسة تلمسني بها جدّتي. وفي صبيحة اليوم التالي ليوم الكلاب ذهب كلّ ألمي.

من ذلك اليوم فارقتني الأشباح الملعونة، لم يطاردني أحد ولا طاردت أحدا. ذهبت أسرتي إلى دار مريم حيث سيقام عرس أختي، وتأخّرتُ مع زوج جدّتي أرتدي ملابس جديدة وأهيّئ نفسي للفرح. زارني أشخاص غرباء، طرقوا بابي، سألتهم عمّا يريدون، أجابوني بأنّني مدعوّ إلى مركز الشرطة يوم الإثنين في الساعة التاسعة. قلت لهم: اليوم خمر وغدا أمر! لم يهتموا بكلامي، ولم أسكر في تلك الليلة ولابعدها.

انصرفت إلى عرس أختي ورقصت، رقصت وحدي، كنت مجنونا بالفرح، أذهب إلى جدّتي، أقبّل رأسها وأرقص كمن لم يفرح في حياته ولو مرّة واحدة. نسيت ألمي وخيبتي، تبدّدت منّي أشباح الفزع، رقصت معي مريم، ورقصت معي أختي الصغرى، ملأت بضحكي أفق الليل، كانت سعاد في حضني، تصوّرتها ترقص معي، رأيتها في كلّ امرأة حضرت عرس أختي، هي كلّ النساء، أو إنّ كلّ النساء هي، كانت ابتسامتها تملأ كلّ الغرف، رائحتها الرائعة في كلّ الحيطان، لوحاتها الجميلة تتراءى من كلّ جانب. هل رقصت معي سعاد في ليلة الفرح؟ لايهمّ، هي أوشبحها، هذا هو الشبح الوحيد الذي لايمكن أن أستغنى عنه. كلّ الأشباح مخيفة زائفة، وهذا شبح حقيقة، أحببته كما لم أحبّ أيّ شخص في حياتي، قطّعَتْه أيد آثمة وسيحيا داخلي إلى الأبد.

لو كانت موجّودة بيننا اليوم لرقصَتْ كما لم ترقص أيّ امرأة، هل تبدّدت سعاد؟ لا، لم تتبدّد، ستحيا بيننا من جديد. لم آكل شيئا في تلك الليلة، كنت مكتفيا بفرحِي وبالشبح الجميل أراقصه وأهمس في أذنه وفي ثنايا جسده: سنحيا من جديد.

□ □ □

في يوم الإثنين ذهبت إلى مركز الشرطة. سألوني:

- هل كنت تعرف فتاة اسمها سعاد؟
- نعم، أعرفها معرفة حقّة!
- ماذا كانت بالنسبة إليك؟
- كلّ شيء!
- نريد أجوبة واضحة ومحدّدة.
- جيّد، هذا ماأريده أنا أيضا: كانت المرأة التي أحببتها وكنت سأتزوّجها.
- وماذا وقع؟
- وقع مالم يكن في الحسبان!
- ماذا تقصد؟
- ماتت!
- قل: قُتلت!
- نعم قُتلَت!
- ومن قَتلها؟
- لاأدري.

- قلت إنّك لم تتزوّجها؟
- كنت سأتزوّجها؟
- وهذا الخاتم خاتمك؟
- نعم خاتمي!
- وهذه الدّماليج؟
- دماليجي!
- ولَم تتزوّجها؟
- اشترينا الخاتم والأسورة بقصد إقامة الفرح بعد مدّة، ولكنّها قتلت، فلم نقم الفرح.
- ومن الذي أعطاها الخاتم والأسورة؟
- أنا طبعا!
- كيف؟ دون صداق؟ دون عرس؟
- نعم دون صداق ، دون عرس؟
- غريب؟
- مالغرابة في ذلك؟ امرأة أحببتها، أعطيتها قلبي، فلم لا أعطيها رمز محبّتي؟
- نحن نعرف أنّ الذهب يعطى في الصداق؟
- هذا صحيح، ولكنّني آثرت أن أعطيها ذلك دون صداق.
- ولماذا لم تحتفظ بذلك حتّى تتزوّجها؟
- لم أرد ذلك.
- من أين اشتريت ذهبك؟
- من سوق (النَّقرة) بمدينة فاس!
- وأين سلّمته لفتاتك؟
- في دار جدّتي بمدينة فاس!
- جدّتك موجودة؟
- نعم، هي الآن في الدّار البيضاء!
- والمناسبة!
- عضّة الكلاب وعرس أختي!
- قلنا: تكلّم بوضوح.

نزعت سروالي إلى فخذي، رأوا عضّة الكلب، وحكيت لهم عن السعيدي، وعن عرس أختي، نظر بعضهم إلى بعض، وصدّقوا بعض كلامي.
- هل من الممكن أن تاتي إلينا جدّتك؟ إذا كانت امرأة مسنّة ذهبنا نحن إليها؟

- جميل، جيّد، من الأحسن أن آتي بها.
- يوم الأربعاء؟
- يوم الأربعاء.

قام أحدهم من مكانه، سلّم عليّ في احترام، سلّمت عليه، وانصرفت. كيف سأقنع جدّتي بالذهاب إلى مركز الشرطة، وبأنّ الأمر لايعدو في هذه المرّة أن يكون تحقيقا في المحبّة.

سيسألونني أنا عن المحبّة؟ غريب، أنا الذي أعطتني سعاد كيانها، ورسمت لي لوحاتها ومشاعرها، ثمّ لا أحبّ سعاد؟ لماذا هذه الأسئلة التي لاتنتهي؟ انتظر: ألا يمكن أن تكون أشباح الرعب هي التي تخافني؟ ربّما؟ ألم تخَفني كلاب السعيدي؟ ولكن: لماذا أخاف أنا من السواد؟ لماذا يرعبني الليل وتقتلني المخاتلة؟ لماذا أفزع من أن أكون هاربا؟ هل في مواجهة الأشباح تكمن حقيقتي؟ يبدو أنّ أشياء كثيرة قد اعوجّت وعليها أن تستقيم؟ لعلّ ذنبي الأكبر هو التواطؤ في هذا الاعوجاج الذي أصبحت ألمسه في كلّ خطوة أخطوها؟

وحقّقوا في المحبّة. وجدوا أنّ قلبي يَسَعُ الدّنيا، وأنّ خاطري ضيّق ضيق قلوبهم الحجرية.

سألتهم:
- هل تستطيعون قتل المحبّة؟
قالوا:
- نعم!
قلت لهم:
- أنا كافر!
قالوا:
- ستدخل جهنّم!
أجبتهم:
- جهنّم كافرة وأنا مؤمن، فكيف تحرقون الإيمان؟
قالوا:
- نحن نعرف كيف يحرق كل شيء!
- إذن، أنتم الذين قطّعتم قلبي؟
- ربّما! المهمّ عندنا أنت!
- وكيف أكون أنا أنا بدون قلب، أنتم مجانين!

كانت جدّتي تنظر إلينا في استغراب كبير، تذهب عيناها في جهاتها، تقطّب

فيما بين حاجبيها وتنظر ، لم تكد تفهم ممّا نقول أيّ كلمة، احمرّ وجهها، أصيبت بدهشة واحتمال كبيرين، أخبرتها أنّ لقائي بهم سيكون تحقيقا في المحبّة، وتنظر إليهم فلاتجد إلاّ ما يوحي بالحقد والكراهية، ماذا تصنع جدّتي وسط الكره؟

- هل كانت هذه المرأة معكم؟

- نعم، كان في داري، وكانت سعاد معه!

- وهل أعطاها خاتما؟

- أعطاها خاتما ودماليج!

- خاتما ودماليج، وقتلها!

- قتلها! أبنائي لايَقْتُلُون، أنت أحمق!

- أحمق، مزيان أيّتها العجوز، سترين هذا الكلام!

- ماذا ستفعل؟ ستكون كما كان غيرك، لاشيء، لاشيء.

- كما كان غيري؟ ومَنْ غيري؟

- كلّهم يشبهونك، أنت منهم، وهم منك.

فهمت أنّ جدّتي تعرف قواعد اللعبة أكثر ممّا أعرفها أنا. أنا شخص لايعرف هؤلاء، وجدّتي تعرفهم، اللعبة واضحة: جدّتي لهم، وأنا لنفسي ومحبّتي.

سألني أحدهم:

- ومن هذه المرأة؟

- تعرفها، تعرفها، هذه جدّتي، أنتم الذين استدعيتوها لتشهد لكم.

- لتشهد لنا، نعم، لتشهد لنا!

- تشهد لكم وتنسى أبناءها.

- ومن أنتم حتّى أشهد لكم؟

- نحن من نحن، هذا لايهمّ، نحن مكلّفون بإغلاق ملفّ المحبّة والتقطيع.

□ □ □

انتهى التحقيق إذن، وذهب كلّ إلى حال سبيله. ردّوا عليّ خاتمي، أعطوني أسورتي وتركوني إلى الدّنيا التي أصبحت عريضة ومتشابكة بالنسبة إليّ. من أين أبدأ وإلى أين سأنتهي؟

علّقت الخاتم والأسورة تحت لوحة رسمتها سعاد في أيّام الفرح. كان في اللوحة شجرة برتقال، وفيها امرأة ورجل، عريانين إلا من بعض مايستر. كانت جدّتي ماتزال في الدّار البيضاء. سألني زوجها:

- هل حقّقوا معك؟

- نعم، حقّقوا معي، وانتهوا إلى أنّني لايمكن أن أقتل.

- bien, et qu'est ce que vous allez faire maintenant ?

- سأنتظر قليلا، ثمّ أعود إلى خلط التاريخ بالجغرافية؟

- والنتيجة؟

- النتيجة هي أن أسكن معكم، سأسكن في دار جدّتي!

- جميل، والسعيدي، ماذا نفعل معه؟

- نتركه يفعل مع نفسه، لن يصل إلى حلّ، سيدور على رأسه، سينتهي، لابدّ أن ينتهي.

- وابنته؟

- ابنته؟ ستصل إلى ماوصل إليه أبوها، لن تجد حلاّ، ستصبح الحلول بالنسبة إليها مشاكل لاحدّ لها.

قالت جدّتي:

- لماذا لانقفل هذا الباب ونسكن معك في الدار البيضاء؟

- هذا ممكن، ولكنّ دارك أفضل، سنعيد إليها أيّام عزّها، سنعيش فيها طفولتنا الجديدة، وسأتزوّج!

- إذا كان الأمر على هذا الأساس فإنّني سأموت في داري وأدفن فيها، لن يأخذها منّي ولو طار الى السماء.

الرجوع إلى البدء

انتقلت إلى فاس، وفي فاس محبّتي وكياني، فيها طفولتي التي لاتنتهي، اتّخذت من غرفتي في دار جدّتي غرفة جديدة. ملأت فضاءها المستكين من لوحات سعاد، واستسلمت لحلم رائع لعلّه أن يتحقّق. كانت الأيّام الأولى التي عدت فيها إلى كياني أيام عطلة. أستفيق من نومي العميق وأنزل نحو أغوار المدينة، أتجوّل كما يحلو لي ثمّ أرجع لأتناول طعام جدّتي الذي كدت أنساه في حوانيت الهامبرغر والساندويتش. زرت المولى إدريس، وجدت أبوابه كما هي مفتوحة تستقبل المارّين والعابرين وأبناء السبيل، حزّ في نفسي أنّ (باب الوفاء) قد تردّمت فلم يعد الناس يشربون ماءها الذي ملأت منه نفسي. لايهمّ، ستحفر من جديد، سيتلألأ ماؤها كما كان من قبل، لن تقدر عين الذّئاب على ردْم عين الوفاء، هناك خلل ما، في جهة من الجهات، ولابدّ أن يكون خللا عابرا ومقيتا.

مررت بسقاية النجارين، تذكّرت أنّ سعاد رسمتها أكثر من مرّة، عرفت أنّ هذه السقاية غير قابلة لأن تتهدّم فكيف بباب الوفاء، والسقاية منها؟ غير ممكن إذن ألاّ نشرب من المولى إدريس! دخلت إلى قبّة الضريح، تنفّست من هوائه، أحسست أنّ رئتيّ تنتعشان من رائحته، تنفثان تلوّث السجائر والطرقات المتشابكة، وتمتلئان، تمتلئان من عبق السنين الرائعة التي عشتها في المحبّة والبراءة.

زرت دار ياسمين، وجدت معالمها قد تغيّرت كثيرا، باب الدّار أصبح معوجّا من خشب رديء لاقيمة له، طليت الحيطان الجميلة بصباغة صفراء فاقعة، لم أتجرأ على أن أدخل كما كنت أفعل في زمن مضى، قلت: تلك مرحلة انتهت فلا داعي لأن أشغل بها نفسي التي انكسرت في هذه الدّار. أنا متأكد من أنّ ياسمين غرقت في الدّار البيضاء، فلامعنى إذن لأن أبحث في الفراغ.

ذهبت إلى مركز الشرطة في النجارين، رأيت أنّه أخذ يتحوّل كما كان في الطفولة إلى مدرسة، تأكدت أنّ ردم باب الوفاء ليس سوى مرحلة عابرة، تساءلت: أما يزال ماؤها يجري تحت الردم أم أنّه غار فيما غار من بعض عيوننا البريئة؟ أجبت: المياه الجميلة لاتغور، بل تتحوّل من عين إلى عين فلابدّ أن أبحث!

أجابتني امرأة تبيع الشموع: قد حوّلوها إلى هذه الجهة فاشرب منها؟

شربت، لم أحسّ بطعم الماء كما كان نميرا صافيا يسقي مسامّ الروح وثنايا الجسد. قلت: ليست اللعبة ماء بماء، وإنّما الأمر يتعلّق بالتربة أيضا، لعلّ تربة باب الوفاء وحيدة في الدّنيا فلا معنى لأن نعوّض ماء بماء، بل لابدّ من حفر هذه العين حتّى تتدفّق كما كانت رقراقة طيّبة كلبن الأمّهات، لابدّ أن نشعل فيها شمعة الفرح والطمأنينة، أليس للأمكنة قداستها؟ فلماذا تردم هذه العين وينطفئ نورها؟ في الأمر خلل ما وسأحاول البحث عن هذا الخلل.

ألا يكون ماؤها قد اختلط بالشوائب والأدران فيحتاج إلى تصفية؟ ولكن لماذا الردم؟ ألم يكن في الإمكان أن تصفّى هذه العين وتبنى من جديد ثمّ يشرب منها كلّ داخل إلى باب الوفاء دون أن يلاحظ هذا التنافر بين الردم والدخول إلى المولى إدريس؟

مررت بقنطرة الرصيف، وجدتها قد تهدّمت وشقّوا في مكانها طريقا ضيّقا لن تمر منه إلاّ إذا تنفّست الصعداء. تذكّرت المهندس الذي رماه عبد اللطيف بقشرة البرتقال. استخلصت أنّ هذه الهندسة قديمة جدّا، فلماذا لايشقّون طريقين حتّى لانضيق داخل أجسادنا ونختنق كما اختنق أبي. للأماكن سحرها، فماذا بقي من سحر قنطرة الرصيف؟ نعم دكاكينها جميلة فيها العسل وفيها السمن وزيتون البساتين، ولكنّ فيها سلعا أخرى مختلطة ومتنافرة فلابدّ أن يتنافر فيها الإنسان أيضا. في التناسق سحر رائع، في الانسجام السكينة والفرح.

ماذا تفعل الكاسيت فيديو مع عسل زرهون؟ رأيت واحدا يبيع الدجاج الأصفر بالتقسيط، ويبيع معه الزهر الذي كنّا نقطره! سيتنفّس الزهر رائحة السيكاليم وسنضمّخ أجسادنا بعطر الدجاج الأصفر. هل هي لعنة جديدة؟

يبدو أن أشياء كثيرة قد اختلطت، وأنّني سأختلط أنا أيضا. صار فرن (السي احمد) يعمل بالكهرباء. فلابدّ أن يرتفع ثمن الخبز، سقاية (سيد العوّاد) غبرت فيما غبر من معالم القنطرة، سيرتفع إذن ثمن الماء. سيشربنا الماء، وستشعلنا الكهرباء! إنّنا نتطوّر. صار المؤذن في مسجد الرصيف بمكبّر الصوت، لن يؤنس الغرباء، سيزعجهم في هذه الغربة الحقّة. لاحظت أنّ حوانيت الزيتون قد كثرت، أصابني فرح عميم، قلت إنّ الخير قد شمل البلاد والعباد، سألت جدّتي عن هذا الزيتون

الملوّن، أجابتني أنّهم يسلقونه ويخلّلونه بالليمون الرّومي في يومين أو ثلاثة، ذقته، لم أجد له طعما، قلت: قد أصبنا بعمى الألوان والألسنة، وسنصاب أيضا بعمى الأجساد، وتلك هي المشكلة. أحرقوا فندق الشماعين، وتناثرت بجانبه دكاكين التمور من شتّى الجهات والأصقاع، وكانت تمورا لامعة تكاد تشتعل، شككت في الأمر، سألت جدّتي، أجابتني بأنّهم يطلونها بالزيت! ثمّ هي تمور مشبعة بهواء أماكن التصبير ورطوبتها، ولذلك فهي ثقيلة في الميزان، اختلط مذاقها بمذاق الزيت فلا فائدة فيها. ناكل إذن أشياء مخلوطة ومتنارفة. مررت بدار عبد اللطيف، وجدتها قد تحولت إلى خربة، الذي أعرف أنّ الخربات هي التي تتحوّل إلى دور، فكيف تتحوّل أيام (العيساوي) إلى خراب؟

وممّا قالته جدّتي أيضا أنّ شراب الكوكاكولا أصبح أغلى من اللبن! أجابها زوجها الضرير: إنّه لبن مخلوط بالماء؛ عقّبت قائلا: ثمّ إنّ موادّه الدّسمة منقوصة.

زرت أمّي، وجدتها قد اكترت جزءا من منزلنا، لضيق ذات يدها أوّلا، ثمّ لأنّها بقيت وحدها بعد أن تزوّجت أختي الصغرى.

في هذه المرّة أحببت ابنة الجيران؛ لا، لم أحبّها، كانت رغبتي في أن أتزوّج قد جرفتني.

لم تكن ابنة الجيران جميلة، ولا كانت قبيحة. كانت فتاة عادية تصلح لتربية الأبناء، وكانت معلّمة. هي التي اكترت من أمّي نصف منزلنا. كان لها أخ صغير؛ أبوها يشتغل حلاّقا من النوع الفقير، وأمّها امرأة طيّبة كما حدّثتني بذلك أمّي. لم يكن قد مضى على سكناهم في منزلنا سوى شهرين أو ثلاثة. فتاة لاأقول أنيقة، ولكنّها نظيفة بيضاء السحنة. يبدو أنّ أخلاقها لم تتغيّر كثيرا في زمن التغيّر. يظهر ذلك من أنّها لا تضع مساحيق كثيرة، أحمر شفاهها ورديّ في أغلب الأحيان، لها ثلاثة أو أربعة فساتين هادئة، عيناها محتشمتان بعض الشيء. سأتزوّجها وأرتاح من الدّنيا وترتاح منّي. لماذا هذه الرأس عندي لاتدخل رأسها؟ يبدو أنّني أحشر أنفي في شتّى الجهات؟ أليس من الممكن ألاّ يكون لي أنف؟ لماذا لاأقطع لساني وأبتر فضولي؟

قلت لابنة الجيران: سنزور جدّتي... استغربت هذه الدّعوة الغريبة، ثمّ لم تمانع بدافع الفضول. كأنّها كانت تريد أن تتعرّف على جدّتي بعد أن تعرّفت عليّ.

هيّأنا لها استقبالا بسيطا كأيّامنا الماضية: كأس شاي وحلوى كانت تحضّرها جدّتي من الدقيق والسمن والسكر، فلا آكل حلوى مشابهة لها مدى حياتي! هل ضاع زمننا البسيط؟

رشّتها جدّتي بماء الورد فلم تستحسن ذلك ولارفضته. سألتها: هل تتزوّجينني؟ قالت: دعني أفكّر.

تركتها لتفكيرها، ثمّ لقيتها بعد بضعة أيّام صحبة شابّ وسيم يبدو أنّها تحبّه. لم تشدّني إليها غيرتي، بل شدّتني إليها الرغبة في أن يكون لي أبناء من أيّ امرأة كانت. تظاهرت بأنّي لم أرها وبأنّي لو كنت قد رأيتها فإنّ صاحبها لايعدو أن يكون شخصا تعرفه. وكذلك كان، سألتها عنه فأجابتني بأنّه أحد أقربائها. لم أحتج إلى أن أصدّق جوابها، فهو صادق من تلقاء نفسه، ثمّ إنّني لاأحبّها هذه المحبّة التي قد تثير شكوكي وهواجسي.

مرّت أيّام على تفكيرها ولم تجبني، كأنّها لم تبال بطلبي، إذن فهي لاتحبّني لأنّها لم تشعر بمحبّتي. هل أستعيد خططي القديمة وأعيد زمني في هذه الفتاة؟ وهل أنا قادر على ذلك إذا قدرت؟ ألا أشعر بأنّني قد فقدت أكثر قلبي؟ هل أصبت بعمى المحبّة بعد خيبتي الكبرى؟ وكيف أحيا دون محبّة؟

في المرّة الثانية لقيت جارتي مع شخص يقاربني سنّا، شخص أنيق وعاقل، تظهر عليه سمات الاتّزان والرصانة أكثر ممّا تظهر عليّ. هو بربطة عنق وأنا قلّما أهتم بهذه العلامةالوقورة. بذلته زرقاء داكنة كأنّه يحتفل باللقاء بجارتي، وأنا قليلا ماارتديت البذل، وعادة مايكون احتفالي بأقمصة مزركشة وألوان منفتحة. صاحب جارتي ذو نظارات سوداء، وأنا أنظر إلى الدّنيا بعينين مجرّدتين. هو أطول منّي قامة، يميل إلى أن يكون أقوى منّي جسما، وأنا نحيل، شرّدتني أسئلتي وتاهت بي رحلة متشابكة فبدوت حزينا مثقلا بهمومي.

طلبت منّي جارتي أن أعيرها كتابا في تربية الأطفال. فهمت من ذلك أنها ما تزال تفكّر في زواجي بها، وأنّها تريد أن ترضي فضولي لمعرفة الشخص الأنيق الذي كانت بصحبته. سألتها عنه فأجابتني بأنّها تعرفه في علاقاتها المختلفة داخل المدرسة وداخل المجتمع. وحين طلبت منها في بلاهة كبيرة أن تحدّثني عن أصله وفصله، تضايقت من لجاجتي وأجابتني في وضوح:

- هذا أمر لايهمّك، هل ستفرض عليّ نوع العلاقات التي تربطني بالناس؟ ثمّ إنّني أرفض أن تراقبني!

فهمت أنّ الغيرة التي اصطنعتها غيرة ضحلة ولامحلّ لها من المحبّة. هذه مسألة لاتخفى على النساء، يعرفنها بالحدس والغريزة، ربّما يكون جفاف عواطفها من جفاف عواطفي، إذن لاداعي لأن أسألها عن قضية الزواج. أعطيتها كتابا مترجما لجان جاك روسو، ومقالا مركّبا من نصوص للجاحظ وابن طفيل في تربية الأطفال.

كانت جارتي قارئة جيّدة، فهل أحبّها محبّة معرفية؟ هل أثير إعجابها من هذه الجهة فتدرك معي أنّني غير مسؤول عن العواطف الجميلة التي أخذت تتغير في نفسي وتتصلّب لتنفلت كأنّها عواطف لم أكتوِ بها في الأيّام الغابرة؟

يبدو أنّني أصبحت غريبا عن نفسي أكثر من غربتي عن الدّنيا التي تغيّرت في وجهي وأمام عينيّ؟ هل سأتقلّص داخلي؟ وماذا يوجد داخلي؟ لاشيء. . . لاشيء.

سألت جدّتي عن الزواج بجارتي، وعن أنّني لا أحبّها كما تقتضي القاعدة في كلّ زواج. أجابتني بأنّ المحبة قد تنشأ بعد الزواج. سألتها: وإذا لم تنشأ هذه المحبّة الزواجية؟ قالت: يفعل الله خيرا. توكّلت على الله وعزمت، أعطيت لجارتي كتابا لبياجي ومقالا عن ابن خلدون، وأخبرتها أنّي عقدت الأمر على أن أتزوّجها، فردّت عليّ بأنّها لم توافق بعد. فهمت أنها توازن بيني وبين الشخص الثاني الذي لقيته معها. ولكنّني لقيتها بعد أيّام في مقهى فندق زلاغ صحبة فتاة وشابّين اثنين.

هنا بدأت غيرتي تتحرّك: مظهر هذه الفتاة متنافر مع سلوكها. هل تعدّدت علاقاتها إلى هذا الحدّ الذي لم تعد تهتمّ فيه بهذه العلاقات؟ من تكون الفتاة الثانية؟ ومن هو الشخص الثالث؟ هل يهون عليها أن ألقاها في كلّ مرة مع وجه جديد؟ من الذي يحبّها من هؤلاء؟ ومن الذي تخونه منهم؟ وهل تحبّهم جميعا؟ أم أنّها تخونهم جميعا؟ ربما يكون الأمر على عكس ما أظنّ؟ أليس من الممكن أن تكون علاقاتها بهم كأي علاقة بين رجل وامرأة؟ أي أنها تتحدّث إلى الرجال كما يتحدّثون دون أن يكون لها بهم أيّ علاقة وثيقة؟

ثمّ ما هذه الغيرة العقلانية التي تسلّطت عليّ؟ هل تقدر عواطف الإنسان على أن تجفّ إلى هذا الحدّ؟ لو كانت سعاد هي التي رأيتها في هذه المشاهد لصحت في وجهها بالخيانة ونكث العهد وتزوير المحبّة، لو كانت ياسمين هي التي تخونني بهذا الشكل المضحك لقتلت محبّتها في ذاتي. ولكن جارتي لا تحبّني، فلماذا أقارنها بياسمين وسعاد؟ هل فاتني ركب المحبّة؟ نعم، لقد انشغلت بمشاكل لا قبل لي بها، أنهكتني أسئلتي وترّهاتي فأخذ يبدو عليّ نوع من الشحوب وأنا ما أزال في شبابي، ولكنّني بالرغم من ذلك لم أكد أفقد وسامتي المتواضعة، ثم إنّني ما أزال طيّبا وودودا في علاقتي بالنساء، فلماذا تكرهني جارتي؟ لا، هي لا تكره، قد يكون أنّها تجرّب محبّتي؟ فلأترك لها الوقت الكافي ولأجرّب محبّتها.

يبدو أنه من البلاهة الآن أن أنتقل إلى منزل أمّي. ألا تكون القضية كل القضية في هذه المسألة؟ أليس من الممكن أن تكون جارتي قد طرحت على نفسها هذا السؤال؟ ثم أجابت عنه تلقائيا بأنّني لو كنت أحببتها حقّا لما كان استقراري في دار جدّتي استقرارا نهائيا لا يقبل الجدل؟ إنّ جفافها من جفافي ولا مبالاتها من لا مبالاتي.

كانت زياراتي لبيتنا زيارات متقطّعة، لا أقضي الليل هناك البتّة، كما لا أتناول طعام الغذاء عند أمّي إلاّ لماما. في الصباح أذهب إلى المقهى القديم الذي كنت أتردّد عليه في أوّل شبابي، آخذ كأس القهوة كعادتي وأدخّن كما كنت أدخّن، أقرأ

الصحيفتين اللتين تعوّدت على قراءتهما مدى حياتي، ولا أتحدّث إلى أحد. تغيّر جوّ المقهى كثيرا، أصبح يجلس فيه من هبّ ودبّ من الخلق، لا تجلسه الفتيات كما هو الأمر في أغلب مقاهي الدّار البيضاء، كراسيه أصبحت من البلاستيك، صاحبه توفي وأصبح يملكه صديق له تزوّج زوجته، كانت فيه صور لممثلين أمريكيين أضيفت إليها صور الكاراطي وصور فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب فبدت حيطانه مختلفة أكثر من اللازم.

أتغذّى، أنام قليلا إن نمت، ثمّ أذهب إلى المدينة الجديدة لأجلس في المقهى الذي تعوّدت أن أجلس فيه مع سعاد في زمن المحبّة القديمة، أقرأ وأتأمّل الدنيا في هدوء وحزن كبيرين، كأنّ جروحي أصبحت غائرة في نفسي فتعوّدت عليها، أسمع صداها من بعيد، وأستحضر لحظات الفرح لأزيل الغشاوة السوداء التي قيّدت حياتي بعد مقتل سعاد. آخذ صورة من صورها المبتسمة، أتذكّر طعم شفتيها، رائحة جسدها الطريّ، ذراعيها، صدرها الممتلئ بالدفء، صفحة بطنها البيضاء، أهيم في جسدها الذي ضممته إليّ وضمّني إليها، ثمّ أصاب بالفزع، أطرد فزعي بلحظات الفرح. مرّة في طنجة، ذهبنا إلى رأس سبارتيل، لنرى مغارة هرقل. ضممتها إليّ داخل المغارة، تنفّست رائحة شعرها، انْثَنَت إليّ، قبّلت عينيّ، صفحة وجهي، منحتني شفتيها، امتزج ريقي بريقها، فتحت صدفات فستانها، قبّلت حلمات نهديها، اتكأت بظهري على حائط المغارة، لمست خاصرة سعاد، امتزج جسدي بجسدها، خرجنا من المغارة، تهاطل مطر غزير، مازال طعم شفتيها الذي امتزج بحبّات المطر يسكن جسدي، رجعنا إلى طنجة في حافلة للسياح، أعجبهم مشهدنا فسمّونا: les amoureux des nuages sombres، ودَعَوني إلى أن أقبّل سعاد أمام الملأ ففعلت. كيف يمكنني أن أنسى هذه المرأة؟ إنّها أكبر من النسيان! ثمّ لماذا أنساها؟ هذا أمر يهمّني.

كانت جارتي فتاة مكسّرة الخاطر، لم يكن الحلاّق أباها، بل كان زوج أمّها، أبوها متزوّج، وله أبناء آخرون. عاطفة الأخوّة لديها متنافرة: أخ من أمّها، وإخوة من أبيها. وكانت هي التي تؤدّي كراء البيت، تريد أن تردّ لزوج أمّها بعض جميله.

لم أسألها عن أصدقائها الذين رأيتهم معها في فندق زلاغ، بل تعمّدت أن أسألها عن الكتب التي استعارتها منّي، تجاهلت سؤالي الجامد وخاطبتني:

- لماذا لم تسلّم عليّ حين رأيتني؟
- لأنّني لا أعرف الجماعة التي كانت معك.
- كان بإمكانك أن تجالسنا.
- هل أجلس مع أناس لا أعرفهم؟

- أنت تعقّد المشاكل .
- قد تصير البساطة تعقيدا .
- يبدو أنّك لا تريد أن تتعرّف على الناس؟
- ماذا سأعرف بعد ما عرفت؟
- الدّنيا فسيحة؟
- قد تكون كذلك، ولكنّني لا أريد أن أعرف أكثر، يكفيني ما رأيت .

عيناها توحيان بأنّها لم تجرّب الدّنيا سوى تجربة سطحية، هي لا تدرك منها إلاّ أن تتكلّم لهذا أو ذاك ممّن تصادفهم في طريقها إلى الحياة، الظاهر أنّنا غير متكافئين، كيف ألائم بين عينيّ المليئتين بالحزن والانكسار وعينيها المحتشمتين والمليئتين بالتساؤل؟ أنا أكلتني أسئلتي، وهي ما تزال تتطلّع إلى الدّنيا .

سألتها عن صديقتها، أجابتني بأنها صديقتها في العمل وأنهما كانتا صحبة خطيب هذه الصديقة وصديقه .

لم أشغل نفسي بأجوبتها الجاهزة، هذه الأمور لا تحتاج إلى أجوبة، فلماذا أسأل عنها، تغيّر كل شيء فلابدّ أن أتغيّر .

اشتريت لها هدية جميلة واستدعيتها لمطعم أنيق لم أكن أعرفه فيما مضى .

قدّمت لها الهدية، لم تبال بها، شكرتني، طلبت بيتزا، وطلبت سمكا .

سألتني عن ظروف عملي، أجبتها بأنّني أدرّس التاريخ، قالت إن التاريخ لايعجبها، لأنّه يتعلق بالماضي . فهمت أننا أصبحنا نعاني من غربة الجيران . نعم، عشت ذلك في الدار البيضاء، ولكنني لم أكن ألاحظه، أمّا الآن في فاس فإن الأمر يختلف .

أكلنا بسرعة وانسحبنا من المطعم الأنيق بدعوى أنّها لا بد من أن تعود إلى المنزل قبل أذان العشاء .

صحبتها إلى باب منزلنا، راودتني نفسي في أن أقبّلها، لم أفعل، سلّمت عليها ومضيت لأقضي الليل في دار جدّتي . أخذت ديوان شعر، وقرأت القصيدة التي كانت تحبّها سعاد مرّتين، دخّنت كثيرا، ولم أنم إلا عند مطلع الصّبح .

جاءت أختي من الدّار البيضاء، أمضت في بيت أمّي أربعة أيّام، سألتها عن زواجها، أجابتني بأنّها في سعادة كبيرة، وبأنّها حامل من شهرين . سألتني عن انتقالي إلى فاس، أخبرتها بأنني ما أزال أتردّد، طلبت منّي ألاّ أتركها وحيدة في هذه المدينة العارمة . قلت :

- وأنا وحيد أيضا في هذه المدينة المتنافرة .
- الفلسفة هي الفلسفة، ياكما عاود الحبّ؟

- لا، ليس حبًا هذه المرّة.
- وما هو آلبير كامي؟
- شيء غريب عليّ، لا أكاد أعرفه.
- ومن صاحبة الشأن هذه المرّة، شي وحدة غادي يجمعوها واللاّ غايقطّعوها؟
- والله لا أدري، ربّما يجمعونها ويقطّعونها في آن واحد.
- ومن تكون هذه المقطّعة المجموعة؟
- ابنة الجيران.
- إيوا اخطبها واجمعها.
- سأفعل، سأفعل.

تركتني أختي ومضت لزوجها وحملها، لم تكن سخريتها منّي هذه المرّة سوى شيء تحاول أن تسترجع به ذكرياتنا الجميلة، كانت سخرية مصطنعة، ولها الحقّ في ذلك، هل سأكون مركز العالم بالنسبة إليها؟ يبدو أنني أنانيّ في حزني، أريد أن أشرك فيه كلّ الناس، ولكن، لماذا أرتبط أنا بجدّتي كلّ هذا الارتباط؟ لماذا كرّست حياتي لبيت الوقف الذي تسكنه؟ هل سأسكن فيه؟ ما هذه الأسئلة الجديدة التي تكسّر رأسي، جدّتي غير قابلة للنقاش، أتغيّر، قد يكون ذلك، ولكنّي لن أتغير لهذه المرأة التي أحبّتني دون حدود.

بالرغم من كبر سنّها، والمرض الذي أخذ يدبّ إليها، فهي لا تكاد تنام إلاّ إذا طرقت بابها وتناولت العشاء معها، واطمأنّت إلى أنني غير حزين هذا الحزن العويص الذي يصيبني بين حين وآخر فأطرده داخل نفسي لكثرة ما تعوّدت عليه. هذه امرأة غير خاضعة للنقاش، ولا يمكن أتغيّر لها إذا تغيّرت.

سألتني جارتي:
- لماذا لا تسكن مع أمّك؟
- لأني أحبّ جدّتي أكثر، وهي أمّ أمّي كما تعرفين، إذن فأنا أحبّ أمّي محبة مضاعفة؟
- وأمّك وحيدة؟
- نعم، ولكن جدّتي امرأة عجوز، وزوجها ضرير لا يرى إلاّ الظّلمة، ثم إنها مهدّدة في بيتها الذي عشت فيه سنوات عمري الجميل.
- وعمرك الآن، أليس جميلا؟
- عمري، لا، ليس جميلا، أصبح جافًا، يتصلّب، ييبس من داخله، ربّما يصير خشبا.

نظرت إلى عينيّ، لم تفهم فيهما شيئا، سلّمت عليّ ومضت إلى حالها.

كنت كلّما آلمتني جارتي احتميت بصورة سعاد وذكرياتها الغابرة داخلي. أرتوي من ابتسامتها، وأرتاح إلى نظراتها المستكينة، أستعيد أيّامي معها فأفرح وأعاود الفرح في صورها.

□ □ □

اشتريت لجدّتي جهاز تلفاز، كانت فرحتها عارمة، صعدنا إلى سطح الدّار لتركيب الهوائيّ، ساعدني زوجها في ذلك، وظلّت هي تشرئب برأسها من هذه الجهة إلى تلك علّها تلاحظ بعض جيرانها ينظرون فتفخر بأنّ ابنها قد أهداها هذا الجهاز العجيب الذي تكاثر في المدينة إلى حدّ يثير الدّهشة.

كانت فرحة جدّتي بمن اشترى الجهاز أكثر من فرحتها بالجهاز نفسه. علّمتها طريقة تشغيله، ازداد فرحها، جلست أمامه في الأيّام الأولى من بداية برامجه إلى نهايتها، لاتكاد تبرحه إلاّ لتعود إليه، أنساها التفكيرَ في السعيدي بنحو ما أنساها ألم المفاصل الذي أخذ يسيطر عليها في شيخوختها. أعجبها في التلفاز صوره المتحرّكة أكثر ممّا اهتمت بمحتواه، أمّا أغانيه فكانت تتّبعها أغنية أغنية فتستحسن بعضها وتعلّق على أكثرها قائلة: زْمَامْر عاشورا. وحين يتحدّث التلفاز بالفرنسية تسأل زوجها عمّا يقولون فلا يجيبها. وتسألني فأقول: هذا أمر لايهمّك، أنت امرأة مسلمة وهؤلاء يتحدثون عن دينهم، اتريكهم لشأنهم، وأخيرا تركتهم.

كانت حرب الهند الصينية على أشدّها، اهتمّ بها زوج جدّتي كثيرا، وأعجب بانتصارات هؤلاء البسطاء ويقول عمّن يحاربهم: Ils sont sauvages ces politiciens de l'amérique. ثمّ اهتم بقضية الزنوج في أمريكا نفسها معلقًا: qu'elle différence entre un blanc et un noir? nous sommes tous des êtres humains. وحزن كثيراً لمقتل كينيدي. ألم يكن زوج جدّتي إنسانا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة؟ في حرب 67 بكى، لم أكن أراه يبكي من قبل، امتلأت فجوات عينيه بدموع دافقة، أرسل زفرات متقطعة، اختلطت كلماته بدموعه وهو يقول: كم أتمنّى أن أموت في هذه الحرب! بكت معه جدّتي حين فهمت بأنّ اليهود قتلوا أكثر المسلمين. خاطبها بأنّ إسرائيل ليست هي اليهود، لكنّها لم تفهم. قال لها متوتّرا ماتزال دموعه لم تتورّع بعد: إنّني عاشرت اليهود كثيرا، لهم دينهم ولنا ديننا، وهذا الذي يفعلونه دين جديد يبعدهم عن أصلهم، إنّهم يقتلون الأطفال والنساء، ويأخذون أراضي غيرهم، هذه صهيونية وليست يهودية!

بقدر ما أدخل التلفاز الفرح إلى قلب جدّتي، بقدر ما أدخل إليه الحزن، وكان الحزن أكثر، أتلف التلفاز أعصابها المتهالكة، لعب كما يريد بوجدانها، ثمّ تساءلت: لماذا لاينقل هذا الصندوق أخبار الفرح: الأعراس، أعياد الميلاد، مواسم الحصاد وجمال البحر، كأنّ يد الشؤم تحرّكه. هذه طائرة محروقة؟ وهؤلاء أطفال جائعون؟ أين الآكلون إذن؟

عدلت جدّتي عن أن تفتح الجهاز في وقته المحدّد، وضعت فوقه منديلا أبيض مطرّزا بطرزاتها الرائعة حتّى لايعلوه الغبار، وأخذت تشغّله دون صوت في الساعة السادسة، ثمّ تعمد إلى أن تعلي صوته بعد الثامنة أو التاسعة.

لم أتدخّل في شأنها مع هذا الجهاز، تركت لها حرية الاختيار. وزوجها يصرّ على أن يسمع الأخبار، فيضطر إلى أن يسمعها معها بالعربية. تلفاز جدّتي جميل بالمنديل الذي وضعته فوقه، ولكنّه معطّل في أغلب أوقاته.

قلت لها: سآخذ المذياع إلى غرفتي!

وجدتها قد وضعت له طاولة من المرمر، واستبدلت بمنديله القديم منديلا جديدا طرّزته من حرير. أترك المذياع على الهامش، وأقرأ مااستطعت القراءة، ثمّ أتأمّل صور سعاد لوقت لاحدود له.

مرّت سنتان أو ثلاث على تعلّقي بجارتي، ولم أحصل منها على شيء. أقبّلها خلف باب منزلنا فلا أشعر بشفتيها، تتركني أفعل ذلك في تلقائية فاترة، أضمّها إلى صدري وأحاول أن أثير فيها محبّتي، فتترك جسدها ينكسر بين ذراعيّ دون أن ينكسر قلبها.

كانت جارتي من خشب، وكان قلبي مايزال من دم ولحم طريين. ماذا أفعل بشفتيها الباردتين؟ هل أتزوّجها لأتزوّج، أم أتزوّجها لأبدأ من جديد؟

لا، لن أستطيع البداية، ربّما أكون قد انتهيت؟

□ □ □

وجاءت ابنة السعيدي إلى فاس، وكانت قد استقبلتنا في بيت أبيها بالاحتقار، فاستقبلناها في بيت جدّتي بالاحتفاء. لم ترض بالدّخول فأقسمت جدّتي على أن تدخل.

جاءت في مهمّة، أبوها يموت، وهي تريد أن تصفيّ إرثه! اندهشت لها، تتحدثّ عن موت أبيها كأنّها تتحدث عن موت فأر. قالت إنّها وحيدته، وهي تريد أن يكتب لها كلّ مايملك، بيعا وشراء قبل موته. وقالت أيضا إنّه تزوّج امرأة جديدة تريد أن تسيطر على كلّ مايملك وكلّ مالايملك. ولكنّها لن تستطيع. كانت هذه المرأة فيما

تقول ابنة السعيدي خادما عندها، لا أصل لها ولا فصل، قميئة كأنّها القرد أو السلحفاة، وأبي كما تعرفون ماتت زوجتاه، فاضطرّ إلى من يقوم مقامهما، ورأى عندي هذه البرصاء التي احتالت علينا ودخلت بيتنا من أوسع أبوابه. أكل من يدها فخلطت طعامه (بالتُّوكال) وهو الآن يموت. قتلته وقتلتنا. كان في صحّة تامّة، الآن لايعقل مايقول، سيكتب لها إرثه، ألم تأت إليكم؟

تساءلت: لماذا ستأتي إلينا نحن؟

لابدّ أنّها ستحتال على كلّ من له علاقة بنا، حرباء متلوّنة، إيّاكم أن تسمعوا كلامها، ستبكي بينكم، ستطلب مساعدتكم، ستقول إنّها يتيمة فقيرة لاأحد لها غير الله، هكذا هي، بكاء أملس، وقلب قاتم، تخاف وتحتال لخوفها، حاولت أن أتفاهم معها فلم تتفاهم، عقرب جائعة.

سألت ابنة السعيدي:

- وماذا تريدين منّا؟

- أريد أن نتكاتب!

- نتكاتب؟كيف؟

- تسكنون في الفوقي، وتعطونني السّفلي؟

- هذه دار وقف، لا بيْع فيها ولاشراء؟

- أعرف، أعرف، أتنازل لكم وتتنازلون؟

- عن أيّ شيء تتنازلين؟ أنت لاتملكين شبرا واحدا في هذه الدّار، وأبوك كذلك، ثمّ إنّنا اشترينا منكم حقّ السكن ولو أنّ الأمر باطل من أساسه.

- باطل، أبي ورث هذه الدّار من زوجته الأولى، وتقولون إنّه باطل؟

- هذه الدّار لاتورث، هذه دار يسكنها من يستحقّ ذلك، ماذا ستفعلين أنت فيها، أغناك الله عنها، ألم تقنعي بما لديك؟

- سأصلحها؟

- وبعد الإصلاح؟

- آخذ السفلي، أجعله مطعما للسواح.

- والسطح؟ ستجعلينه مقهى يطلّ منه هؤلاء على المدينة؟ ونحن، ماذا ستفعلين بنا؟

قالت جدّتي:

- غادي تخلّينا بين فْطا وهْوا...

قلت في نفسي: ماكرة كأبيها، الثعلب يلد الذئب، والذئب يلد الثعلب، قضية شائكة فعلا.

أجابت ابنة السعيدي جدّتي:

- شوف أللا، راكُم غادي تخرجوا، بزّ منكم آو بخاطركُم.
قام زوج جدّتي من مكانه، أخذ عصاه، وأمرها أن تخرج، فخرجت تقول:
- سترون، سترون.
وعند باب الدّار قالت:
- لعن الله الزمن الذي رمى بي لآتي عندكم.
تبعها زوج جدّتي بعصاه، عثر في العَتَبة، سقط، أصابه ألم في يده، ساعدته في أن يقوم، لعنها، قلت:
-لا بأس؟
أجابني:
- لابأس، salopc qu'elle !
كانت ابنة السعيدي فعلا امرأة شرسة، لم تطمع في كلّ ماتركه أبوها فقط، بل طمعت فيما هو موقوف على غيرها من الناس، لعلّها هذه المرّة قد طلّقت أحمد، وتزوّجت أجنبيا تريد إسكانه بيننا وإطعامه من طعامنا. ستصلح الدّار، ونسكن نحن في الهواء، كيف يكون السفلي مطعما والسطح مقهى ونسكن نحن فيما بينهما؟ وكيف تصعد جدّتي إلى الفوقي وهي امرأة عجوز؟ وزوجها الضرير؟ لابدّ من أن يسقط في كلّ مرّة مرّة؟ ابنة السعيدي تطمع في الفوقي والسفلي والسطح. ولولا هذه المرأة الجديدة التي ظهرت في حياة أبيها لما قدمت إلى فاس البتّة. كان بإمكانها أن تصلح الفوقي لأنّه مايزال تحت يدي أبيها، ثمّ تجعله مطعما، وتعتبرنا بعد ذلك جزءا من إصلاحها، فيدخل علينا السواح ويتفرّجون في حياتنا التي ستظّل غريبة بالنسبة إليهم، ثمّ يخرجون، وقد نضيق نحن بهذا المشهد الضاحك منّا والمتفرّج علينا، فنترك الدّار ونستسلم من تلقاء أنفسنا. ولكنّ زوجة أبيها أصبحت الآن في العير والنفير، فماذا تصنع ابنة السعيدي بها وبنا؟ ألم يفكّر السعيدي في هذه المسألة حين تزوّجها؟ لابدّ أنّه قد فكّر، ولابدّ أنّ هذه المرأة قد لعبت به. ولولاها للعبت بنا ابنة السعيدي كما تريد.

من الذي أوحى لها بهذه الفكرة الرهيبة؟ نتحوّل نحن وتتحوّل دورنا وأوقافنا إلى فرجة يتمتّع بها الأجانب؟ لو كنت قد سألتها، لأجابتني بأنّه التطوّر. لابدّ إذن من أن نتطوّر في هذا الاتجاه، سنتطوّر، سنتطوّر.

كان لأمّي خال توفّي في مدينة تازة، ترك زوجة هي الآن في الستّين أو يزيد من عمرها، وستّ بنات تزوّجن جميعهنّ إلاّ واحدة، عانس ومتخلّفة عقليا.

ركبت إلى تازة إذن وبحثت عن ابنة خالي. فاجأني مشهدها لأنّني لم أكن قد رأيتها من قبل. كانت كالدمية بالنسبة لأمّها. لم تكن عانسا لأنّها لم تتجاوز

السادسة والعشرين من عمرها، ثمّ لم تكن بعقلها أيّ لوثة. لعلّ أمّها هي التي صنعت منها ذلك. كانت أصغر بناتها، وحين توفيّ الزوج وذهبت البنات كلّ إلى حال سبيلها، احتكرت الأم هذه الفتاة فجعلت منها دمية. وربّما استحسنت البنت ذلك لأنّها كانت جميلة كالدّمية. عيناها زرقاوان، أهدابها طويلة، شعرها أشقر، وقدّها نحيل متناسق كأنّه طيف حالم.

بدت لي أمّها خشنة وحادّة الطبع. كأنّها كانت خائفة. عليّ أن أطمئنها أوّلا.

قلت لها أوّل ماسلّمت عليها:

- إنّ جدّتي- وهي عمّة هذه الفتاة فيما تعرفين- أرسلتني إليك في أمر هامّ..

أجابتني قبل أن تسمع:

- تعرف أنّني ابتعدت عن مدينة فاس كما ابتعدت الشجرة عن الشجرة.

- نعم ولكنّنا سنردّك إلى الأصل؟

- أنا؟ أنا أصلي؟ لا، لست منكم....

- من منّا يستطيع أن يدّعي أنّه نشأ خارج المولى إدريس؟

- مولاي ادْريس؟ ايّيه، أنا شريفة دريسيّة، ولكن أنا من تازة ماشي من فاس.

- ايوا دابا كاين شرفاء تازة وشرفاء فاس؟ ماهذا الكلام؟ الشرفاء شرفاء وانتهى الأمر.

- صحيح، ولكنّ جدّتك هذه لاتعرفني ولو بدرهم واحد، أخوها توفيّ قبل عشر سنوات، ولم أرها من يوم جنازته؟

- أنت تعرفين أنّها امرأة عجوز، وفقيرة، فلماذا تزورك؟ لتثقل عليك.

- ايوا جوّجت خمسة دْلبنات، ابْنات خاها، وماحضرت معانا حتّى فوحدة.

- إيوا اسمحْ لي آ الشريفة، لو كان عْرضْتِ عليها بالشدّ والتوكيد لو كان حضْرت.

- قلت لك هادو بْنات خاها، هي خصّها تعرض راسها.

- آ الشريفة. قل الله يكون فالعون، زوجها ضرير، وهي امرأة أخذ يصيبها مرض الشيخوخة، ويشهد الله أنكم في بالها، وأنّها لاتذكركم إلاّ بالخير.

- الله يسامح علينا.

فهمت أنّها اطمأنّت، نظرتُ في عينَي دميتها فوجدت ارتياحا كبيرا. كان شعرها الأشقر مضفورا، يصل إلى خاصرتها، شفتاها وخدّاها مطليتان بالأحمر أكثر من اللازم، كحل عينيها يكاد يذهب بزرقتهما، ارتدت فستانا ملوّنا بألوان فاقعة، وفي يديها أشكال من الدّماليج والخواتم، منها البلاستيك الملوّن، والذهب الرّومي، والفضّة المزوّرة.

نظرت إليها في تمعّن، سألتها:
- ما اسمك؟
لم تجبني، ضحكت في بلاهة واضحة، أجابتني أمّها:
- اسمها حبيبة.
- اسم جميل كصاحبته...
انكسرت عينا أمّها، نظرت إلى الأرض وهي تقول:
- ادّعي معاها آولدي، الله يشافيها.
- ستشفى إن شاء الله، سنذهب بها إلى أرض المولى إدريس.
- آمين آوليدي، حتّى أنا عييت من الغربة، البنات تجوجّوا، كلّ وحدة فين امْشات، وأنا بقيت مع الله، ومكمّلة علْيَ هاد البنت.
وأخذت هذه المرأة تبكي بين يديّ، كأنّها تعرفني من زمن قديم. بكت معها ابنتها، اختلط كحلها بأحمر خدّيها، بدت ألوانها صارخة، تمنّيت أن تمسح كلّ مساحيقها، ولكنّها لم تفعل.
قمت من مكاني أريد الانصراف، سألتني الأم:
- إلى أين ياولدي؟
- سأزور صديقا لي وأعود إليك غدا.
لم يكن لي أيّ صديق في مدينة تازة، تجوّلت قليلا، ثمّ قضيت الليل في فندق دون نجوم كعادتي.
وحين رجعت إليهما حوالي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وجدت دارهما مقفلة في وجهي. رآني جار لهما، سألته عن المرأة والدّمية، قال: لعلّهما قد ذهبتا مع صهرهما إلى الناضور، ذلك أنّه رآه يدقّ بابهما حوالي التاسعة صباحا. قضيت بقية يومي أتجوّل. انشغلت بأمر الدّمية كثيرا، رجعت إلى المنزل في الساعة الخامسة، لم يكن فيه أحد: انتظرت قليلا، ثمّ أخذت القطار إلى فاس.

دميـة تـازة

حين رجعت من مدينة تازة، وجدت جدّتي مريضة لاتكاد تبرح سريرها. وجدت بجانبها أدوية كثيرة وقنّينة ماء معدني. لم أسألها عن مرضها. كنت أعرف أنّ الشيخوخة قد دبّت إليها بما فيه الكفاية، وأنّ المرض لابدّ من أن يصيبها في قلبها وأطرافها. سألت زوجها عن الطبيب الذي فحصها. أجابني بأنّه جاءها بطبيبين اثنين وينوي أن ياتيها بالثالث.

سألتها عن الألم، أجابتني بأنّه حادّ ومتنوّع، ياخذ بها من كلّ طرف. أردت أن أذهب بها إلى المستشفى فرفضت ذلك قائلة:

- إنّني أريد أن أموت في منزلي!

ابتسمت لهذا الارتباط الرائع الذي ارتبطته جدّتي بمنزلها. تحيا فيه وتريد الموت فيه. لعلّها تريد أن تدفن فيه أيضا.

تقول جدّتي إنّ كبدها تحترق، وريقها يختلط بدمها، وشرايينها لاتدفق الدّم إلى قلبها.

أحسّ ألمها في كياني، تشتعل دمائي من فرط ما أشعر بالألم، تعاودني ذكرياتي معها فأحتمي بالحنين ثمّ أنظر إليها فأجدها غارقة في فراش الموت وأقول: لعلّها ستصحو؟ لعلّ انهيارها لن يكون انهيارا؟ وأتأكدّ من أنّها مريضة تلفظ فرجها بالدنيا وتمسكها ببيتها العتيق.

كيف تموت جدّتي وهي كلّ الدنيا بالنسبة إليّ؟

أليس في الأمر خطأ كما هي سائر الأخطاء؟

وهذه الآلام المجتمعة، لماذا تجتمع على جدّتي وهي امرأة ضعيفة طيبّة كأنّها ورقة الخريف؟

ألم يكفها ألم الزمن فتضيف إليه ألم الموت؟

ماتت جدّتي، لا، لم تمت، هي في الدنيا، وسأجدها في الآخرة!
جدّتي أكبر من الزمن!
أعطيها الدواء وأتساءل: هل ستعيش غدا أم ستموت؟ أنام الليل؟ أو نصفه وأهمس في أذنها: كيف حالك؟
تجيبني نصف إجابة:
- كبدي، قلبي، شراييني تتقطّع.
فيتقطّع كياني، تحترق ركبتاي، وأكاد أموت من كثرة ما آلم الموت جدّتي في فراش موتها، أعطيها الدواء فتلفظه، تتركه للسانها وريقها وتريد الموت. كيف أعيش في موت جدتي؟ هي تشهق شهقة الموت وأنا أشهق شهقة الحياة؟ لا، لن تموت، سأسكب من كياني في كيانها ونحيا معا أو نموت. سأضمّها إليّ ونلقى الله بجسد واحد.

اشتهت حساء فطبخت الحساء، وضعت وسادة وراء ظهرها وأخرى على جانبها الأيمن، وأطعمتها الحساء جرعة جرعة، أحسّت ببعض.الدّفء نظرت إليّ نظرة الأمل واليأس، أغمضت عينيها قليلا، فتحتهما، أشارت إلى زوجها بنظرة منكسرة، ضغطتُ على يدها ضغطا خفيفا، فهمت جدّتي أنّني سأعنى بزوجها الضرير، فلا خوف عليه بعد موتها. أشارت بعينيها نحو التلفاز وقد تعوّدنا ألا نستخدمه إلاّ لماما، فهمتُ منها أنّها تريد أن تسمع صوتا آخر غير صوت الألم، شغّلت الجهاز، شاهدنا مسرحية ضاحكة باللهجة المصرية، شرحتها لجدّتي حرفا حرفا، غالبت ألمها الكبير وضحكت كما كانت تضحك في أيّامها القديمة، أعجب زوجها بطريقة شرحي للمسرحية، صاح في ضحكه: professeur excellent un es tu.
قضينا تلك الليلة بخير، جرّعت جدّتي دواءها، ونمت إلى جانبها لأتألّم إذا تألّمت.

في صباح اليوم الموالي جاءت أمّي تزورنا وتأتيني بخبر غريب:
- ابنة الجيران تريد أن تراك في أسرع وقت ممكن.
كانت العلاقة بيني وبينها قد انقطعت أو كادت، حتّى كتبي لم تعد تقرأ منها شيئا، يئست منها أو يئستُ من أن أتزوّج، لم تنشأ بيننا المحبّة التي كنت أريد أن تنشأ، ولم أغزها ذلك الغزو المعرفيّ الذي كنت أطمح إليه لأنتشلها من علاقاتها الخائبة. ضممت جرحها البسيط إلى جراحاتي الغائرة ونسيتها.
كانت جدّتي بين النوم واليقظة، فذهبت إلى ابنة الجيران أستفسرها عمّا تريده منّي.

أجابتني عن تساؤلي المندهش بلغة فاترة:
- الآن قررت أن أتزوّجك.
فاجأتني بجملتها التي لاتحمل أيّ معنى، كان ردّي خشنا أكثر من اللازم:
- وأنا الآن لاأريد أن أتزوّجك، ثمّ إنّ جدّتي في فراش الموت.
- وما علاقة جدّتك بزواجنا؟
- علاقتها أنّها جدّتي، وأنّ الموت سيأخذها منّي، فكيف أفرح؟
- للموت وقت وللفرح وقت؟
- هذا صحيح، ولكنّني لا أستطيع أن أفرح بك.
- ألم تطلبني للزواج؟
- الآن غيّرت رأيي.
- إذن أنت غير مقتنع بالفكرة؟
- كنت مقتنعا بها في البداية، ثمّ تغيّرت.
- كلّ الرجال هكذا، يقتنعون ويتغيّرون.
- لا، ليس الأمر كذلك، أنت التي تتغيّرين، لم أعرف لك شكلا محدّدا، أنا الآن أجهلك، تعدَّدْت حتّى ضاعت منّي صورتك. هل لك أن تحدّثيني عن علاقاتك المتشابكة؟
- وماشأنك بعلاقاتي، هل ستتزوّجني أنا، أم ستتزوّج علاقاتي؟
- الإنسان مجموع علاقات، ركام من التجربة، هوية يحددها الآخرون، صورة يكوّنها عن نفسه بعد أن ترتسم في ذهن غيره، هل تفهمين ما أقول؟
- نعم، أفهم كلّ ماتقول، ولكن: كيف تطلب منّي أن أحبّك وأنت لاتحبّني؟
- لا، لم أطلب منك ذلك، طرحت مسألة الزواج وأخّرت مسألة المحبّة.
- وأنا كنت أريد المحبّة أوّلا.
- أنت تعرفين خيبتي، حكيت لك كلّ شيء عن المحبّة التي خرجت منها ممزّقا، فكيف تريدين أن أحبّ من جديد.
- وماذنبي أنا؟ أنتَ خائب في المحبّة وأنا خائبة فيك.
- لا، أنت خائبة في نفسك، أكاد أجزم بأنّك جربّت المحبّة في كلّ هؤلاء الذين عرفتهم، وحين لم تجدي فيهم من يتزوّجك عدت إليّ لتجرّبي من جديد، أنا لا أصلح لك، خير لنا أن يذهب كلّ في طريق.
- وما طريقك حتّى أسير معك فيها؟
- أنا؟ لا طريق الآن إلاّ هذه الجدّة المحتضرة، لقد عشقت ألم جدّتي، هل تحبّين طريق الموت والألم.

فاضت دموع عينيّ، نظرت إليّ ابنة الجيران، ضمّتني إليها، قبّلتني في حرارة، وابتعدت عن طريقي.

كانت شفتاي فاترتين، لم تثر في أيّ إحساس أو غريزة، كان فمها عذبا وطرف لسانها شهيّا، كدت أنساق معَ شبقي، ولكنّني تماسكت ورجعت إلى داخلي. سلّمت عليها في احترام غير مقنع، وانصرفت إلى موقع قنطرة الرصيف أستعيد ذكرياتي الجميلة والخائبة، أخذتُ صورة سعاد من جيبي، قبّلتها قبلة المحبّة، ثمّ رجعت إلى بيت جدّتي. وجدت أمّي قد طبخت لنا لحما بالسفرجل، ذهبت إلى الفرن لأستعيد الخبز الذي حضّرته هذه الأمّ البسيطة، تغذّينا في فرحٍ عابر، ثمّ عاود الألم جدّتي.

غادرت المنزل، ذهبت إلى المدينة الجديدة، قصدت المقهى الذي كنت أجلس فيه مع سعاد، عاودتني ذكرياتها، فكّرت في محبّتها لجدّتي، وبكيت. لو كانت الأيّام قد سارت على ما كنت أريده لكان أبنائي من سعاد قد رأوا هذه الجدّة التي أعشقها إلى حدّ الهذيان، لو لم يكن الزمن الأعرج قد لفّني وانشقّ عليّ لربّما أطال أبنائي عمر هذه الجدّة فاستنشقوا رائحتها الطيّبة والتفّوا بظلّها الأبيض.

بكيت، وطلبت الساندويتش الذي كانت تفضله سعاد حين التقيت بها أوّل مرة. لم أجد أيّ طعم. كان طعمه في السابق متشابها، تجده له في كلّ مرّة تاكله، والآن فقدَ طعمه، لو عاش أبنائي لكانوا قد ذاقوا من طعام جدّتي الذي لن يفقد طعمه.

ابنة الجيران لا تصلح لهذا الذي كنت أريده من الدّنيا، ولن أتزوّج امرأة لغير ما أريده. لست في حاجة إلى المرأة، أنا في حاجة إلى محبّة أستطيع معها أن أواصل رحلة التعب والفرح، ما فائدة المرأة إذا لم تحبّها وتضمّها إليك في إحساس كبير بأنوثتها؟ بأنفاسها تشملك من كلّ جهة، برائحة جسدها تملأ عليك حواسّك، بشفتيها تستوليان عليك فتستسلم إلى صدرها وترتاح من تعبك. المرأة ظلّ دافئ يشملك من داخلك، ياخذك إليه، تحلم، تنسجم مع كلّ حركة من حركاته، يهمس لك بالمحبّة، تستفيق على إيقاعه، ثمّ تجد بين ثناياه امرأة تستسلم لك في طمأنينة، تنجذب إليها في حلمك، تلمسها فتثير فيك عشقا لا تعرف من أين يأتيك، تقبّلها فتجد كلّ الدّنيا قد اجتمعت في شفتيها، تضع رأسك بين نهديها فتحسّ أنّك مجنون بمحبّتها، تتلمّس صفحة بطنها، يستولي عليك جسدها، يملأ حواسّك، تندمجان، تصبحان أطرافا من جسد واحد، تنصهران في دائرة المحبّة، يشملكما إيقاع دافئ، يحسّ كلّ واحد منكما أنّه موجود عبر الآخر، فلا تكادان تستفيقان من حلم حتّى تدخلان في حلم جديد، هكذا كانت سعاد، فكيف لابنة الجيران أن تَحلّ محلّها؟

لم آكل السندويتش، أو قل إنّني بلَعْته، فهل أبلغ ابنة الجيران؟ وكيف أصنع معها حين أتزوّجها وأربط حياتي إلى جسدها؟

ذهبت إلى الحانة التي كنت أسكر فيها مع عبد اللطيف، تذكّرت الخمر التي كنت أشربها معه، كان قد انقطع ما بيني وما بين الخمر لمدّة طويلة، شربت (الرئيس)، لم أستطع أن أضحك، خرجت من الحانة، أسرعت خطواتي إلى جدّتي المريضة، وجدت أمّي قد ذهبت إلى بيتها، لم تكن بي رغبة في الأكل، استلقيت في فراش جدّتي أريد أن أنام في حضنها، لمست يدي، اطمأنّت، واستسلمت لنومها وأرقها.

كان نومها متقطّعا، تغمض عينيها قليلا، ثمّ تفتحهما قليلا، فتراني أمامها وتطمئنّ وتحاول الاستسلام للنوم والألم. أنينها يصل إلى قلبي، أحاول أن أسكب من دمي في دمها ولا أستطيع، هل ستموت حقّا، ماذا سأفعل في أيامي حين تموت، يهمس زوجها في أذني: هل تنام؟ فأضغط على يده ليطمئنّ، ثم أحرسهما معا، هذا الرجل الضرير لا يمكن أن أفارقه، سأظل متمسكاً به إلى آخر رمق، ثمّ إنّه رجل عجوز لا علاقة له بالدّنيا إلاّ هذه الجدّة التي جمعت بيني وبينه، وحين تموت جدّتي ماذا سأفعل به؟ هل سأظل معه في هذه الدّار أم سنتركها؟

نظرت إليّ جدّتي نظرة منكسرة وخاطبتني في صوت قريب من الاحتضار:

- أريد جُبنا!

ارتديت حذائي وخرجت أبحث عن الجبن في الثانية بعد منتصف الليل. أحضرت الجبن المفضل لديها، الجبن المملّح، أطعمتها قطعة منه. أحسّت ببعض القوّة، حاولت أن تجلس القرفصاء، لم تستطع، وضعت وسادة صغيرة خلف ظهرها، قبّلت يدها، قَبَّلَتْ رأسي، شعرت بإحساس غريب يسري في جسدي، وضعت وسادة أخرى إلى جانبها. تمدّدتُ فوق سريرها، واستسلمتُ لنوم مستكين، استفقت في ساعة متأخرة، وجدت جدّتي نائمة إلى جانبي، شممت رائحة أنفاسها، عرفت أنها مطمئنة، وتيقّنت من أنّ رائحتها طيّبة كقلبها الطيّب، تسلّلت من نومي إلى جانبها، وذهبت إلى مطبخها الصغير كي أحضّر فطور زوجها الضرير.

في منتصف النهار، جاء أهل تازة: الدّمية وأمّها، وصهرهما. أكرمت مثواهم، لأنّ جدّتي حثّتني على ذلك. أمرتني بأن يناموا في غرفتي ففعلت. تركت الغرفة على حالها، لوحات سعاد ترقص داخلها، غرفة تغرق في حلم الشعر وعبير الفلسفة. نامت الدّمية في سريري، ونامت أمّها وصهرهما في فراشين وضعتهما جدّتي في شكل أريكتين إلى جانب السرير. والذي لاحظته في ضيافة أهل تازة أنّ الدّمية لاتكاد تبرح غرفتي. أطلّ عليها بين الفينة والأخرى فأجدها منشدّة إلى لوحة من لوحات سعاد، تتأمّلها، فتبتسم مرّة، وتضحك مرّة، أو تتجهّم وتنقبض عيناها

فتبكي في خفوت حتّى لا نشعر ببكائها. مرّت علينا في هذه الضيافة ستّة أيّام، وفي اليوم السابع أراد صهرهما أن يسافر. خاطبني في صلابة:

- ستظلّ جدّتك في السفلي، وسيسكن هؤلاء الناس في الفوقي.

أجبته:

- أنت لاتعرف أنّ الفوقي مايزال في حوزة السعيدي وابنته ونحن لاحقّ لنا في أن نفحته إلاّ في حضور أصحابه.

- ولكنّك تقول: إنهم ليسوا أصحاب هذه الدّار.

- المسألة متشابكة، نعم ليسوا أصحابها، ولكنّ الفوقي في حوزتهم، وهم يريدون الآن أن يسيطروا على السفلي أيضا.

- والحلّ؟

- الحل الآن أن تسكن جدّتي في غرفة، وأن يسكن أهلك في الغرفة الثانية.

- وأنت أين ستسكن؟

- سأسكن في سرير جدّتي، هي الآن مريضة، وأنا أقضي الليل إلى جانبها.

- وأثاثك؟

- سأنقله إلى بيت أمّي.

اتّفقنا على ذلك، وذهب أهل تازة لينقلوا رحيلهم إلى الغرفة الحالمة.

ازداد مرض جدّتي، وتيقّنت من أنّها ميّتة لامحالة، لم تعد تستطيع أن تتجرّع الدّواء، كما لاتاكل شيئا أو تشرب، يدها اليمنى لاتتحرّك، لسانها لايكاد ينطق بشيء، أخذت تنهار من داخلها، أتأمّلها في سكينة المرض وألمه وأتساءل: ماذا سأفعل مع هذا الانهيار، في موت جدّتي موت ذاكرتي الجميلة، سيُدفن إحساسي بالدنيا حين تدفن هذه المرأة، كيف أعيش في غيابها، ماذا سأحبّ بعدها، ستصير غربتي غربتين حين أفقد هذه المرأة، أنينها يصل إليّ وأنا بين النوم واليقظة، أتمنّى أن تنهض، أن تعود إلى فرحها، أحلم بأنّها ستصحو من سكرة الموت، وستواجه ابنة السعيدي، وترفض أن تخرج من بيتها أو تنقل إلى بيت آخر غيره، وسأتزوّج، وأسكن معها كما كانت تقول، سيكون عرسي في هذه الدّار، وسيكبر أبنائي داخلها، لن تموت جدّتي، ستحيا إلى أن نموت معا أو تفنى الدنيا. في الصباح سقط لسانها، تكلّمت بالحركات التي عهدتها منها، فهمت منها أنّها تريد أن تغتسل، ثمّ ترتدي قفطانا أخضر ماتزال تحتفظ به من فترة شبابها. وفهمت أيضا أنّها تريد أن تشرب من باب الوفاء: وضعت يدها فوق رأسها أوّلا، ثمّ وضعتها فوق شفتيها كأنّها تريد أن تقبّلها.

أجبتها بأنّ باب الوفاء قد ارتدمت وأنّه لاسبيل إلى حفرها الآن.

رسمت بإصبعها دائرة في الأرض، فهمت من ذلك أنّها تشير إلى خصّة المولى إدريس.

وضعتُ سطلين من الماء فوق النار، وخرجت لأملأ لجدّتي من ماء الخصّة.

رجعت، ساعدني زوجها في أن نحملها معا إلى وسط غرفتها. نزعت عنها ثيابها، غسلتُ شعرها أوّلا، ثمّ جسدها عضوا عضوا. أمرتني بأن أساعدها في أن تتطهّر، صببت عليها الماء من رأسها إلى قدميها، ثمّ طهّرتها من اليمين إلى اليسار. بعد ذلك توضّأت جدّتي وصلّت. قرأت القرآن ودعت لي دعوات الرضى، ولفظت أنفاسها الأخيرة في قفطانها الأخضر.

□ □ □

أيّها الناس: جدّتي ماتت وستدفن في دارها. فمن سيمنعني من ذلك؟ أليس لنا الحق في أن نموت كما نشاء؟ فتحت دولابها، أخذت منه خمارا أبيض وضعته في رأسها، ثمّ ألبستها شربيلا مطرّزا بحرير ورديّ. حملتها إلى فراشها، وجلست إلى جانبها أبكي وأفكّر: كيف سأستطيع الانفصال عن هذه المرأة؟ هل ستغادرني إلى غير رجعة؟ كيف سأتحمّل الدّنيا في غيابها؟ كانت سندي في ضياعي واستقراري، وهل سأحيا دون سند؟ وماذا سأفعل في الدنيا وقد كانت كلّ دنياي؟ هل سأتيه تيها جديدا؟ أين سأجد ذاتي بعد اليوم؟ هذه امرأة حضنتني في صغري وبعد أن اشتدّ عودي، والآن تموت؟ لماذا يحدث ذلك وأنا في أمسّ الحاجة إليها؟ قد تحمّلت كلّ شيء إلاّ هذا الموت الذي سيفصلني عن الماضي الجميل الذي عشته معها. لقد تحمّلت فظاعة الموت والألم، ولكنّني لاأستطيع تحمّل هذا الشرخ الذي سيبدّدني. في الموت فراق الأحبّة، فيه الحزن والكمد واحتراق القلب، ولكنّ أقسى مافيه هو أن نتمنّى موتنا بموت الأشخاص الذين نحبّهم ثمّ لانستطيع ذلك. هل أدفن جسدي إلى جانب جدّتي أم أواصل حياتي وسط فراغ مضاعف؟

لا، لن أدفن جدّتي، سأتركها في فراشها، على هذه الهيأة التي أرادت أن تموت فيها، فتؤنسني في غربتي، وتتقاسم معي ألمي، وتمضي بنا الدّنيا في الموت والحياة. غدا أو بعد غد سأنزع عنها هذا الثوب الأخضر وأجعلها تلبس بعده كلّ ثوب جميل كانت تحبّه. غدا سألفّها في مناديلها المطرّزة وأتوضّأ معها من ماء المولى إدريس، ثمّ نصلّي صلاة الفجر. غدا سأبدأ معها رحلة جديدة هي رحلة الحياة في الموت. أيّها الناس: لن تموت جدّتي وأنا في مدار الحياة. غدا سأدخل معها إلى حلم جديد هو حلم الحياة في الموت.

□ □ □

وهذه مفاجأة أخرى يجب أتقبّلها بصدر رحب. عبد اللطيف صاهر ابنة الجيران! هو زوج أختها! كيف يقع كلّ هذا ثمّ أدعي أنّني على صواب؟ ليس الأمر خيبة هذه المرّة، فأنا خائب في عبد اللطيف من زمن بعيد، ثمّ إنّني لاأحب ابنة الجيران حتّى أخيب فيها. المسألة أكثر من الخيبة، المسألة فظاعة مستمرّة: أنا أتمنّى المحبّة فلا أجدها في قلبي، هل تحولّت إلى كومة من الخشب؟ زارني عبد اللطيف في منزل جدّتي يقول:

- قد خطبتَ جارتك!

- أجبته:

- نعم ولا!

- إذا أردتَ أن تتزوّجها، زوّجتها لك.

لعلّ عبد اللطيف هو الذي اكترى السفلي في غيابي، لو علمت بذلك لرفضت، ولكن عبد اللطيف شيء، وأخت زوجته شيء آخر، لاعلاقة بينهما تماما، هو من صنف وهي من صنف ثان، كيف استطاع أن يكون منها وأن تكون منه؟ ربّما جمعتهما مصلحة السفلي؟ وماعلاقتي أنا بهذه المصلحة؟ لم تقصد أمّي من هذا الكراء إلاّ أن يؤنسها الجيران في وحدتها، إنّها عرفت ارتباطي الحميميّ بجدّتي فأدخلت إلى دارها أناسا كالغرباء، نعم أردت أن أدعم هذه الغربة، ولكنّني وجدت ابنة الجيران فتاة مبتذلة، تمنح نفسها لكلّ طارق، وأنا أريد امرأة أمنح لها نفسي دون مقابل، وابنة الجيران لاتستحقّ ذلك، ابنة الجيران تتستّر في زيفها المتبدّد، ابنة الجيران فتاة متبدّدة من تلقاء نفسها، ربّما يكون عبد اللطيف أراد أن يجمع شملها، ولكنّه لن يجتمع له، هو من طينة وابنة الجيران من طينة أخرى، كيف تجتمع الفظاظة والتصلّب إلى التبدّد؟ أمر فظيع لامحالة. لو تزوّجت ابنة الجيران: سيكون أكثر فظاعة.

- لا، لن أتزوّجها.

تخطبها ولاتتزوّجها، هذا حرام، أمر لايعقل، إمّا أن تتزوّجها أو تترك طريقها.

- طريقها غامض، وأنت تعرف في زمنك البعيد أنّ طريق المحبّة واحد ومستقيم.

- هذا صحيح، ولكن لماذا تحدّثها بالزواج ثمّ تتركها؟

فهمت أنّها سلّطت عليّ عبد اللطيف. أجبته بفظاظة:

- عدلت عن الفكرة، هل في ذلك مايضرّ بها؟

- ولماذا تعدل عن الفكرة؟

- لأنني لا أريد الزواج.

- هذه تصلح لك.

لم أتعوّد في حياتي أن أكشف أسرار النساء، فهل أكشف هذه المرأة لهذا الرجل الفظّ؟ ماذا سأستفيد من ذلك؟ سيحاول عبد اللطيف التستّر على عرضه، وسيتّهمني في رجولتي، وسيحدّثني عن الباءة وعن خضراء الدّمن وعن أشياء كثيرة أعرفها أكثر ممّا أعرف نفسي، سيستمرّ في هذا وفي غيره، وسيذكر جهنّم وعيسى وموسى، ولكنّ القضية في رأيي لاتستحقّ كلّ هذا التشابك العويص الذي سيدخلني إليه: القضية كلّ القضيّة في أن أحبّ بقلب لم يعد قادرا على أن يمتلىء بالمحبّة. قلت له:

- أنت تعرف قصّتي مع ياسمين، وتعرف مجمل قصّتي مع سعاد، فهل تريد منّي محبّة فارغة؟

وقف عبد اللطيف في وجهي أسطوانة من أساطين العهد القديم، نظرت إليه في ضعفي واستكانتي، ثمّ قلت:

- أرجوك أن تبتعد عنّي، لقد امتلأ قلبي ألما، اتركني لحالي، أنا لاأصلح لك.

تركني وخرج غاضبا يريد أن يقيم الدنيا. وأنا أريد إلاّ أن تقوم جدّتي من مرضها المزمن، وستقوم، سأستلقي فوق صدرها الطافح بالحياة وأقول:

إنّي قد وجدت ذاتي بين نهدي جدّتي ولن أخيب، سأقبّل جبينها وأقول: إنّ ذاتي عثرت على شظاياها المتناثرة أدراج الرياح، إنّني ولدت ولادة جديدة، ولن أحتاج إلى أن أغنّي أغنية المحبّة والحزن، لن أضيع في حضن جدّتي، لن أضيع مهما ضاعت الدّنيا.

قال عبد اللطيف: إنّها امرأة صالحة. أجبته بأنّ النساء لايصلحن إلاّ من قلوبهنّ، ولم أجبه بأنّ هذه الفتاة رديئة أكثر من اللازم، سأتزوّج الدّمية وأترك ابنة الجيران.

وفي اليوم الثالث من أيّامها الميّتة الحيّة، اشتريت حنّاء وورداً. فتحت دولاب جدّتي، أخذت قنّينة من ماء الزهر، خلطت الحنّاء بماء الزهر، ونقعت بعض الورد في الخليط، انتظرت ساعتين أو ثلاثا، ثمّ نقشت يدي جدّتي. زوجها الضرير يسألني: ماذا أفعل؟ فأجبته بأنّني أرسم في كفّ جدّتي شجرا وبرتقالا وعصافير، فيقول:

ses sur henné le pas dessine ne tu quoi pour, fils bon un es tu, bien très –

? sains

- سأفعل ذلك، سأفعل ذلك!

لماذا أدفن جدّتي؟ أليس بالإمكان أن تظلّ كما هي جميلة عابقة برائحة الزهر والحنّاء؟

يجيبني زوجها:

rester doit elle, jamais mourra ne mère-grand ta, vivante est elle -

.éternité une est mère-grand ta, mort sa avant était elle comme belle

وكذلك كان الأمر، لم أدفن جدّتي ولا هلت عليها التراب. كلّ يوم كنت أستفيق في الفجر، أتوضأ وأصلّي، أقبّل اليد اّلتي نقشتها بالحنّاء، وأردّي جدّتي قفطانا جديدا وأواصل رحلة الحياة في الموت.

علم عبد اللطيف بالخبر، جاء ليعزّيني، وجد جدّتي في سريرها كأن لم تمت أو تفقد صورتها الجميلة. سألني:

- ألن تدفنها؟

- لن أفعل ذلك ماحييت!

- سيصيبها العفن؟

كانت رائحة الورد تعبق من جسدها، قسماتها حادّة ومتصلّبة، في شفتيها شبه ابتسامة، أنفها مستقيم في قسوة وهي تنظر إليّ كأنّها تسخر منّي.

أجبت عبد اللطيف:

-لا، هذه امرأة لاتموت، هذه امرأة فوق الموت، لا، لن تتعفّن، ستتعفّن جميعا وتسخر منّا.

- هذا حرام، عليك أن تدفنها، إنّا للّه.... وإنّا...

- نعم، نعم، ولكنّ جدّتي جزء من الله، أليس الله هو الذي خلقها؟ وهل الله أمرنا بأن ندفن من نحبّ؟

تصلّب عبد اللطيف، قام من مكانه وهو يقول...

- أنت كافر، سأخبر رجال الأمن بما تفعل، أنت كافر!

أيّها الناس: أنا إنسان يحبّ جدّته، فما علاقة إنسان يحبّ أهله بالكفر؟ أيّها الناس: لن أدفن جدّتي ولو انطبقت السماء بالأرض، أيّها الناس: أنا ضائع فهل تضيع جدّتي؟

.maison cette dans voir te plus veut ne je, d'ici sort -

لم يفهم عبد اللطيف ممّا يقوله زوج جدّتي شيئا، ولكنّه خرج متعثّرا في سرواله الأسود وقدميه.

حمدت الله على أنّني لم أتزوّج ابنة الحلاّق، كانت ستكون صلة وصل بيني وبين عبد اللطيف الذي محوته من ذاكرتي. الدنيا دوائر، وعبد اللطيف دائرة من الدوائر، لن أبحث عنه هذه المرّة.

فصل في البراءة

علمت ابنة السعيدي أنّ جدّتي توفّيت. جاءت إلى فاس تريد استرجاع الدار التي لا يحقّ لها أن تسترجعها. وجَدَتني قد تزوّجت دمية تازة. ثمّ وَجَدَتني قد حصلت على تصريح بأن أدفن جدّتي في منزلها. كنت قد فعلت الأمرين في وقت متقارب.

سألت عن قانون الدّفن فوجدت أنّه يتضمّن فصلا ملائما لما أنافيه من عشق وحيرة وتساؤل:

- يحقّ للأشخاص أن يدفنوا ذوي قرابتهم في الأماكن المخصّصة لذلك، كما يحقّ لهم أن يخصّصوا لهم أماكن معدودة إمّا عن طريق الامتلاك، أو الوقف كالمساجد والروضات والأضرحة.

يحقّ لي إذن أن أجعل من دار جدّتي ضريحا، أسكنه وأترحّم عليها داخله. إنّنا نقدّس الأشخاص على قدر محبّتنا لهم. جدّتي أولى بالتقديس لأنّني أعشقها إلى الحدّ الذي لا أستطيع معه أن أمارس ذاتي دونها.

ثمّ وجدتني ابنة السعيدي قد تزوّجت دمية تازة. لماذا لا أتزوّج دمية بعد أن فقدت سعاد؟ كلّ النساء أصبحن متشابهات بالنسبة إليّ. أجساد من دمى، تتشهّى الواحدة منهنّ، ثمّ لا تجد لديها ما تتشهّاه، كُرات من الهواء، يسرن في اتّجاهات فارغة، ألوان أنيقة تملأ عينيك، ظلال كثيرة، ثم تقترب، تريد أن ترى الواحدة منهن كما رأيتها، تلمسها، تتحرّك نحوها، تنام إلى جانبها، تجد لديها دفئا منتفخا، تتقلّصان بسرعة، ينهار كلّ واحد منكما إلى داخله، تصطنعان القبلة الأولى والثانية، ثمّ لا تجدان المتعة التي أردتها منها وقد تكون أرادتها منك، تجدان شيئا آخر يمرّ بينكما كلا شيء. يصيبك الصمت، تنكمش المرأة بين يديك، تصير أقلّ من دمية، سمّها هامبرجر إذا أردت، قد صار كلّ شيء إلى كلّ شيء، فلا داعي للأسماء إذن.

مادمنا نعيش على إيقاع الخشب، فقد تزوّجت دمية تازة.

لم أقم عرسا لزواجي. اشتريت لحما وسميدا وخضرا، ودعوت أمّي لتطبخ لنا صحفتين من الكسكس.

اجتمعت أمّ الدّمية وابنتها وأمّي إلى مائدة، واجتمع العدلان وزوج جدّتي وأنا إلى المائدة الثانية.

لم ألمس زوجتي في ليلة (العرس). سألتني عن ذلك فأجبتها بأنّني لايمكن أن أتزوّجها إلاّ بعد أن تتخلّى عن هذه المساحيق الكثيرة التي تخفي أكثر جمالها. لم تقتنع بذلك أوّل الأمر، ولكنّها حين رأت أنّني أصدّ عنها، ولا أكلّف نفسي مشقّة النظر إليها سألتني:

- ألست جميلة؟

أجبتها:

- أنت جميلة أكثر من اللازم.

- وهل تحبّني؟

- هذه مسألة أخرى!

كيف يمكنني أن أحبّها وأنا قد فقدت زمن حبّي؟ تزوّجتها لأنّني تزوّجتها، سأحبها إن أمكن ذلك، الآن أنا مشغول بهذه المساحيق الكثيرة التي تخرّب وجهها.

سافرت أمّها فدعوت الدّمية إلى أن تزيل عن شفتيها هذا الأحمر الفاقع الذي ياكلهما. فعلت. اشتريت لها ورديّا هادئا يشبه الصبح. مسحت أحمر خدّيها واكتفيت بأن أنظر إليهما في بياضهما المشوب بسُمرة قليلة كأنّهما صفحة اللبن. وضعت في عينيها كحلا، ورميت أقلامها الملوّنة بالأسود والأزرق والبنيّ. نزعت عنها ثيابها الصاخبة وألبستها ثيابا أنيقة يغلب عليها الأبيض والأزرق الذي يشبه السماء، ثمّ قبّلتها. كان تقبيلها عذبا كماء المطر. نامت إلى جانبي في دفء وطمأنينة، ضممتها إليّ وفي صدري حنين إلى الماضي البعيد الذي يثوي داخلي فلا أستطيع الفكاك منه. كأن حياتي موقوفة على هذا الماضي، عبره أمارس وجودي، لا كيان لي بدونه، وحده يذكّرني بأنّ المحبّة تسكننا ولا تحتاج إلاّ إلى الفرصة لأن تتفجّر. استسلمت للدّمية واستسلمت لي، كانت جميلة حقّا، ربّما يصحّ أن أسمّيها تحفة: عيناها كماء العسل، في شفتيها بريق حبّات الغمام، صدرها صفحة بيضاء ممتلئة بالحنين والغرابة، حين ألمس بطنها أحسّ أنّ كفّي تلمس قطنا طريّا ناعما يملأ عليّ أنفاسي، وأقبّلها. كانت المحبّة بيننا صامتة تتسرّب إلينا في هدوء متمكّن. ننام متعانقين إلى الصبح، ثمّ نستفيق على إيقاع الألفة والسكينة. كان قدّها يتمايل في نحافة أنيقة كأنّه ظلّ دالية.

نظرَتْ إليها ابنة السعيدي في دهشة كبيرة وتوجّهت إليّ:

- من تكون هذه؟

- هذه زوجتي!

- وماذا تفعل هنا؟

- تفعل ماتفعل، ما شأنك أنت بذلك؟

- هل تملك هي أيضا في هذه الدّار المسخوطة؟

- هي التي لها الحقّ في أن تملكها الآن!

- كيف؟ إنكم جماعة من المجانين.

- شيء مؤكّد، فدعينا في هذا الجنون الذي اخترناه، ألا يحقّ للناس أن يصابوا بالجنون؟

- خلّيني من هاد الفلسفة الخاوية. ماذا صنعت في هذه الغرفة؟

- دفنت فيها جدّتي!

ضحك الزوج الضرير، نظرَتْ إليه تشمئزّ من ضحكته وسألته:

- وأنت، ماذا تفعل هنا بعد أن ماتت هذه التي كانت زوجتك.

أجابها:

- Je ne peut pas aller ailleurs, je resterait là.

قلت لابنة السعيدي:

- هل تعرفين أنّ زوجتي تملك هذه الدّار كما كانت تملكها جدّتي؟

- الله يسمّعنا خبار الخير؟

- هذه الفتاة الجميلة التي ترينها هي ابنة خالي، أو إن أردت الدّقّة فهي ابنة خال أمّي، أي أخو هذه المرأة التي دفنت هنا، مارأيك؟

- جماعة من الحمقى، ستقفون عند حدّكم، سنرى ذلك في المحاكم.

قال زوج جدّتي:

- جرّي طوالك. Nous sommes là, on ne quittera jamais les lieux.

نظر إليه سائقها في نوع من الإعجاب والازدراء. وقفت من مكاني أتهيأ لكلّ الاحتمالات، خرجَتْ ابنة السعيدي نحو الباب، أمرَت سائقها بالخروج، تحوّلتُ بنظري إلى الدّمية، وجدتها تضحك، كأنّها فهمت بعض هذه المعاناة من أجل أن نسكن في بيوتنا، أن نطمئن داخلها، ونحوّلها إلى أضرحة. ماذا بإمكان ابنة السعيدي أن تفعل؟ تريد حقّا ليس لها، كيف تستطيع أن تثبته؟ ستقول في المحكمة: إنّ هؤلاء يسكنون دارا ليست لهم، ولمن تكون؟ لزوجة أبيها، وكيف ترث من زوجة أبيها؟ ثم لماذا تخوض ابنة السعيدي هذا الصراع المرير من أجل هذه الدّار؟ لماذا تنتقل

كلّ هذا الانتقال بين فاس والدّار البيضاء؟ هل تريد هي أيضا أن تحوّلها إلى ضريح؟ من ستدفن فيها؟ أباها الذي حوّل هذه الدّار فيما مضى إلى (دار الكاز)؟ مطعم للسياح؟ شيء جميل، لعلّ ابنة السعيدي تريد أن تشارك في إدخال العملة الصعبة؟ ولكن، لماذا لاتبني فندقا من خمسة نجوم وتترك هذه الدّار العتيقة مليئة بالمحبّة وبأهلها الطيّبين؟ علّمتني الفلسفة التي تقادَمتُ معها وتقادمت معي أنّ الحقيقة ليست هي مانراه فعلا، وإنّما هي شيء يكمن خلف هذا الذي نراه.

كنت قد تأكدت من ذلك عدد الرمل، ولكنّني لم أتأكد منه مثل هذه المرّة.

كانت زوجتي حاملا، وكان قد تحقّق لي فرح بهذا الحمل الذي طالما انتظرته، مع دمية تازة، أو مع غيرها من النساء. المهمّ أن تكون لك زوجة حامل، وأن تلد لك ابنا ترى فيه صورتك التي فقدتَها. كانت هذه الدّمية تحبّني حقّا، وكنت أعطف عليها أكثر ممّا أحبّها. ثمّ إنّ جسدها كان جميلا، وممتلئا في رشاقة لاأكاد أتمالك نفسي معها. تهيّئ مأكلي فأقبّلها، تغسل ملابسي فأراودها عن نفسها، ثمّ تنام إلى جانبي فتملك في كلّ يوم جزءا من كياني. وحين أصبحت حاملا كان لابدّ لي من أن أحبّها.

ذات يوم اشتهت الحلزون، لم أتردّد في أن أرضي اشتهاءها. وضعناه في صحن كبير، وجلسنا لناكل.

كانت تنتقي أحسنه، تسلّه من غشائه في حركة سريعة، تضعه في فمي، أدعوها إلى أن تاكل فترفض ذلك. تساءلت، أجابني زوج جدّتي:

- Elle est enceinte.

أصابها في تلك الأيّام قيء ودوار، أخذ جسمها يذبل قليلا، علتها صفرة طفيفة جعلتني أشعر بالذنب، كنت أتشهّى لها الفاكهة والعنب وأدعوها إلى أن تقتات فلاتريد. ماتكاد تاكل تمرة أو ربع تفّاحة حتّى تحسّ بالرغبة في القيء ولاتتقيأ. وبالرغم من كلّ ذلك فإنها تبتسم في وجهي وتعمل على أن تثير رغبتي، فأغازلها وأضمّها إليّ وننام في طمأنينة.

سألت أمّي عن الوحم الصعب والحمل الأوّل عند النساء، أجابتني بأنّ الأمر لايعدو أن يكون مرحلة عابرة تحتاج إلى بعض الصبر وكثير من المراوغة.

فهمت من وحم زوجتي أنّ الإنسان لاحم ونباتيّ، وأنّ الدّمى لابدّ أن يملن إلى النبات لأنهنّ ترابيات يرتمن للطين والرمل والفحم، ويتقيّأن إذ يرفضن الماء.

اشتريت أصصا كثيرة وضعتها فوق قبر جدّتي فبدت جميلة مزركشة بنبتاتها الصغيرة المتناسقة، ودعوت زوجتي إلى أن تسقيها ففعلت ذلك في عناية كبيرة.

حين لاحظت أنّها ارتاحت لذلك اشتريت لها حمامتين، ودعوتها إلى أن تنثر لهما الذرة والحبّ وتسقيهما الماء ففعلت.

ثمّ بعد ذلك اقتصرت على الخضر والفواكه وبعض القطاني الخفيفة والطيّبة. أضربنا عن ذبح الحيوان وافتراسه فازدادت محبّتنا واشتقنا لهذا المولود الذي سيملأ ضريح جدّتي.

وفي يوم من أيّام الحمل، وأنا أقرأ كتابا قديما في الفلسفة التي أصبحت أدرّسها بعد أن درّست التاريخ والجغرافية، زارني أهل الحال وأصحاب السؤال، يحقّقون معي هذه المرّة في أنّني أتناول الكحول وأتعاطى المخدّرات.

كان أوّل جواب أجبتهم به هو التالي:

أمّا الكحول فإنّه يقتضي السكر العلنيّ وإثارة الشغب، وأمّا المخدّرات فلا قِبَل لي بها ولاقبل لها بي!

- هذا صحيح، ولكنّه لابدّ من تفتيش منزلك!

- لن تجدوا فيه ماتريدون!

- لابدّ من أن ندخل!

- ادخلوا إذا أردتم، ستجدون دواوين الشعر وأصص النبات وقبر جدّتي!

- قبر جدّتك؟

نظر واحد إلى الآخر، وكأنهم قد اكتشفوا في قبر جدّتي كلمتهم السحرية. ودخلوا.

اندهشت زوجتي لرؤيتهم. وسألني الرّجل الضرير عمّن يكون هؤلاء؟ أجبته بأنّهم أصحاب الحال والسؤال. فهم ما أعنيه فرفع نظره نحوهم قائلا:

- nous laissez, nous chez faire à rien n'avez vous, vous voulez Que .tranquilles

لم يكترثوا له، فهو رجل أعمى بالنسبة إليهم، ماذا بإمكانه أن يفعل؟

حين لم يجيبوه استشاط غضبا:

- . salopards des êtes vous, nous chez nous laissez, sortez

لم يفهموا مايقول، ولكنّ أحدهم لكمه إلى فمه، صاحت زوجتي:

- ماذا تفعلون؟ هذا رجل ضرير؟

- اسكتي، أوسَدَ. . . دين أمّك.

فزعَتْ لكلامهم الذي لايمكن أن يكون كلاما، أجهشت بالبكاء، وذهبت إلى غرفة نومها التي ألِفَتْها بالشعر والمحبّة.

سألوني عن قبر جدّتي:

- ما هذا؟

- قبر جدّتي.

- وماذا دفنت فيه؟

- جدّتي.

- وحدها؟

- وحدها.

- والكيف، الحشيش، أين وضعته؟

صاح زوج جدّتي:

- أنتم مجانين، vous êtes vraiment des salopards.

رفسه أحدهم في صدره، أراد أن يأخذ عصاه، انفلتت منه، عاود البحث، أمسك بها والرجل ينظر إليه ماذا سيفعل، ضرب في الهواء ضربتين، ثمّ أصابه في الثالثة، أخذ أصحابه يضحكون منه، قال رئيسهم:

- نحن جئنا لنفتّش.

قلت:

- فتّشوا ما شئتم، إلاّ هذا القبر وهذه الغرفة، أعني: قبر جدّتي وغرفة شعري.

قال الرئيس:

- ابدأوا من هنا!

وكان يشير إلى ضريحي.

وقفت متصلّبا عند رأس الجدّة الذي لا يمكن أن أتزحزح عنه إلاّ إذا ركعت.

خاطبني أحدهم:

- زول الكلب اللّي ولدك.

ليت أبي يسمع أنّني من أبناء الكلب. ولكنّ أبي مات مختنقا، فماذا أفعل أنا؟

أصابني صمت أخرس، أطلّت زوجتي من غرفة المحبّة، ذهبت إليها، أدعوها إلى الطمأنينة، وإلى أن تتركهم يفعلون ما يريدون.

أسقط أوّلهم خُمّ الحمام من مكانه، وذهب الثاني إلى أصص النبتات يكسّرها ولمّا تَنْبت، ثم قصد الثالث قبر جدّتي يريد حفره. كأنهم كانوا مهيئين لذلك! أخذوا فؤوسا لم أدر من أين كانت لهم، ثم أخذوا يحفرون. كنت أحسّ أنّ كلّ ضربة من ضرباتهم تكسّر جزءا من كياني، كأنّهم كانوا يحفرون عضلات قلبي. عاودتني آلام الماضي البعيد، كدت أسقط، تماسكت، كنت أعاني من الرهبة والفزع، حاولت أن أبكي، لم أستطع، اختنقت في بكائي، أخذت أنظر إليهم في دهشة غريبة، كسّروا

الرخام الجميل الذي رصّعت به ضريح جدّتي، قلت في نفسي: إنّ هؤلاء لا يمكن أن يكونوا من البشر، هؤلاء أناس يعيشون وسط الوهم والتسلّط، يخافون أن يكون وهمهم وهما، فيريدون أن يجعلوا منه حقيقة. وأنا، أنا لا يمكن أن أجعل من الوهم حقيقة. كيف يمكن أن أصدّق بأنّ قبر جدّتي مليء بالمخدّرات. إنّ هؤلاء يعيشون جنونا رهيبا.

احفروا ماشاء لكم الحفر، انبشوا في هذه المرّة داخل الأضرحة، قطّعوا أغشية قلبي، لعلّكم ستجدون وهمكم في دمي.

ثم استقرّ بي المقام في قبرها. وضعت يدي تحت رأسها، رفعته قليلا إلى أعلى، اندهش أصحاب الحال والسؤال، خاطبتهم:

- انظروا إلى يديها المخضّبتين، استنشقوا رائحتها الطرية، هل بإمكانكم أن تجدوا أحسن من هذه الملابس التي ارتدتها جدّتي؟ قولوا الآن إنّني دفنت معها هذه المخدّرات التي تبحثون عنها، اتّهموني في جدّتي أيضا، هل رأيتم في حياتكم أجمل من هذا الدّفن؟ هل تستطيعون أن تفعلوا مثل ما فعلته؟

هم مندهشون، ودمية تارة تبكي متأثّرة لحالي ومتسائلة عمّا سيؤول إليه أمري وأمرهم.

لم أكن خائفا، لقد تعوّدت منهم أكثر من أن يكسّروا محابقَ الغرس والحفر عن الأجساد، تعوّدت منهم أن يحفروا في قلبي، مرّة قالوا لي: إن نبضك نبض مغشوش! فتساءلت إثر ذلك: هل أنا المسؤول عن هذا النبض؟ ثمّ أجبت نفسي: إنّهم يكذبون ويتابعونني بتهمة عدم تصديق هذا الكذب، هل أصدّق أناسا يقتلون الصدق؟ لربّما تكون العلاقة بيني وبينهم علاقة مفقودة بشكل تامّ، فأرادوها علاقة مغشوشة ثم اتهموني كي أصدق بأنّني أنا المغشوش. نعم، ستتمّ تبرئتهم في هذه الحال، وستثبت تهمتي، سيتواصل فزعي إذن، ثم سأظلّ في ما يرَيدون، ولكنّه ليس من الممكن أن أصدّق أنني مغشوش، سأكون إذن مسؤولا عن ضياع ياسمين، وعن ذبح سعاد، ثمّ سأتّهم أيضا بأنّني قد قتلت جدّتي كي أسيطر على دارها الموقوفة.

فهمت أنّ الضربة جاءتني هذه المرّة من قبل ابنة السعيدي، وصراع جدّتي مع السعيدي لم يكن صراعا مغشوشا، إذن عليّ أن أتسلّح بهذه الجدّة حتّى لا أكون مطعما للسائحين.

أخرجت جدّتي من قبرها، نزعت عنها ثيابها، كانت رائحتها طريّة كعهدي بها، عيناها مغمضتان، وجهها أملس كأشعة الشمس، كنت متيقّنا من أنّها ستكون في قبرها جميلة رائعة كما كانت في حياتها.

رأيت الدهشة في وجوههم، أصابهم الذعر حين رأوا وجهها الجميل، سيطرت عليهم الرهبة من هذا الجسد الذي عشقته، توقّفوا في حركتهم الخائبة، أصيبوا بالصمت الذي ابتليت به من زمن بعيد، تساءل أحدهم:

كيف سنعيد بناء هذا الجسد الذي خرّبناه؟

أجبتهم:

لا شأن لكم بذلك! هذا أمر يهمّني! أنا المسؤول عمّا خرّبتم فاتركوني لحالي!

ثم خرجوا وتركوني لحالي من الحمق والعشق والموت!

الرباط: 1988-1993

الفـهـرس

ف : 1464 تاريخ استلام: 20/6/2006

يشاع عن جدّي أنه يذهب إلى (بريكة) في منزلها ، فتغني له وتسقيه من خمرتها ومحبتها السمراء ، ويقضي عندها بعض الليل ، ثم يصيبه الخوف من ابنه الحاج محمّد ، فيعود إلى منزله قبل مطلع الفجر .

يقول أبي إنّه كان يحبّهما معًا ، وتقول أمّي : إنّه كان يهوى (بريكة) ويحب جدّتي ، وتقول جدّتي : إنها كانت ساحرة سوداء قتلته ! هل مات جدي حبًا؟

كان يهواها فيذهب إليها كل ليلة بعد أن ينتهي من تجارته في حانوت فسيح ملأه بالأواني النحاسية العتيقة والزرابي المتقادمة وبنادق المخزن من عهد السيبة . كان الفرنسيون يعشقون سلعته فيشترونها بأي ثمن . تعلم منهم لهجتهم فزار الجزائر وأسبانيا وباريز ، ولم يحجّ ! تتحسر أمي على ذلك وتدعو له بالمغفرة . كان يدخل إلى (بريكة) فيجد لديها ما لا يجده عند (العزيزة) .

أسأل أمي :

ـ كيف تعرف عليها؟

ـ عنت في عرس أخته فانفعل بجمالها العنبري وصوتها الحزين وهي تردد :

مثْلي مثْل الحَمام

مَنْ الفُوق مَا بانْ دخان

ومَنْ القلب طَابو حْجاري

إيلا ما بغَاني حْبيبي نْعيش مْعاه

نْقصد بهْوايا الغْيبْ والصْحَاري

نْعيش مْعَ الطْيور والزْهار والبْراري

حتّى نجبرْ حْبيبْ نْهديلُو أيّامي ونْدفن فقلبو سْراري

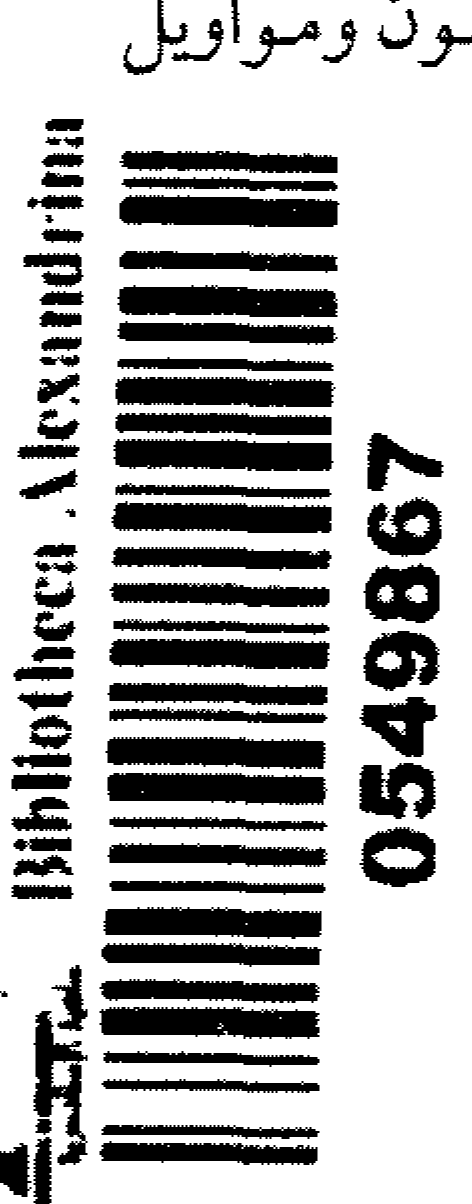
كْواني الزْمَان ياهْل الهْوى بهْمومي وجْمَاري .

منحها جدي في إعجابه المجنون بسمرتها وصوتها خاتما وخلخالا ورثهما عن أمه ، ثم صاح وسط الجميع : «اشهدوا أيّها الناس أن هذه أجمل امرأة في الدنيا» .

كان (بريكة) تحبه ، وكانت ترضي جنونه بالغناء الحزين . لم يكن المذياع في ذلك الوقت قد شاع استعماله في فاس؟ وكان الناس يرضون نزوعهم الفطري إلى الغناء بالأندلسي والملحون ومواويل بعض المغنيات اللائي يظهرن بين حين وآخر في مدينتنا .

ـ أحبّ (بريكة) وتزوّج جدّتي؟ لماذا لم يتزوجها وقد أعطاها خاتما وخلخالا؟

ـ منعه أبوه من ذلك لأنها كانت تغني .



ISBN 9981-25-098-8

